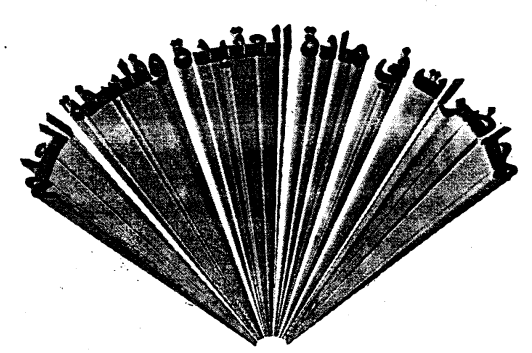
جامعة الأزهر
كلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة



إعداد
دكتـــــور
نظير محمد محمد عياد
مـــدرس العقيـــدة والفلـــــسفة
كلية أصـــول الدين - جامعة الأزهـــر

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونشكره ولا نكفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله خصنا بخير كتاب أنزل وشرفنا بخير نبي أرسل وجعلنا بالإسلام خير أمة أخرجت للناس نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ونؤمن بالله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله اللهم أحينا على سنته وأمتنا على ملته واحشرنا في زمرته وألحقنا بصحبته اللهم آمين .

وبعد : يبدو من مصطلح فلسفة العلم أنها ليست فلسفة خالصة ولا هي علم خالص وإنما هي نوع من المعرفة يربط بينهما في كل متسق ، أي أنها تتفلسف حول العلم لأن فلسفة العلم هي كل ما يحلل العلم ولا يكون جزء منه فهي حديث فلسفي عن العلم ولا تقدم معارف علمية جديدة بل تتفلسف حول تلك المعارف وحول المناهج التي توصلت إليها .

وهذه عجالة في مادة العقيدة وفلسفة العلم أسعفت بها طلاب قسم العقيدة والفلسفة من كلية أصول الدين جامعة الأزهر وقد توخيت فيها الدخول إلى عقول الطلاب من أقرب الطرق الممكنة مع الحرص على مناقشة المسائل التي اشتمل عليها هذا الكتاب من نواح متعددة ليسهل على الطالب فهمها ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى لكي يتمكن من دفع الشبه التي تثار حول العقيدة الإسلامية وقد جاء هذا الكتاب مشتملا على عدة موضوعات عرضت على النحو التالي :

الفصل الأول : مقدمات عامة

الفصل الثاني : دراسة لبعض النظريات العلمية وموقف العقيدة منها

الفصل الثالث : دور فلسفة العلم في إثبات عقيدة الألوهية

الفصل الرابع : دور فلسفة العلم في إثبات المعجزة

الفصل الخامس : دور فلسفة العلم في إثبات اليوم الآخر

والله أسأل أن تكون هذه العجالة حافزاً لطلاب العلم على البحث والاستزادة إنه سميع مجيب وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

دكتور

نظير محمد عياد

مدرس العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين – جامعة الأزهر

الفصل الأول

مقدمات عامة

* معنى العقيدة في اللغة

العقيدة من عقد بمعنى معقودة (اسم مفعول) وهي تطلق على العهد والحبل والبيع ، تقول العرب : عقد البيع ، وعقد العهد ، وعقد الحبل[1] .

فكلمة عقيدة هي العهد والضمان وهي من الألفاظ الكلية التي لا يحدد مفهومها إلا بما تضاف إليه ، ولكنها من حيث الاشتقاق اللغوي تدل على معنى عام أي ما يعقده الإنسان من التصميم والعزم .

فكأن العقيدة هي العهد المشدود والعروة الوثقى وذلك لاستقرارها ورسوخها في الأعماق .

والاعتقاد مصدر اعتقد كذا إذا اتخذه عقيدة له ، بمعنى عقد عليه الضمير والقلب ودان إليه الله به ، وأصله من عقد الحبل والبيع ثم استعمل في التصميم والاعتقاد الجازم[2] .

وكذلك تأتي العقيدة بمعنى لزم ومن ذلك ما ورد في الحديث الشريف (الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة)[3] .

أي ملازم لها كأنه معقود فيها

فكلمة عقيدة مأخوذة من العقد وهو الجمع بين أطراف الشيء ومادة عقد في اللغة تطلق على اللزوم والاستيثاق .

---

(1) انظر : مختار الصحاح ، للرازي ص٢١٠ ، دراسة وتقديم د/ عبد الفتاح البركاوي . ط دار المنار وانظر أساس البلاغة للزمحشري ح١٢ ص٣١ – ٣٢ سلسلة الهيئة العامة لقصور الثقافة .

(2) انظر : أضواء على قضايا العقيدة الإسلامية د/ محمد العزيزي ص٢ . ط ١٤١٤هـ ١٩٩٤ (بدون) .

(3) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه . ك الجهاد والسير ح٢ ص٣١٩ ط المكتبة السلفية.

وقد جاء في القرآن الكريم " لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان ... "(١) .

أي : بتعقيدكم الإيمان وهو توثيقها بالقصد والنية[٢] .

ومعنى هذا أن عقد الإيمان يكون بقصد القلب وعزمه بخلاف اللغو وهو ما يجري على اللسان دون قصد أو إرادة عزم .

وقد استعير للمعاني التي تدل على العقد مثل عقد البيع ، وعقد النكاح ، وعقد اليمين .

قال تعالى : " يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير محل الصيد وأنتم حرم ... "(٣) .

وقال تعالى : " ولا تعزموا عقد النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله "(٤) .

وقال تعالى : " والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم ... "(٥) .

ومن ثم يتضح لنا أن كلمة العقيدة تدل على الوثوق والثبات والصلابة في الشيء . ومن هنا جاء تعريف العقيدة والاعتقاد في المعجم الوسيط أن العقيدة يقصد بها: الحكم الذي لا يقبل الشك فيه لدى معتقده ، وأنها أي العقيدة – في الدين : ما يقصد به الاعتقاد دون العمل كعقيدة وجود الله ، وإرسال الرسل والجمع عقائد[٦] .

---

(١) سورة المائدة الآية ٨٩ .

(٢) الكشاف للزمخشري ج١ ص٦٧٢ – دار الريان للتراث ط٣ – ١٤٠٧هـ ، ١٩٨٧م .

(٣) سورة المائدة الآية ١ .

(٤) سورة البقرة الآية ٢٣٥ .

(٥) سورة النساء الآية ٣٣ .

(٦) المعجم الوسيط مجمع اللغة العربية . ج٢ ص٦١٤ . الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية .

- العقيدة في الاصطلاح :-

لقد بان لنا أن العقيدة لدى علماء اللغة تعني التصميم على الشيء والصلابة فيه :
وقد جاء تعريفها بأنها " تصميم القلب والاعتقاد الحازم الذي لا يخالطه شك في أمور الاعتقاد ، كالإلهيات والنبوات والسمعيات وغيرها مما يجب الإيمان به "[١]

وقيل العقيدة هي : الأمور التي يجب أن يصدق بها قلب المرء وتطمئن الله نفسه ويوقن بها يقيناً ثابتاً لا يخالطه أدنى شك[٢] .

وقيل بأنها : " مجموعة من قضايا الحق البدهية المسلمة بالعقل والسمع ، والفطرة ، يعقد عليها الإنسان قلبه ويثبت عليها صدره جازما بصحتها ، قاطعاً بوجودها وثبوتها ، لا يرى خلافها أنه يصح أو يكون أبداً "[٣] .

وذلك كالاعتقاد بوجود الله تعالى ووحدانيته وما يجب له من صفات الجلال والكمال ، وكالاعتقاد بكونه تعالى غني عما سواه لا يشاركه أحد ولا يشبه أحد ، ولا يشابهه أحد ليس كمثله شئ وقصارى القول : أن العقيدة في الاصطلاح تعني الحكم الذي لا يقبل الشك لدى صاحبه ، فهو يؤمن ويدين به عن اقتناع .

هذا هو تصور علماء الإسلام لمعنى العقيدة أما في اصطلاح علماء الغرب فنجد أنه يختلف عن هذا المعنى .

فبينما يذهب " جوستاف لوبون " في كتابة الآراء والمعتقد أن إلى أن العقيدة معناها " إيمان ناشئ عن مصدر غير دليل ، فلا دخل للعقل في إيجاد هذا

([١]) العقيدة في ضوء الكتاب والسنة د/ أحمد السيد رمضان ص١٢ - ١٣ مكتبة الإيمان للطباعة والنشر . ط١ (١٤١٩هـ - ١٩٩٩) .

([٢]) انظر رسالة العقائد للإمام الشهيد حسن البنا ص٣٧٩ ضمن مجموعة الرسائل .

([٣]) عقيدة المسلم . أبو بكر الجزائري ص١٩ بدون .

الإيمان ، وإن حاول تأييده بعد تمام تكوينه لذا تكون العقيدة مطابقة للواقع حينـــاً وغير مطابقة في أكثر الأحيان "[1] .

ثم يفرق بين العقيدة والعلم من حيث اختلاف المنشأ فنرَاه يذهب إلى أن العقيــدة إلهام لا شعوري ناشئ عن علل لا دخل لإرادتنا فيها ، أما العلم فـــهو اقتبـــاس شعوري عقلي منشؤه التأمل والاختيار "[2] .

وإذا كان هذا هو تصور "جوستاف لوبون " لمعنى العقيدة فإن معظم المفكريـــن الغربيين لا يختلف عنه لأن العقيدة في نظرهم تعتمد على سند فوق الطبيعة فهي قوة مطلوبة راجعة لظروف شخصية أو تجارب ذاتية منقولة من الحياة بمعنـــى موجز العقيدة لديهم تعني طريقة حياة لا طريقة فكر[3] .

وبهذا المعنى يوجد للعقيدة الدينية لدى المفكرين الغربيين المعاصرين أكثر مـــن تعريف ومن ذلك .

أ) وليم جيمس :

يرى جيمس أن جوهر الديانة هو الإيمان بالبقاء وأن هذا البقاء مرهون بوجـــود قوة صديقه للإنسان وراء الظواهر الطبيعية أو المادة العمياء[4] .

ب) جوردون ألبورت :

فيرى أن الاعتقاد قد مر بمراحل ثلاث :

---

(1) انظر العقيدة الإسلامية في ضوء العلم الحديث .د/ مسعد الدين السيد صالح ج١ ص١٤ . نشر دار الصفا . ط٢ (١٤١١هـ - ١٩٩١م) .

(2) نفس المصدر ص١٤ .

(3) انظر : عقائد المفكرين في القرن العشرين أ/ عباس العقاد ص٢٣ مكتبة الأنجلو المصرية ، الإسلام وفلسفة العلم د / أحمد رمضان ص٢٧ الدار الإسلامية للطباعة والنشر (١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م) .

(4) نفس المصدر ص١٠ ، وانظر الإسلام وفلسفة العلم ص٢٧ .

الأولى : التصديق الساذج وهو أوضح ما يرى في الطفل الذي يصدق حواسه وخياله وهو ما يسمعه بغير تمييز فعقائده الأولى مستمدة من هذا .

الثانية : مراحله الشك وفي هذه المرحلة يأتي الشك على عقل الإنسان من كل جهة وليس في وسع الإنسان أن يكون عقيدة مستقلة ما لم يتخلص من كل موروث مسموع كان سبباً لإلمام النقص به .

الثالثة : مرحلة الاعتقاد الناضج وهي تتطور مع المشقة من تراوح الشكوك والتوكيدات التي يتسم بها كل تفكير مفيد "..[1] .

هذه هي تصورات بعض المفكرين الغربيين للعقيدة الدينية والملاحظ عليها ما يلي :

١- أن العقيدة لديهم تقوم على مجرد التسليم دون الاهتمام إلى الاستدلال العقلي .

٢- أن العقيدة في نظرهم نشأت لظروف شخصية أو تجارب ذاتية .

٣- أن العقيدة لديهم طريقة حياة لا طريقة فكر .

ولا شك أن هذا على خلاف العقيدة في نظر الإسلام فقد اتفق علماء الإسلام أن العقيدة لا تستحق هذا الاسم إلا إذا كانت في ذاتها مطابقة للواقع ناشئة عن الدليل فقد اشترط علماء الإسلام الاستدلال العقلي اليقيني لصحة العقائد لأن القرآن الكريم قد دعا في كثير من آياته إلى أعمال العقل والفكر ، ونعى على المقلدين الذين يسلمون بالعقائد دون تحميص أو تدبر فيها وقد جاء في القرآن الكريم آيات متعددة تدعوا إلى أعمال العقل والفكر .

قال تعالى " فلينظر الإنسان إلى طعامه "[2] .

([1]) نفس المصدر ص١١ - ١٢ والإسلام وفلسفة العلم ص٢٨ - ٢٩ .

([2]) سورة عبس الآية ٢٤ .

وقال تعالى" أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت "[1] .

وذم طائفة من الناس لكونهم ألغوا عقولهم فقال تعالى " لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل"[2] .

- الفرق بين العقيدة والاعتقاد :

الاعتقاد مصدر اعتقد كذا أي اتخذه عقيدة له بمعنى عقد عليه القلب والضمير ، ودان الله به وأصله من عقد البيع ثم استعمل في التعميم والاعتقاد الجازم[3] .

والاعتقاد له معنيان أحدهما عام ، والآخر خاص :

فالاعتقاد بالمعنى العام يطلق على الرأي والظن – ويشتمل – كالرأي والظن – على درجات متفاوتة .

أما الاعتقاد بالمعنى الخاص – يطلق على الثقة برأي لشاهد أو على الركون إلى قول عالم حصل التصديق بقوله لأسباب خارجية دون أن تفحص مباشرة[4] .

بخلاف العقيدة فهي الحكم الذي لا يقبل الشك فيه لدى معتقده ومن ذلك يتضح لنا أن الفرق بين العقيدة والاعتقاد كما يلي :-

أ) أن العقيدة اعتقاد جازم مطابق للواقع لا يقبل شكاً ولا ظناً .

---

(1) سورة الغاشية الآيات ١٧ – ٢٠ .

(2) سورة الأعراف الآية ١٧٩ .

(3) انظر : العقيدة في ضوء الكتاب والسنة . د/ أحمد رمضان ص١٧ .

(4) انظر : المعجم الفلسفي د. جميل صليبا ج١ ص١٠٤ – ١٠٥ دار الكتاب اللبناني بيروت ط١ .

ب) أن الاعتقاد إذا كان غير مطابقاً للواقع ولا سند له ولا دليل عليه فـــهو ليس بعقيدة صحيحة وذلك كاعتقاد اليهود أنهم أبناء الله وكزعم النصارى أن عيسى ابن الله أو أن الله ثالث ثلاثة .

ج) أن متعلق الإيمان والاعتقاد يسمى عقيدة فالإيمان بوجود الله تعالى عقيدة أما التصديق بوجوده فهو اعتقاد .

- الفرق بين الاعتقاد والاقتناع واليقين والعلم :

- الاعتقاد : هو الحكم الذهني الجازم القابل للتشكيك .
- الاقتناع : هو حكم ذهني جازم لا يقبل التشكيك .
- اليقين : هو اقتناع مستند إلى أسباب وحجج ثابتة .
- العلم : حكم جازم لا يقبل التشكيك كالاقتناع واليقين[1] .

([1]) العقيدة في ضوء الكتاب والسنة ص١٨ – ١٩ .

*** تعريف كلمة فلسفة :**

– في الاشتقاق اللغوي :–

كلمة فلسفة ليست عربية الأصل ولكنها كلمة معربة عن كلمتين يونانيتين أحدهما " فيلو " ومعناها محبة ، والثانية " سوفيا " ومعناها الحكمة فتكون الفلسفة بمعنى محبة الحكمة .

والحكمة في ذاتها أرقى أنواع المعرفة وكان قدماء العلماء والمصلحين يسمون أنفسهم أو يسميهم الناس حكماء ، حتى جاء " فيثاغورث " أن الحكمة بمعناها التام لا تضاف للإنسان فالواحد منا يعاني المشقة في تحصيلها فكيف يسمى حكيماً لهذا نسب إليه قوله لست حكيماً ، فإن الحكمة لا تضاف إلا إلى الإلهة ، وما أنا إلا فيلسوف ، أي محب للحكمة وقوله لا حكيم إلا الإله وحده والإنسان فيلسوف محب[1] .

وقصارى القول : أن الفلسفة في الاشتقاق اللغوي تعني محبة للحكمة والحكمة قديماً كانت تطلق على جميع المعارف من طب وفلك وطبيعة ورياضة وأخلاق لكن لفظ فلسفة وإن كان أصله يونانياً إلا أنه له نظير لدى كثير من الأمم والشعوب التي لا تنسب إلى اليونان فعلى سبيل المثال نجد في المحيط الإسلامي كلمة حكمة تؤدي المعنى الأعم والأشمل التي تؤديها كلمة فلسفة حتى قبل نقل هذه الكلمة إلى المحيط الإسلامي ، قال تعالى " يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ... "[2] .

---

(1) انظر دروس في تاريخ الفلسفة د. إبراهيم مدكور أ. يوسف كرم (المقدمة) مطابع مدكور وأولاده بمصر ١٩٥٤ ، انظر : أسس الفلسفة د. توفيق الطويل ص٥٤ دار النهضة العربية ط٧ – ١٩٧٩م .

(2) سورة البقرة الآية ٢٦٩ .

فقال المفسرون في معناها : بأنها النبوة وفسرها ابن عباس بالقرآن وعن مجاهد أنها الإصابة في القول وسئل مالك عن الحكمة فقال المعرفة بالدين والفقه والاتباع[١] .

ولعل أقرب التفاسير للحكمة ما قيل في تعريفها بأنها المعرفة بالدين والفقه فيه والاتباع لأوامره ، لأن هذه الركائز هي التي تمكن الإنسان من الوصول إلى معرفة الله تعالى وتجعله ينشد الفضيلة ومعنى هذا أن الحكمة تتكون من عنصري العلم والعمل وهذا ما عليه معظم علماء اللغة فالحكمة في اللغة اسم للعلم المتقن والعمل به[٢] .

ويؤيد ذلك ما ذكره ديكارت عندما أراد أن يميز بين الحكمة بالمعنى الشائع وبالمعنى الذي يقصده فقال " لا يقصد بالحكمة التحوط في تدبير الأمور فحسب بل يقصد منها معرفة كاملة لكل ما يستطيع الإنسان أن يعرفه ، إما لتدبير حياته ، أو لحفظ صحته أو لاستكشاف الفنون جميعاً "[٣] .

– تعريف الفلسفة :

يصبح القول : بأن كلمة فلسفة من الكلمات التي يصعب على الباحث في الفلسفة أن يضع لها تعريفاً محدداً يحدد معناها ويوضح المقصود منها ، بحيث يكون تعريفها جامعاً مانعاً .

وربما كان هذا هو السبب في وجود طائفة من الباحثين يفضلون عدم تقديم تعريفاً معيناً لها لأن القضية هنا ليست قضية فلسفية بذاتها ، أو فيلسوف بل قضية التراث الفلسفي برمته .[٤] .

([١]) انظر تفسير ابن كثير ح١ ص٤٨٠ – ٤٨١ . دار الفكر ط٢ ، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م .

([٢]) انظر : التعريفات للجرجاني ص١٢٤ ط دار الريان للتراث .

([٣]) المعجم الفلسفي . د/ مراد واهبة ص١٧٨ ط٣ . نشر دار الثقافة .

([٤]) انظر : دراسات فلسفية وأخلاقية . د/ محمد كمال جعفر ص ٩ – ١٠ .

ولا شك أن هذا فيه شئ من الغرابة لأنه يتناقض مع أولى مهام الفلسفة وهـــي التحديد والتعريف ، ومع هذا فقد ذهب بعض المفكرين إلى أن صعوبة تعريـف الفلسفة ترجع إلى :

١) أن تعريفات الفلسفة تؤخذ في الغالب من الموضوع الذي يتناوله العلـــم الفلسفي وعلم الفلسفة يأخذ تعريفه من مباحث لا تقف عند حـــد معيـن بحيث يكون هذا التعريف منطقياً على الموضوع الذي يدرس في كـــل عصورها إذ أن لكل عصر طابعه الخاص وموضوعاته التي يدرسها[١]

فعلى سبيل المثال كان البحث الفلسفي في مراحله الأولى كان موجهاً إلـــى العالم الخارجي وما أصله وما مصيره ثم تحول الأمـــر بعـد ذلـك إلـى موضوعات أخرى ونظريات مختلفة باختلاف العصور والمراحـل بمعنـى أخر ، كان التعريف السائد في العصر اليوناني أو العصر الوسيط مغـــايراً لتعريفها في العصور الحديثة والمعاصرة .

" لقد كانت الفلسفة في فترة من فترات تاريخها هي إمكان الوصول إلى معرفـــة يقينية وكانت أيضاً البحث عن اللذة العقلية بغض النظر عن أي جانب عملـــي ، ولكنها كانت في فترة أخرى المدبرة لحياة الإنسان العملية"[٢] .

فها هو "شيشرون" يخاطب الفلسفة بقوله " أيتها الفلسفة أنت المدبرة لحياتنـــا : أنت صديق الفضيلة وعدو الرذيلة ، ماذا نكون وماذا تكون حياة الإنسان لولاك "[٣] .

٢) تباين وجهات نظر المذاهب الفلسفية المختلفة في تعريفها للفلسفة

انظر : مدخل إلى الفلسفة د/ أحمد السيد رمضان ص٧٩ ط الدار الإسلامية للطباعة والنشر .

(١) محاضرات في الفلسفة العامة . د/ أحمد عبد الوهاب ص٥٣ بدون .

(٢) مدخل إلى الفلسفة . د/ أحمد رمضان ص٨٠ – ٨١ .

(٣) المدخل إلى الفلسفة أ/ فيلد كوليه . ترجمة . د/ أبو العلا عفيفي ص١٠ ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٢م .

فالتعريف الذي يقدمه المذهب التجريبي يرفضه المذهب المثـــالي ، والتعريـــف الذي يقول به الفيلسوف الهجيلي يرفضه الفيلسوف البرجماتي[١]
وما يتمسك به الوجودي يرفضه الوضعي وهكذا .

أ) تعريف الفلسفة في عصرها القديم :

من المعلوم أن البحث الفلسفي في نشأته الأولى كان موجهاً نحو العالم الخارجي ما أصله وما مصيره ؟ إلى غير ذلك من الأمثلة المتعلقة به لهذا لا نجد غرابـــة أن نجد تعريف الفلسفة لدى الطبيعيين الأوائل يدور حول هذه المسائل فعرفـــوا الفلسفة بأنها " البحث النظري في العالم وتعليل ظواهر الكون "[٢] .

وعندما جاء السوفطائيون حولوا البحث من النظر في الكون والطبيعـــة إلـــى الاهتمام بالإنسان ، وعملوا على التغلب إلى الخصم من خـــلال الجـــدل وقـــوة المنطق وقاموا بتعليم هذا للناس لذا جاء تعريفهم للفلسفة على النحو التالي بأنها " العلم النظري الممارس الذي يقصد منه الغلبة على الخصم بالحق أو بالباطل "[٣]

ولما جاء سقراط وكانت غايته هو القضاء على الأفكار السوفطائية التي خربـــت عقول الشباب ودمرت حياتهم وكادت أن تقضي على المجتمع اليوناني ، ووجـــه بحثه نحو الإنسان وأخلاقه وسلوكه نجد تعريفه للفلسفة جاء على النحو التالي فقد عرفها بأنها : " البحث عن الحقائق بحثاً نظرياً وعن المبادئ الأخلاقية من خـــير وعدل وفضلة "[٤] .

---

(١) انظر مدخل إلى الفلسفة د/ أحمد رمضان ص٨٠ .

(٢) انظر : محاضرات في الفلسفة العامة د/ أحمد عبد الوهاب ص٥٤ بدون .

(٣) نفس المصدر ص٥٤ .

(٤) نفس المصدر ص٥٤ .

كما عرفها بأنها " العلم بمعناه الواسع الشامل فالفلسفة كانت تعني العمل المنهجي للفكر الذي ينبغي أن يؤدي إلى معرفة الوجود "[1] .

ويمضي الزمن ويولد أفلاطون الذي كان تلميذاً لسقراط فيعرفها بأنها كسب أو تحصيل المعرفة أما الفيلسوف فهو الشخص الذي غايته الوصول إلى معرفة الأمور الأزلية ، أو معرفة حقائق الأشياء .

ومعنى هذا أن الفلسفة على يد أفلاطون تدرس موضوعات متعددة فهي تدرس أمور تتعلق بما وراء الطبيعة ، كما أنها تدرس أمور أخرى تتعلق بالأخلاق لتوجيه الإنسان نحو الحق والعدل .

ولما جاء أرسطو طاليس استمر في توسيع نطاق الفلسفة حتى صارت تشمل كل المعارف الإنسانية ، بمعنى أدق صارت الفلسفة مرادفة للعلم ولهذا سنراه يعرفها بأنها .

البحث عن المبادئ الأولى والجواهر الأساسية والعلل الفاعلة للأشياء حتى ينتهي هذا البحث إلى العلة الأولى التي لا علة لها ، وهي علة كل شئ والذي يتجه إليها كل شئ ، وهي لا تتجه إلى شئ[2] .

بل إننا لنجد تعريفاً آخر أدق للفلسفة عند أرسطو فيما يسميه بالفلسفة الأولى التي هي الفلسفة الحقة عنده وموضوعها ما وراء الطبيعة ، والفلسفة الثانية وهي عالم الطبيعة[3] .

والحق أن تعريف أرسطو للفلسفة فيه شمول واف للفلسفة .

وبعد أرسطو تغير مفهوم الفلسفة ، وظهرت مدرستان هما الأبيقورية والرواقية وفي عصرهما بدأ الفكر اليوناني في الضعف والتقلص والاضمحلال وتحولت

---

(1) انظر : المدخل إلى الفلسفة . أزفيلد كوليه ص٩ .

(2) انظر : الفلسفة الإغريقية د/ محمد غلاب ج٢ ص١٥ . ط ١٩٣٨ مكتبة الأنجلو .

(3) انظر : المدخل إلى الفلسفة . أزفيلد كوليه ص٩ .

النظرة الفلسفية من البحث العام الشامل للوجود كله متمثلاً في – الإلهيات والطبيعيات والإنسان – اقتصر على بعض الجوانب المتعلقة بالإنسان فدارت موضوعاتها حول أخلاق الإنسان وسلوكه وكيفية تحصيله للسعادة لهذا لا غرابه أن نجد تعريفاتهم لها جاءت على النحو التالي :-

فقد عرفت الرواقية الفلسفة بأنها

علم الأمور الإلهية والأمور البشرية أو أنها علم الأشياء كلها لأن الأشياء الطبيعية مندمجة في الأشياء الإلهية[1] .

أما المدرسة الأبيقورية فقد عرفت الفلسفة بأنها النشاط العملي الذي يحقق السعادة في الحياة[2] .

وهذا التعريف يتفق مع مذهبهم لأن الغاية العامة للفلسفة الرواقية ترمي إلى بلوغ السعادة .

تعقيب :

بعد هذه الجولة في تعاريف الفلسفة وموضوعها في العصر القديم فإننا نلاحظ أن هذه التعاريف يغلب عليها انتماء حكمائها إلى اتجاهات فلسفية محددة .

ذلك لأن فلسفة اليونان قاموا بالبحث في موضوعات الفلسفة بعيداً عن الدين ، واعتمدوا في بحوثهم على العقل الإنساني المجرد الذي يضل عن الحقيقة حيناً ، ويبصرها حيناً وظل هذا حال الفلسفة على هذا النحو حتى جاءت الديانة المسيحية التي جاء بها سيدنا عيسى عليه السلام من عند الله تعالى وحياً سماوياً يناجي القلوب والمشاعر .

---

(1) انظر : الفلسفة الرواقية د/ عثمان أمين ص٨٤ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧١ .

(2) انظر : الفلسفة الإغريقية ج٢ ص١٩٢ .

ب) الفلسفة في عصرها المتوسط :

* الفلسفة في العصر المسيحي :-

يمكن القول أن دور الفلسفة في هذا العصر انحصر في إقامة الأدلة والـبراهين على صحة العقيدة وتكوينها والدفاع عنها فقد كانت " مهمة الفلسفة ... أن تؤيد بالدليل العقلي ما سلمت به النفوس بالإيمان تسليماً لا يقبل ريبة ولا شكاً وهكذا أصبحت الفلسفة تابعة للعقيدة ، وأصبح العقل عوناً لها "[1] .

ولما كان الأمر على هذا النحو عرفت الفلسفة بأنها : مجرد تمهيد لفهم حقـائق الدين[2] .

* الفلسفة في العصر الإسلامي :

برز كثير من فلاسفة الإسلام وكان طبيعياً أن يدرس هؤلاء الفكر اليوناني بروح الإسلام من جانب ما يتفق مع الدين ومالا يتفق معه ، وطبيعي أن يكون لـهؤلاء مفاهيم لتعريف الفلسفة بعد دراستهم لها ومن هؤلاء .

* الكندي (١٨٥هـ – ٢٥٢) هـ :

عرفها بقوله : " بأنها علم الأشياء بحقائقها بقدر طاقة الإنسان "[3] .

* الفارابي (٢٥٧ – ٣٩٩) هـ :

فقد عرفها بأنها " العلم بالموجودات بما هي موجودة "[4] .

وذلك لأن " موضوعات العلوم وموادها لا تخلو من أن تكون : إما إلهية ، وإما طبيعية ، وإما منطقية وإما رياضية أو سياسية وصناعة الفلسفة هي المستنبطة

---

(1) قصة الفلسفة الحديثة زكي نجيب . أحمد أمين ص٢ . نشر مكتبة النهضة المصرية .

(2) مسائل فلسفية د. زكي نجيب محمود وآخرون ص٧٥ ، وزارة التربية والتعليم ١٩٧٦م .

(3) رسائل الكندي الفلسفية تحقيق أبو ريدة ص٩٧ – ٩٨ دار الفكر العربي ١٩٥٠ .

(4) الجمع بين الحكمين للفارابي ص٨٠ قدم له وعلق عليه . د/ ألبير نصري نادر ط دار المشرق ط٤ .

لهذه والمخرجة لها حتى أنه لا يوجد شئ من موجودات العالم إلا والفلسفة فيه مدخل ، وعليه غرض ، ومنه علم بمقدار الطاقة الإنسانية"[1] .

* ابن سينا :

أما ابن سينا فقد عرفها بأنها :

" صناعة نظرية يستفيد منها الإنسان تحصيل ما عليه الوجود كله في نفسه وما الواجب عليه عمله مما ينبغي أن يكتسب فعله لتشرف بذلك نفسه ، وتستكمل وتصير عالما معقولاً مضاهياً للعالم الموجود ، وتستعد للسعادة القصوى في الآخرة ، وذلك بحسب الطاقة الإنسانية "[2] .

* أخوان الصفا :

فقد عرفوها بقولهم " الفلسفة أولها محبة وأوسطها معرفة حقائق الموجودات بحسب الطاقة الإنسانية ، وآخرها القول والعمل بما يوافق العلم والعلوم الفلسفية أربعة أنواع أولها الرياضيات ، والثاني المنطقيات ، والثالث العلوم الطبيعيات ، والرابع العلوم الإلهية "[3] .

والناظر في هذا التعريف يدرك أنه يحدد ثلاثة مراحل للفلسفة الأولى : محبة العلوم ، والثانية : معرفة حقائق الموجودات في حدود الطاقة الإنسانية ، والثالثة : موافقة القول والعمل للعلم .

* الشريف الجرجاني :

---

(1) نفس المصدر ص ٨٠ – ٨١ .

(2) المعرفة عند مفكري المسلمين د/ محمد غلاب ص٢٣٨ . الدار المصرية للتأليف الترجمة ١٩٦٦ .

(3) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية للشيخ مصطفى عبد الرازق ص٥٤ – ٥٥ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة ١٣٦٣هـ – ١٩٤٤م .

عرفها بأنها " التشبه بالإله بحسب الطاقة البشرية لتحصيل السعادة الأبدية ، كما أمر الصادق صلى الله عليه وسلم في قوله : تخلقوا بأخلاق الله ، أي تشبهوا به في الإحاطة بالمعلومات والتجرد عن الجسمانيات "[1] .

ويلاحظ على هذا التعريف أنه يتجه بها شعبتين الأولى التشبه بأخلاق الله على قدر طاقة الإنسان .

الثانية نيل السعادة الأبدية باقتفاء أثر الرسول صلى الله عليه وسلم .

ج) الفلسفة في العصر الحديث :

لا ينكر أحد من الباحثين في الفكر الفلسفي أن العصر الحديث أدى إلى تحرير العقل من سلطان رجال الذين أو بمعنى آخر من تحرر الفلسفة من سلطان أباء الكندية ، كما أن النظرة الفلسفية للكون وما فيه اختلفت عما كانت عليه في العصور القديمة .

فلقد اهتمت الفلسفة قديماً بالبحث في الوجود بما هو موجود ونظرت إلى المعرفة من خلاله على حين أن الفلسفة الحديثة اهتمت بالبحث في المعرفة ونظرت من خلالها إلى الوجود وفيما يلي عرض لتعريف الفلسفة لدى بعض الفلاسفة المحدثين .

* بيكون (١٥٦١ – ١٦٢٦)

الفلسفة عند بيكون تتناول ثلاثة موضوعات الطبيعة والإنسان والله لهذا جاء تعريفه لها على النحو التالي :

الفلسفة علم وليد القوى العاقلة في الإنسان يقدم لنا تفسيراً للكون والحياة من خلال الملاحظة والتجربة بهدف السيطرة على الطبيعة والتحكم في مواردها لتحقيق الرفاهية والسعادة للإنسان[2] .

---

(1) التعريفات . للجرجاني ص٢١٦ .

(2) انظر الفلسفة أصولها ومبادئها د/ محمد علي أبو ريان ص٥٧ دار المعرفة الجامعية

* توماس هوبز (١٥٨٨ – ١٦٧٩)

عرف " هوبز " الفلسفة بأنها " فهم النتائج أو ظواهر الطبيعـــة بـــالرجوع إلـــى أسبابها ، أو هي فهم هذه الأسباب نفسها بما يستنبطه من النتائج التي تقع تحـــت ملاحظاتنا استنباطاً صحيحاً ، وأما الغاية المقصودة منها فهي أن تمكننـــا مـــن التنبؤ بما سيحدث من نتائج ، وبهذا نستطيع أن نستغلها في حياتنا العلمية "[١] .

* ديكارت (١٥٩٦ – ١٦٥٠)

عرف ديكارت الفلسفة بقوله :

" إن كلمة فلسفة تعني دراسة الحكمة ولسنا نقصد بالحكمة مجرد الفطنـــة فـــي الأعمال ، بل معرفة كاملة بكل ما في وسع الإنسان معرفته بالإضافة إلى تدبـير حياته وصيانة صحته واستكشاف الفنون ، ولكي تكون هذه المعرفة كما وصفنـا ، فمن الضروري أن تكون مستنبطة من العلل الأولى "[٢] .

* هيجل (١٧٧٠ – ١٨٣١) : أما هيجل فقد عرفها بقوله بأنها البحـــث فـــي المطلق[٣] . فهي : الحقيقة في تجريدها وإطلاقها .

د) مفهوم الفلسفة في الفلسفات المعاصرة :

١- الوضعية :

من المعلوم أن الفلسفة الوضعية لم تعترف بغير المحسوس الذي يمكن إخضاعه للتجربة لهذا جاء تعريفهم للفلسفة بأنها هي التي لا تعني ببيان علاقات العلـــوم فيما بينها وكذلك بعض الفرضيات الواسعة التي تستفيد منها كل العلوم أو أغلبها كما أنها تقوم بتنظيم النتائج التي تتوصل إليها العلوم الجزئية "[٤] .

---

(١) قصة الفلسفة الحديثة زكي نجيب وزميله ص٦٢ .

(٢) قصة الفلسفة الحديثة زكي نجيب وزميله ص٦٢ .

(٣) انظر : تاريخ الفلسفة الحديثة ص٦٢ – ٦٣ .

(٤) مدخل إلى الفلسفة د/ أحمد رمضان ص١٠٦ .

٢- الوضعية المنطقية :

أما أصحاب الوضعية المنطقية فقد ارتضوا الموقف السالف وعرفوا الفلسفة بأنها مجرد منهج للبحث هدفه التحليل المنطقي للغة التي نستخدمها في حياتنا أو يستخدمها العلماء في أبحاثهم العلمية لإزالة أي لبس أو غموض يحيط بها[١] .

تعقيب :

بعد هذه الجولة في بعض تعريفات أهم الفلاسفة في العصر الحديث والمعاصر نلاحظ أن اختلاف الفلاسفة في تعريف الفلسفة يرجع إلى الزاوية الخاصة التي نظر بها كل منهم على حدة ، وهذا يؤكد أن الفلسفة من حيث وجهة النظر الخاصة بكل فيلسوف متعددة الجوانب .

فكل تعريف للفلسفة يعبر عن مذهب كل فيلسوف واتجاهاته " ومما تقدم يتبين أن لا واحد من التعريفات الحديثة يضع قيمة للفلسفة أو يفسرها من حيث هي ثمرة لتطور تاريخي ، وإنما هذه التعريفات عبارات تشرح لنا الآراء الشخصية [illegible] المفكرين المستقلين فيما يجب أن تكون عليه الطريقة المثلى لدراسة الفلسفة في زمن من الأزمان "[٢] .

بالإضافة إلى هذا يتضح لنا أن تنوع تعريفات الفلسفة عبر العصور المختلفة بل تنوعها في العصر الواحد يرجع إلى تنوع الاتجاهات الفلسفية عبر العصور وتنوع مسائلها واختلاف مذاهبها إلا أن هذا لا يعني أنها لا تمتلك موضوعها الخاص ولكن يدل على تعدد الخبرة البشرية وأن كلمة الفلاسفة مهما تفرقت فالغرض لدى الجميع الوصول إلى الحقيقة[٣] .

---

(١) نفس المصدر ص١٠٧ وانظر : أسس الفلسفة د/ توفيق الطويل ص٥٦ - ٥٧ .

(٢) المدخل إلى الفلسفة . أزفيلد كوليه ص١٣ - ١٤ .

(٣) انظر : مشكلة الفلسفة . د/ زكريا إبراهيم ص٦٢ - ٦٣ مكتبة مصر ١٩٧١ ، وانظر محاضرات في الفلسفة العامة د/ أحمد عبد الوهاب ص٦٧ - ٦٨ .

* **تعريف العلم :**

١) وردت كلمة علم في اللغة : بعدة معاني منها :

الشعور قال الزمخشري " ما علمت بخبرك ما شعرت به "[1] كما يأتي بمعنى الأثر والعلامة ، وبمعنى السمة ، وما يفضل بين الأرضيين وما ينصب في الطريق يهتدي به كالعلم فيها[2] .

فيقول " خفيت معالم الطريق أي آثارها المستدل بها عليها "[3] .

ومن هنا سمي الخلق عالماً لأنه علامة ودلالة على وجوده تعالى كما جاء العلم بمعنى المعرفة وجاءت المعرفة بمعنى العلم ومعنى هذا أن العلم والمعرفة لفظان مترادفان في العرف اللغوي لأن كلاً منهما يعتبر علامة أو دلالة على شئ .

٢) العلم في الاصطلاح :

أ) في الاصطلاح القرآني :

وردت كلمة علم في القرآن الكريم بصيغ متعددة ، منسوباً إلى الله ، ومنسوباً إلى الإنسان ومن بين هذه الصيغ ما يلي :

١-فجاء بصيغة الفعل الماضي في قوله تعالى " ... ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ... "[4].

٢-وجاء بصيغة المضارع في قوله تعالى حكاية عن سيدنا عيسى عليه السلام " ... تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك ... "[5] .

---

(١) أساس البلاغة للزمخشري ج٢ ص١٣٩ . الهيئة العامة لقصور الثقافة سلسلة الزخائر العدد ٩٦ قدم لهذه الطبعة د/ محمود حجازي .

(٢) القاموس المحيط . للفيروز آبادي ص١٤٧٢ . مؤسسة الرسالة ط٢ (١٤٠٧هـ،١٩٨٧م)

(٣) أساس البلاغة ج٢ ص١٣٩ .

(٤) سورة النساء الآية ٨٣ .

(٥) سورة المائدة الآية ١١٦ .

٣-كما جاء بصيغة الأمر في قوله تعالى " فاعلم أنه لا إله إلا الله "[١] .

٤-وجاء المصدر كثيراً في مثل قوله تعالى " هاأنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم "[٢] .

وهناك صيغ أخرى مثل " عالم – عليم – معلوم " وغيرها[٣] .

وقد بين الراغب الأصفهاني أن المقصود بالعلم في القرآن .

هو إدراك الشيء بحقيقته وذلك ضربان .

أحدهما إدراك ذات الشيء ، والثاني الحكم على الشيء بوجود شئ هو موجود له ، أو نفي شئ هو منفي عنه[٤] .

ب) في اصطلاح المتكلمين :

تعددت تعريفات علماء الكلام لمعنى العلم ومن بين هذه التعريفات ما ذكره الباقلاني بقوله هو " معرفة المعلوم على ما هو به "[٥] .

أما عبد القاهر البغدادي فقد عرفه بأنه : صفة يصير بها الحي عالماً[٦] .

أما الجرجاني فقد عرفه بقوله : هو " صفة راسخة تدرك بها الكليات والجزئيات وقيل :-هو عبارة موصوفة بين العاقل والمعقول "[٧] .

---

(١) سورة محمد الآية ١٩ .

(٢) سورة آل عمران الآية ٦٦ .

(٣) انظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم . محمد فؤاد عبد الباقي ص٥٨٧ – ٥٨٩ ط دار الحديث .

(٤) المفردات في غريب القرآن . للراغب الأصفهاني ص٣٤٣ طبع دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت .

(٥) الإنصاف . للباقلاني ص١٣ مؤسسة الخانجي ط٢ (١٣٨٢ – ١٩٦٣م) .

(٦)أصول الدين.عبد القاهر البغدادي ص٦مطبعة الدولة القسطنطينية ط١(١٣٤٦هـ،١٩٢٨م)

(٧) التعريفات للجرجاني ص١٩٩ .

أما الإمام الغزالي فقد أرجعه إلى البصيرة لذا عرفه بقوله هو " حصول المثال في القلب "[1] .

ج) العلم في اصطلاح الفلاسفة :

العلم والمعرفة والإدراك عند فلاسفة الإسلام بمعنى واحد فهو عندهم " حصول صورة الشيء في العقل "[2] .

وحصول صورة الشيء في العقل إن حكم عليها نفياً أو إثباتاً فهو تصديق وأن لم يحكم عليها فهو تصور .

أما أخوان الصفا فعرفوه بأنه " صورة المعلوم في نفس العالم أو ضرب من الوجود أسمى وألطف وأدنى إلى الوجود المعقول من الأشياء المادية المتحققة في الخارج "[3] .

أما في الفلسفة المعاصرة فقد عرفه أو حسب كونت بأنه :

" معرفة القوانين الحقيقية للظواهر الطبيعية ولا طريق له إلا التجربة "[4] .

ويرى أميل بوترو أن العلم هو " مجموعة المعارف الوضعية التي حصلها الإنسان "[5] .

والمتأمل في التعريفات التي ذكرها الفلاسفة المعاصرين يلحظ أمراً مهماً .

---

(1) إحياء علوم الدين الغزالي ح٣ ص١٢ طبعة عيسى الحلبي القاهرة ١٩٥٧م .

(2) التعريفات للجرجاني ص١٩٩ .

(3) تاريخ الفلسفة في الإسلام . دي بور . ترجمة د/ محمد أبو ريدة ص١٠٢ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٩٣٨ .

(4) المدخل إلى الفلسفة أزفيلد طوليه ص٢٨٨ .

(5) العلم والدين في الفلسفة المعاصرة . أميل بوترو ص٩ ترجمة د/ أحمد الأهواني . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ .

وهو أن العلم باصطلاحهم محصوراً – مصدراً – في التجربة وميداناً في المجال التجريبي ، وميداناً في المجال الرياضي والطبيعي ، وما يقبل موضوعه الخضوع للتجربة والاستقراء والمقاييس الكمية "[١] .

ومما لا شك فيه أن مفهوم العلم على هذا النحو – يحصر العلم فيما جاء عن طريق الملاحظة والتجربة والخبرة الحسية وحدها ، وإنكار ما يتجاوز ميدان التجربة وهو عالم ما وراء الطبيعة .

وغير خفي أن هذا مخالف لمفهوم العلم في الإسلام لأن مسماة في الإسلام يشمل جميع المعارف الإنسانية سواء كان مصدرها العقل أو الحس والتجربة أو الوحي والنقل "[٢] .

---

(١) مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفة دراسة نقدية في ضوء الإسلام د/ عبد الرحمن بن زيد الزبيدي ص٤٧ مكتبة المؤيد ط١ (١٤١٢هـ – ١٩٩٢م) .

(٢) نفس المصدر ص٤٧ – ٤٨ .

* **علاقة الفلسفة بالعلم**

تمهيد :

ارتبطت الفلسفة دائماً بالطبيعة وهي ميدان العلم وموضوعه الأول منذ عهد الطبيعيين الأوائل عند فلاسفة اليونان . بل أن العلم ذاته قد نشأ من ثنايا فلسفة الطبيعة فكانت فلسفة الطبيعة مادة للعلماء . كما كان العلم مادة لفلاسفة الطبيعة . وقد أكد هذه الحقيقة " أزفلد كوليه " حين قال : ارتبط الفكر الفلسفي بالفلسفة الطبيعية ، وعنى الإنسان بظاهر الطبيعة الخارجية . وتمكن من إخضاع الطبيعة لمطالبة ، وفي عصر النهضة الحديثة في العلوم الطبيعية ظهر العلماء الطبيعيون أمثال " كوبر نيق " وكيلر وغيرهما . مما يؤكد على أن العلاقة كانت وثيقة بين الفلسفة والعلوم الطبيعية وظهر مع ذلك فكرة التمييز بين إدراك العقل للأمور المحسوسة وإدراكه لغير المحسوسة[1] .

ويذهب أشياع التجربة المنطقية : إلى أن الفلسفة ليس لها أن تشيد مذاهب وعليها ن تقصر على التحليل المنطقي لأشكال الفكر الإنساني تاركه للعلم تفسير الكون بأسره . على أن تؤسس نظرية المعرفة على تحليل نتائجه فحسب[2] .

وعلى هذا تصبح الفلسفة ناتجاً ثانوياً للبحث العلمي طالما كانت نتيجة لتحليل العلم الحديث واستخدم المنطق الرمزي .

ومفاد ذلك أن التجريبيين يقصرون أمر الفلسفة على القضايا التحليلية والتركيبية من حيث المبنى والمعنى وليس للفلسفة أن تضيف من عندها شيئاً . أو تتحدث عن الوجود ، أو العالم أو الإنسان ، وحسبها مهمة التحليل المنطقي والحق أن

---

(1) انظر : المدخل إلى الفلسفة – أزفلد كوليه ترجمة : عفيفي ط٤ ص٦٢ – ٧٢ – مواضع متفرقة .

(2) انظر : نشأة الفلسفة العلمية هانزرينشباخ – ترجمة د/ فؤاد زكريا دار الكتاب العربي – القاهرة – ص٢٦٤ ، ٢٦٨ ، ١١١ ، ١٢ .

هذه النظرة تجعل الفلسفة ذيلاً للعلوم الجزئية وهذا ما يرفضه كل باحث منصف . فبين الفلسفة والعلوم الجزئية بون شاسع . فالأولى مجالها المبادئ العامة ، والثانية يدور بحثها في الكون .

وقد صدق الأستاذ العقاد حين بين خضوع العلوم الإنسانية إلى سنة التقدم فقال : " تتجدد العلوم الإنسانية مع الزمن على سنة التقدم فلا تزال بين ناقص يتم ، وغامض يتضح ، وموزع يتجمع وخطأ يقترب من الصواب ، وتخمين يترقى إلى اليقين ، ولا يندر في القواعد العلمية أن تتقوض بعد رسوخ أو تتزعزع بعد ثبوت ، ويستأنف الباحثون تجاربهم فيها بعد أن حسبوها من الحقائق المفروغ منها عدة قرون[1] .

فإذا كانت الطبيعة تدهش العالم ، فإن دهشة الفيلسوف مرجعها إلى الحياة نفسها والوجود كله ، وخالق هذا الكون وهذه المعاني بعيدة المنال أن يتطرق إليها العلم من قريب أو بعيد .

* موازنة بين الروح الفلسفية والروح العلمية :

يتميز العلم بالبحث الحر ويكتفي بالخضوع للمنهج التجريبي ويحرص الفيلسوف على الاستناد إلى العقل وشهادة التجربة ، ويتحلى بالروح العلمية التي تقوم على البحث الحر ، وينزع العلم إلى الموضوعية باعتبار أن الواقع مصدر المعرفة والروح الفلسفية لا تقنع بالتجربة الحسية ، ولكم الفيلسوف يترجم التجربة إلى ألفاظ عقلية .

الروح العلمية تفكير نقدي يقوم على التمييز والضبط والدقة . يربط الظواهر التي يراد تفسيرها بظواهر أخرى داخل في نطاق التجربة .

---

(1) الفلسفة القرآنية . عباس العقاد – دار الهلال ص١١ .

أما الفيلسوف فإنه يميز بين الموضوعات المتشابهة ويستند دائماً إلى استدلالات عقلية ، فالروح الفلسفية تفكير منهجي دقيق – شعاره التسلسل المنطقي وقاعدته البداهة والوضوح .

الروح العلمية تقود إلى التحقيق التجريبي لتصنع مفاهيمها

وموضوع العلم لا يدع مجالاً للتقدير الشخصي والفلسفة ليست من العلم لأن موضوعها لا يقبل القياس .

الفيلسوف : يرمي إلى التفكير العقلي المحض ، ويبحث في العلل البعيدة

والعالم : يتوقف عند العلل المباشرة لتفسير الظواهر بعضها ببعض .

الفيلسوف : يجعل من الوقائع التجريبية نقطة بداية .

العالم : يسلم ببعض المبادئ الفلسفية كالعلية والحتمية دون مناقشتها[1] .

الفلسفة : تعرف الوجود من خلال الإنسان . فهي تجد في الوجود البشري حلاً لمشكلة المعنى . **أما العلم** : فيعرف الوجود بمنأى عن الإنسان . فالوجود في نظر الفلسفة هو الروح أما الوجود في نظر العلم فهو الطبيعة[2] .

الفيلسوف : يقف على ضروب التقدم التي تحرزها العلوم ولا يعني ذلك أن الفلسفة خادمة للعلم . فنظرة الفلسفة كلية تستقي عناصرها من مظاهر التجربة البشرية[3] .

الفلسفة نظرتها شاملة للنشاط الإنساني فكراً وسلوكاً وتضطلع بما لا شأن للعلم بأدائه ، والعلوم تعالج في شتى موضوعات المعرفة وتقف في علاجها عند كل موضوع معين .

([1]) مشكلة الفلسفة : د/ زكريا إبراهيم – مكتبة مصر – ص١٤٠ ، ١٤٢ ، انظر : محاضرات الفلسفة العامة . د/ أحمد عبد الوهاب ص٢٩ – ٣٠ .

([2]) المصدر نفسه : د/ زكريا إبراهيم – مكتبة مصر – ص١٤٥ .

([3]) مشكلة الفلسفة : د/ زكريا ص ١٥٧ .

الفلسفة لا يكون موضوعها موضوعاً لقضية علمية لكونه عاماً لا يتقيد بتخصص معين . ولا تقنع الفلسفة بالفروض الأولية لمجرد تسجيلها وكشفها بل تقيم عليها بناء أكثر شموخاً من العلم . وستظل الفلسفة لا مهمتها الخاصة بها مهما تقدم العلم في موضوعاته ومناهجه[١] .

ولكن العلم تندثر مشكلاته عند كل اكتشاف علمي جديد فالعالم يستخرج نظرياته العلمية بعقله غير متأثر بعواطفه والفلاسفة يضعون العالم قياساً على ما رأوه في أنفسهم فمنهجُ الفيلسوف في صميمه هو أن يخلع ما بنفسه على العالم الخارجي ، فهو كون يسوده عقل وليست الفلسفة علماً يقوم على المشاهدة والتجربة حتى تخضع لما يخضع له العلم من طرائق الإثبات[٢].

وخلاصة القول في وجوه الخلاف بين الفلسفة والعلم يمكن إيجازها فيما يلي :

أولاً : أن الفلسفة هي علم الوجود الكلي بما هو كذلك فموضوعها الكون وظواهره مركز الإنسان فيه ، وأما العلم : فيبحث في الظواهر الكونية في جوانبها المختلفة . فالعلوم الطبيعية تدرس الوجود المتغير أما الفلسفة فتدرس الوجود اللامادي[٣] .

ثانياً : الفلسفة تنطلق من حركة الفكر من الخارج إلى الداخل ومن الموضوع إلى الذات . أما العلم فينتقل فيه الفكر من ظاهرة إلى أخرى في حدود الإدراك الحسي الخارجي .

ثالثاً : الفلسفة تصف علاقة الإنسان بالكون في صورة الكليات . والعلم يكتشف القانون العام الذي تخضع له ظواهر الكون .

---

(١) انظر : فلسفة العلم : د/ صلاح قنصوه – ص١٤ ، ١٦ دار الثقافة .

(٢) انظر : محاضرات في الفلسفة العامة . د/ أحمد عبد الوهاب ص٣٠ – ٣١ .

(٣) انظر : مشكلات فلسفية : د/ توفيق الطويل وآخرين – ص٥ .

رابعاً : العلم يحيل إلى تحويل الخصائص الكيفية إلى مقادير كمية في دقة أمـــا الفلسفة فتحرص على الاحتفاظ بالخصائص الكيفية للظواهر .

وبذلك تنبه العلماء إلى عدم إهمال الكيفيات لأنها تعبر عن الواقع أكثر من عـــالم الكم المصطنع .

خامساً : العلم يعالج موضوعية الوقائع العلمية التي تظهر من أجهزته العلمية أما موضوعية الفلسفة فأنها تتعلق بالكون كله .

سادساً : العلم يبحث في العلل القريبة التي تحدد ظواهر الطبيعة والفلسفة تبحـث في العلل البعيدة للظواهر التي تتعدى الميدان العلمي المحدود .

سابعاً : العلم يبحث فيما هو كائن من الطبيعة ويصفها وصفـاً تقريريـا . أمـا الفلسفة فلها علوم معيارية تهتم بما ينبغي أن يكون ، فعلم المنطق يبحـث فيمـا ينبغي أن يكون عليه التفكير السليم وعلم الأخلاق يتناول ما ينبغي أن يكون عليه السلوك الأخلاقي القويم ، وعلم الجمال يبحث في القواعد التي تقوم بها العمل[1]

ومعنى ذلك أن العالم يجمع الوقائع التي تتصل بموضوع الظاهرة الكونيــة ثـم يصنفها ويربط بينها ، ويضع لها فروضاً ويمتحن صحـــة الفــرض أو فســاده بتجاربه ويصوغ قانونه بعد ذلك . وأما الفلسفة فتبحث في الأصـــول النظريـة الكلية وتتناول الوجود والحياة والإنسان من الزاوية الكلية[2] .

وبالرغم من وضوح مجال كل العلم والفلسفة ألا أن بعض البــاحثين المجدثيـن يذهب إلى أن إنجازات الفلسفة الطبيعية " أفقدت الفلسفة اســتقلالها وأصبحـت تجري وراء العلم أينما ذهب ، وضاع منها روح التأمل والتساؤل ثم يقول:

([1])انظر : مقدمة في الفلسفة العامة : د/ يحيى هويدي – الطبعة الرابعة عام ١٩٥٦ – ص٣١ ، ٣٢ ، محاضرات في الفلسفة العامة ص٣٢ – ٣٣ .

([2]) المصدر السابق – ص ٣٧ ، محاضرات في الفلسفة العامة ص٣٢ – ٣٣ .

" وحل العلم محل الفلسفة ، وأصبحت الفلسفة إحدى مراحل التفكير البشري بعد الدين وقبل العلم[1] .

ولنا أن نقول إن الفلسفة لم تفقد استقلالها بتقدم العلم ولم يذهب منها روح التأمل ، ولم يحل العلم مكان الفلسفة فستظل الفلسفة لها مهمتها الخاصة مهما تقدمت العلوم والمعارف في موضوعاتها مناهجها ، فالقول بأن العلم أخذ مكان الفلسفة يقضي على الفلسفة فلا تكون فلسفة ولا علماً : إذ الفلسفة روحها إثارة السؤال والتأمل في الحياة ، بل أن الفلسفة تبدأ حيث ينتهي العلم .

إنها أي الفلسفة قمة في بناء لا ينتهي ، وهي تعتمد على نظريات العلم وتغزو مجالات يجهلها ولا يستطيع أن يرتادها لأنها لا تعالج بمناهجه التجريبية .

فالفلسفة لها ميدانها الذي يجهله العلم بل أنه يغلق دون العلم لاختلاف منهج كل منهما عن الآخر .

على أننا لو فهمنا الفلسفة بمعناها الأصلي بأنها محبة الحكمة لأمكن القول " أنه لا يستغنى عن الفلسفة إلا مرتكس قد ارتد إلى مرحلة الحيوانية[2] .

وإذا كانت هذه أوجه الاختلاف بين الفلسفة والعلم فإن هذا لا ينفي وجود اتفاق بينهما في بعض الأمور ومن أهمها :

١- البحث عن الحقيقة فالغاية التي يسعى إليها كل من الفيلسوف والعالم الوصول إلى الحقيقة .

٢- الموضوعية التامة فلابد لكل من العالم والفيلسوف أن يكون موضوعياً في دراساته وأبحاثه فلا يتأثر بعواطفه أو ميوله أو عقيدته وإلا خرج البحث عن الإطار الموضوعي .

---

(١) انظر : عالم الفكر : المجلد ١٥ العدد الثالث - اكتوبر ١٩٨٤ ص٨٤٤ ، ٨٤٥ مقال متى تموت الفلسفة ومتى تحيا - الأستاذ / حسن حنفي .

(٢) مشكلة الفلسفة - د/ زكريا إبراهيم - مكتبة مصر ص٢٨٧ .

نشأة العلوم :

لقد كان الإنسان البدائي يعيش في الكهوف ويسارع العوامل الطبيعية ويقضي حاجته الأساسية بطريقة بسيطة أولية ، فكان يحاول ويجرب فيصيب تارة ، ويخطئ تارة أخرى ، حتى تكونت لديه بمرور الزمن مجموعة من الخبرات العلمية استطاع بواسطتها أن يضمن لنفسه ولأفراد أسرته استمرار الحياة على سطح الأرض وذلك في مواجهة العوامل الطبيعية المختلفة[1] .

ولكن هذه الخبرات العلمية لم تكن علماً بالمعنى الحديث ، بل كانت طرقاً وأساليب علمية بحتة عرفها الإنسان بعد محاولات متكررة دون أن يستطيع لها تفسير مقنعاً على أساس معقول ، إلا أن يقدم نوعاً من التفسير الأسطوري الغامض المرتبط بما يعتنقه من أديان ومعتقدات .

هكذا تألفت عند الشعوب والقبائل مجموعة من المعارف العلمية عن الأرض والسماء والأنهار والحيوانات والنباتات ، وكانت هذه المعارف تستهدف النفع الموقوت .

ولقد ظهرت نزاعات مختلفة في طريقة تناول الناس للمعارف الأولية وهي :

١- النزعة العلمية : وهي التي ترجع إلي طائفة من الناس استهدفوا " النفع العلمي " وحده ، فحاولوا الاستفادة العاجلة من الظروف والإمكانات المختلفة التي تيسر استغلال الموارد الطبيعية في سبيل رفاهيتهم .

٢- النزعة الجمالية : وهي التي ترجع إلي طائفة أخرى من الناس اطمأنت إلي تأمين حاجتها الضرورية التي تكفل لها استمرار الحياة ، وبدأت تستمتع بها من

(1) الإسلام وفلسفة العلم د/ أحمد رمضان ص٣٦ الدار الإسلامية للطباعة ط١ (١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١) .

الموجودات من ناحية " جمالية " . فهي تعني بـ " الاستمتاع الفني " وهم أصحاب النزعة الوجدانية ، ومنهم الشعراء والفنانون على اختلاف طوائفهم[1] .

٣- النزعة العلمية : وهي التي ترجع إلي الباحثين العقليين أو المتأملين أو أصحاب العلم[2] .

ويلاحظ أن المعرفة العلمية تشمل العلم والفلسفة معا في الصور القديمة وفي القرون الوسطى إلي بداية العصر الحديث ، حيث قام فلاسفة وعلماء – من أمثال " فرنسيس بيكون وجاليليو " وغيرهما – يحددون معالم الطريقة العلمية ، ويضعون الملاحظة والتجربة كشرطين أساسيين للبحث العلمي ، بحيث تعذر على الذهن البشري أن يهمل تقدم العلوم ويستمر في عكوفه على تأملاته العقلية محاولاً أن يفسر عن طريقها وحدها مظاهر الوجود ونظامه وتركيبه . بل كان على الباحث أن يبدأ من الواقع الملموس أي من التجربة المحسوسة لكي يصل عن طريقها إلي نتائج تخضع بدورها لأساليب التحقيق العلمي .

ومع أن الباحث يتجه إلي الواقع ويصاحبه ، إلا أن هدفه الأساسي ليس العمل بل المعرفة الخاصة ، فهو لا يسعى مباشرة إلي استغلال موارده الطبيعية والسيطرة عليها ، بقدر ما يهدف إلي " تعقيل " الواقع ومحاولة الكشف عن القوانين التي تنظم الواقع ليراه كلا معقول ، فهو يبحث عن المعادلة والقانون، وبصفة عامة عن اليقين الواضح . فالعالم الباحث أكثر اهتماماً بمعرفة أسرار الطبيعة من الاستمتاع بها ، فهو يصف ويقرر ويكشف عن قوانين الظواهر لكي يصل إلي النظام المعقول المحكم الذي بمقتضاه ترتبط هذه الظواهر .

---

[1] نفس المصدر ص٣٦ .

[2] انظر الفلسفة أصوله ومبادئها د/ محمد علي أبوريان ص٧٧ – ٧٨ . دار المعرفة الجامعية ١٩٧٨ .

لقد نشأ العلوم جميعاً في حضن الفلسفة ... وكلما ظهر علم انفصل علم عن الفلسفة واستقل بحياته واتخذ له منهجاً وطريقاً .

وكان علم الطبيعة " الفيزياء " أسرعها إلـــي الاســـتقلال ، وأســـبقها إلـــي الانفصال[1] .

ثم تولى بعد ذلك انفصال العلوم التجريبية عن الفلسفة ، فانفصل " علـــم الكيمياء " على يد " لافوزييه " ، و " علم الحياة " على يد " كلود برنارد " .

وفي مطلع القرن العشرين انفصل علـــم النفـــس وعلـــم الاجتمـــاع وعلـــم الأنثروبولوجيا ..إلخ[2] .

ولقد شقت العلوم الطبيعية طريقاً كبيراً في التطور ، وحققت نجاحات هائلة . وفي وقتنا الحاضر زادت معارف الإنسان عن الطبيعة إلي درجة لا متناهيـــة بالنسبة إلي معارفه عنها قبل ثلاث أو أربع قرون خلت . فلقد اســـتطاع عقـــل الإنسان أن ينفذ إلي نواة الذرة ، وأعماق الكون ، وتكشفت أمام بصره الأســـوار العديدة التي كانت تغلف بنية الأشياء ، وحلت ألغاز الحياة كما أن دماغ الإنســـان – هذه القطعة الصغيرة من المادة العالية التطور – أصبح موضوعـــاً للبحـــث العلمي الموضعي[3] .

ونظراً لأن العلم لا وطن له فهو ليس بضاعة أوروبية ، صدر عن ألمانيا أو صنع في برمنجهام ، وليس ذا طابع غربي أو شرقي ، بل هو مشـــاع بيـــن

---

(1) الإسلام وفلسفة العلم د/ أحمد رمضان ص٣٧ .

(2) الإسلام وفلسفة العلم ص٣٨ .

(3) انظر : المادية التاريخية . تأليف : ف . كيللي – م. كوفالزون .ص٤٩٢ نقلاً عن الإسلام وفلسفة العلم د/ أحمد رمضان ص٣٨ .

الأمم ، يطلب في الصين كما يطلب في أمريكا ، يوجد أينما وجد الفكر البشـري ، وينمو ويزدهر ، حيثما ترتفع الحضارة ، وعلوا النفوس وتحرر العقول[1] .

وإذا كان الغربيون ينسبون منشأ العلم ، وتاريخ العلم إلي أوربا ، فـهم واهمون لأنهم يجهلون أو يتجاهلون حقائق التاريخ . لأن أوربـا هـي إحـدى القارات الخمس . وتاريخها إنما هو جزء من تاريخ البشرية ، لذلـك يجـب أن نصل بين الجزء والكل[2] .

- فالعرب قد استفادوا كثيراً من علم الـهنود والفـرس ، فالأرقـام التـي نستخدمها اليوم في الحساب ، تسمى عندنا الأرقام الهندية لأننا نقلناها عـن الهنود ، وتسمى عند الغربيين الأرقام العربية لأنهم نقلوها عنا ، وكانوا قبل ذلك يستعملون الحروف الأبجدية , على طريقة حسـاب الجمـل . ثـم أن الإغريق الذين نقل العرب عنهم ، نقلوا هم عن المصريين القدماء . فعلـم الهندسة وعلم الكيمياء كلاهما نشأ في أرض مصر ووصل إلي درجة عاليـة من التقدم . وكذلك حركات الكواكب وسائر الإجـرام السـماوية ، درسـها المصريون واستخدموها في توجيه معابدهم وقبورهم ، كما درسها البـابليون والفينيقيون وطبقوها في التقاويم وفي الملاحة البحرية[3] .

وعلوم الفلك ، الميكانيك ، والرياضيات ، والطب ، والكيمياء وغيرهـا ظهرت قديماً في بلدان الشرق الأدنى وفي الصيـن والـهند ، وفـي الدولتيـن القائمتين على الرق اليونانية والرومانية.

---

[1] انظر : العلم والحياة .د/ علي مصطفى مشرفة ص٦٤ دار المعارف . يناير ١٩٤٦ . نقلاً عن الإسلام وفلسفة العلم ص٣٨ – ٣٩ .

[2] انظر : نفس المصدر ص٦٢ . نقلاً عن المصدر السابق ص٣٩ .

[3] انظر : الإسلام وفلسفة العلم د/ أحمد رمضان . ص٣٩ .

فالقرون الوسطى كانت عصوراً مظلمة في أوربا ، لكن الشرق قد ازدهرت فيه مدينة العرب ، ووصلت إلي أوج عظمته ، ومن الثابت أن علوم العرب قد انتقلت إلي أوروبا .

ففي منتصف القرن الثاني عشر أمر " ريمون " كبير أساقفة بلد الوليد بترجمة الكتب العربية إلي اللغة اللاتينية ، وألف لهذا الغرض لجنة برياسة القس " دومينيقوس جوند يسالفي " لترجمة كتب " ابن سيناء " والغزالي " وغيرهم من العلماء والمفكرين[1] .

---

[1] انظر : نفس المصدر ص ٣٩ - ٤٠ .

فلسفة العلم :-

يرى " أوجست كونت " فيلسوف الوضعية أن فلسفة العلوم على وجه العموم هي : " محاولة ميتافيزيقية لتأويل المعرفة العلمية . ويتقبل العلم ذلك التأويل بالرضا أو بعدم الاكتراث على حد سواء . ويظل هذا التأويل " تحديداً خارجياً " بالنسبة إلي العلم . فهو يفسره ولكنه لا يمسه "[1] .

وفلسفة كل علم على حدة : " هي التي تنحصر في إلقاء نظرة عامة على موضوع العلم ومنهجه ، على عكس وجهة النظر الخاصة لدى العالم الذي يسعى للكشف في أحد فروع هذا العلم عن القوانين التي يختلف خصوصها قلة وكثرة "[2] . ونظراً لأن العلوم الوضعية لا تكفي نفسها بنفسها فهي في حاجة تتوجها وتنظمها . وإذا كان هذا النوع من الفلسفة ضرورياً ، وفي الوقت نفسه هي وضعية ونسبية كالعلوم في الاستعاضة عن وجهة النظر التفصيلية بوجهة النظر الإجمالية . وتكون هذه الفلسفة أيضاً من نتاج التفكير الوضعي[3] .

ثم يقول " ليفي بريل " : وهكذا ظلت فلسفة العلوم – حتى جاء " أوجست كونت " – فكرة ميتافيزيقية تربطها علاقة قوية أو واهية بجملة المعرفة في جملتها فكرة فلسفية تظل في الوقت نفسه فكرة علمية ، وهي تلك الفكرة التي عرضها بصفة خاصة في المجلدات الثلاث الأولى في كتاب " دروس الفلسفية الوضعية " وهي تعتمد من جهة الاستقرار على تدرج العلوم ووحدة المنهج وتجانس المعرفة أما من جهة التطور فهي تحاول جهدها لبيان الاتجاه التدريجي لجميع العلوم نحو علم الاجتماع ، فهو العلم النهائي العام . وبهذا " الدليل

---

(1) فلسفة أوجست كونت ، تأليف : ليفي بريل ، ترجمة د/ محمود قاسم ص١١٩ مكتبة الأنجلو المصرية .

(2) نفس المصدر ص ١٢٠ .

(3) نفس المصدر ص ١١٩ .

الموجه " سيستطيع " كونت " تقرير الفلسفة الخاصة بكل علم من العلوم الأساسية واحداً بعد أخر ، دون أن تغيب عن ناظريه أبدا العلاقات التي تربط كــل علــم منها بجملة العلوم الأخرى[1] .

- " ففلسفة العلم ليست ممارسة للعلم بل هي حديث فلسفي عن العلم أي أنها لا تقدم معارف علمية ، بل " تتفلسف " حول تلك المعارف وحول المنـــاهج التي توصلت إليها . وإذا ما فرغ بعض رجال العلم من بحوثهم ، وعمــدوا إلي الكتابة عن نتائجها وبيان أهميتها ومكانتها في تاريخ العلــم ، وأثرهــا المتوقع في حياة الإنسان وغير ذلك من موضوعات تجاوز التقرير المباشر لنتائج البحث وخطواته إذا ما صنع العلماء ذلك ، فإنهم يدلفون إلي تخصص أخر ليس العلم ، هو " فلسفة العلم " . وهم بصنيعهم هــذا يتنــازلون عــن حصانتهم العلمية ، ويقفون على قدم المساواة مع سائر فلاسفة العلم ، بحيث يمكن لنا أن نقبل كلامهم أو نعزف عنه دون أن يتوجب علينا أن نتخذ مــن آرائهم بينة فلسفية تكافئ في صحتها معادلتهم وصيغهم العلمية "[2] .

ومعنى هذا أن (فلسفة العلم فرع أو مبحث من فروع الفلسفة ومباحثها ولكنها قد تستوعب المذهب الفلسفي بأسره كما هو الحال لدى أصحاب الفلسفة العلمية)[3] وترى فلسفة العلم أن الفلسفة لا تستطيع أن تقدم مقاولات عن العــالم وعلاقــة الناس به ، وتذهب إلي أن تقديم مقاولات عن الأشياء " العــالم المعطيــات ، الخبرة الواقعية " هو من واجب ما تسميه بـــ " العلوم التجريبيــة " وحدهــا .

---

(1) انظر : المرجع السابق . ص١٢١ .

(2) فلسفة العلم د/ صلاح قنصوه . ص٣٧ . الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٢ .

(3) نفس المصدر ص٣٧ .

وأن الفلسفة التي تتصف بالعلمية لا تستطيع – كما تدعي – إلا تحليل مقـاولات تلك العلوم بأدوات ما تسمى بـــ " علوم البنية "[1] .
وهذا التحليل شرط ضروري للتعليمات النظرية العلمية . ولكن " فلسفة العلـــم " الوضعية تحصر البحث الفلسفي بخصوص العلم بالتحليل الشـــكلي المذكـــور . وتساوي ذلك التحليل بالفلسفة ، أي تعتبره هو الفلسفة وكفى[2] .
ولهذا يرى " برودبك M. Brodbeck " إن أبسط وصف لفلسفة العلـــوم هـــو القول بأنها شكل من أشكال الكلام عن العلم ، ومن هنا إختلافها عـــن الكـــلام بصوت العلم نفسه " كما تفعل الفيزياء والكيمياء..الخ ، وقد نشأت فلسفة العلـــم بالمعنى الحديث الذى نتداوله مع بادية القرن العشرين "[3] .

وعلى ذلك ففلسفة العلم هي كل ما يحلل العلم ولا يكون جزءاً منه ، أو أنها حديث عن العلم وتعليق عليه ، أو أنها بمثابـــة اللغـــة الشـــارحة للغـــة العلـــم الموضوعية[4] .

فمثلاً إذا فرضنا أن شخصاً قد أخذ الحقيقة العلمية التي تقـــول : " أن كـــل المعادن تتمدد بالحرارة " وقال : " تمتد جميع المعادن بالحرارة يعتبر تعميمـــاً توصلنا إليه بالاستقراء "[5] .

نلاحظ أن عبارة هذا الشخص لا تتعرض للغة الحقيقية العملية بأي تعديـــل أو تغيير ولكنها تعلق على هذه الحقيقة الموضوعية وتصفها بأنها تعميم انتـــهينا

---

(1) انظر : الفلسفة والفيزياء . تأليف د/ محمد عبد اللطيف مطلب . ج٢ ص١٥٥ . نقلاً عن الإسلام وفلسفة العلم ص٤٢ – ٤٣ .

(2) المرجع السابق . ص١٥٦ .

(3) انظر : علم النفس ، فلسفة وحاضرة ومستقبلة ككيان لجتماعي د/ مصطفى سويف ص١٩ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(4) انظر : في فلسفة العلوم ومناهج البحث د/ حسن عبد الحميد ، د/ محمد مهران . ص١٠ .

(5) انظر : المنطق الوضعي . د/ زكي نجيب محمود . ج٢ ص٤ – ٣٧ .

إليه باستخدام منهج علمي هو الطريقة الاستقرائية . وبما أن العبارة التي قالـــها الشخص هي مما يمكن أن يقال عن العلم ويستخدم في تحليل لغته الموضوعيـــة فهي مثال لما يمكن أن يقال في فلسفة العلم .

وإذا جاء شخص أخر وقال : " الاستقراء منهج علمي يستخدم للوصول إلـــي التعليمات في العلوم " ، فأنه يتكلم أساساً عن الاستقراء بوصفه منهجاً علميـاً ولا يتناول موضوعاً علمياً محدداً . وبما أن هذه العبارة أيضاً تنمي إلي موضـــوع مناهج البحث لعلمي ، فهي مما يمكن أن يقّال عن العلم ويدخل في مجال فلســفة العلوم[1] .

وإذا جاء شخص ثالث وقال : " إن مبدأ الاستقراء يرد إلي الســـببية فإننـــا نلاحظ أنه تناول بالتحليل والتعليق أحد المفاهيم المتعلقة بمناهج البحث في العلوم ، وهو مبدأ الاستقراء ، الذي يمكن إرجاعه إلي مبدأ أعم منه وهو الســببية . أن هذا الشخص يحاول تطويع نتائج العلم ومناهجه تطويعاً فلسفياً في صورة فلسفية قائمة على أساس علمي ، ومن ثم فإن عبارته تدخل ضمن ما يمكن أن يقال فـــي فلسفة العلوم[2] .

ولقد استخدمت فلسفة العلم في البداية وسائل المنطق الرياضي " الرمـــزي " لتحليل لغة العلم ، وأخذت بعد ذلك تستخدم تكنيكيات أخرى بتطور علوم بنيويـــة جديدة يمكن بواسطتها تحليل المعرفة العلمية[3] . وهذا ما ذهب إليه الأســـتاذ " آير " في فصل عقدة لشرح فلسفة العلم[4]

---

[1] الإسلام وفلسفة العلم ص٤٣ .

[2] انظر : فلسفة العلوم بنظرة إسلامية د/ أحمد فؤاد باشا . الطبعة الأولى ص٦٥ - ٦٦ در المعارف بمصر ١٩٨٤م . نقلاً عن الإسلام وفلسفة العلم ص٤٣ - ٤٤ .

[3] انظر : الفلسفة والفيزياء ج٢ د/ محمد عبد اللطيف مطلب ص١٥٥ .

[4] انظر : الإسلام وفلسفة العلم ص٤٤ .

* وعلى هذا ففلسفة العلم ليست علماً من العلوم ، بل هي حديث عن تلك العلوم من الناحية المنطقية . حيث تتناول قضايا العلم بالتحليل المنطقي . ففيلسوف العلم يتناول مفاهيم العلم الذي قد ترد في الصياغة العلمية ويقوم بتحليلها لإبواز الجوانب المتعددة لها ، والمعاني المستخدمة لها ، ويتناول أيضاً الطرق التي يتبعها العالم في الوصول إلي نتائجه ويقوم بتحليل هذه الطرق ، ليبين حدودها وشروطها وأبعادها المختلفة ... وهكذا[1] .

فهي شكل من أشكال المنطق قوامة منهج تحليلي نقدي ينصب على العلم منذ نشأته ، ثم على مناهج البحث العلمي . ونقد المعرفة العلمية تفضي بنا إلى نظرية مفسرة للمعرفة[2] .

والخلاصة :

أن " فلسفة العلم " تطلق على أي مبحث جديد إضافة المحدثون إلى مباحث التفكير الفلسفي والعلمي على حد سواء ، واستخلاص ما يساعدنا على تكوين نظرة شاملة إلى الكون من خلال الربط بين سلوك الظواهر التي يتعامل معها الإنسان .

والعلوم المستخدمة في فلسفة العلم هي العلوم الطبيعية والرياضية لأنها تتناول الظواهر الجزئية في الطبيعة الحية والجامدة ، وتدرسها بمناهج الملاحظة والتجربة والاستنباط لتضع لها قوانين تفسرها تفسيرا علميا أو منطقيا .

أما " العلوم الإنسانية أو الاجتماعية "التي تتناول أحوال الإنسان منفودا أو مجتمعا بغيرة فأنها عادة لا تندرج تحت العلوم التجريبية والاستنباطية إلا إذا استخدمت نفس مناهجها العلمية . لذلك نزعت بعض العلوم الإنسانية – كعلم

---

(1) انظر : فلسفة العلوم ومناهج البحث . د/ محمد مهران – د/ حسن عبد الحميد ص٢١ نقلاً عن المصدر السابق ص٤٥ .

(2) انظر : الفلسفة أصولها ومبادئها . د/ محمد علي أبو ريان . ص٧٥ .

النفس وعلم الاجتماع – إلى التشبه بالعلوم الطبيعية باصطناع مناهج تجريبية واستخدام أدوات وأجهزة علمية للبحث فيها . ويرد البعض هذا الاتجاه إلى الارتقاء بالعلوم الإنسانية ليصبح لها من النفع في المجال العلمي وخدمة البشرية ما للعلوم الطبيعية والرياضية من سيادة وسيطرة على ظواهر الطبيعة ، وذلك انطلاقا من الاعتقاد بأهمية المنهج التجريبي في تقدم المعرفة العلمية[1] .

*** مجالات فلسفة العلم :-**

تشمل مجالات فلسفة العلوم موضوعات عديدة ، لأنها تتحدث " عن العلم في كل جوانبه دون أن تقصرها على مجال دون أخر ... ولا يعنى ذلك بطبيعة الحال أن تكون هناك قائمة ، أو لائحة بالموضوعات أو المواد التي يجب أن يتناولها فيلسوف العلم ، بل الأمر متروك له في انتقاء ما يراه ملائما في اشتغاله بفلسفة العلم"[2] .

وقد لخص "برودبك "أن لفلسفة العلوم مباحث أربعة رئيسية ، تدور كلها حول مبني العلم ، ومعناه ، وهي على النحو التالي :

أ- العلم كنشاط يتم في سياق اجتماعي حضاري ، ما هي محدداته ؟

ب- العلم كنشاط مسئول ، ما هي طبيعة المسئولية الأخلاقية الملقاة عليه وعلى عاتق ممارسيه من العلماء ؟

جـ – لغة العلم ، وهذه تتكون من عباراته أو قضاياه من حيث كونها تشير إلي علاقات بعينها ، وكذلك من المفردات أو المصطلحات التي تتناولها هذه القضايا كيف تسهم هذه اللغة في تحديد البناء والمعنى ؟ وفيما تختلف عن لغة الحياة اليومية ؟ وما دلالة هذا الاختلاف ؟

---

[1] انظر : فلسفة العلوم بنظرة إسلامية . د/ أحمد فؤاد باشا . ٣٠ . دار المعارف بمصر الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م .

[2] فلسفة العلم . د/ صلاح قنصوه . ص٣٨ .

د – العلاقات التي يثبتها العلم على أنها قائمة بين ظاهرتين أو أكثر .

ما المقصود بأن " س علة لـ ص ؟ وما هي البنية الأساسية للقانون العلمي ؟ وما هي النظرية العلمية ؟

هذه هي المباحث الأربعة الرئيسية لفلسفة العلوم كما يحددها " برودبيك "[1]

* ويرى " بولدوين Baldwin" أن مجال فلسفة العلم هو عبارة عن الدراسة التي تتعلق بطبيعة العلم ، وخاصة مناهجه ، وتصوراته ، وفروضه المسبقة Presuppostions ومصادراته Postulates الأساسية . فهو يضيف إلي الدراسة النقدية لمنهج أو مناهج العلم ، وللتصورات والمفاهيم المستخدمة في العلوم ما يلي : –

(أ) الدراسة النقدية للفروض المسبقة أو للفلسفات والنظريات التي قد يأخذ بها العالم ، مثل : الاعتقاد بوجود عالم خارجي ، أو الاعتقاد باتساق الطبيعة واطراد ظواهرها ، أو الاعتقاد بأن العالم واحد " المذهب الواحدي " أو أنه كثير " مذهب الكثرة والتعدد " ... وغير ذلك من الاتجاهات التي قد يميل العالم إلي الأخذ بها ، مثل : المثالية ، المادية ، الوضعية ، الآلية ، الغائية ، البنائية .

(ب) الدراسة النقدية والتحليلية للمبادئ الأولى أو المصادرات الأساسية للعلوم[2] .

وهكذا تجد أن مجالات فلسفة العلوم يمكن أن تشمل موضوعات عديدة تعني بالتحليل المنطقي لقضايا العلم ولغته ومناهجه . وتاريخ هذه العلوم وعلاقته بمناهج البحث أو المنطق أو بالفلسفة العامة أو بنظرية المعرفة أو بأي

---

[1] علم النفس فلسفته وحاضره ومستقبله ككيان اجتماعي د/ مصطفى سويف ص٢٠

[2] انظر : مقدمة لفلسفة العلوم الفيزيائية والرياضية د/ عزمي إسلام . ص٣٧ – ٣٨ . مكتبة سعيد رأفت .

فرع من فروع المعرفة العلمية يرتبط بشكل أو بآخر بحركة تاريخ العلوم وفلسفته كالأنطولوجيا والأكسيولوجيا وعلم النفس وعلم الاجتماع وغيرهما مما يعرف الآن " بعلم العلم "[1] .

وتهدف الدراسة في بعض هذه المجالات إلي محاولة الإجابة عن كيفية الانتقال من خبرتنا وتجربتنا بالعلوم إلي معرفتنا عن العالم . لهذا أصبحت فلسفة العلوم تحتل مكانة بارزة لدى دارسي العلوم والفلسفة[2] .

*** نشأة فلسفة العلم**

إن فلسفة العلم تعتمد على العلوم الطبيعية والرياضية ، ومن يتتبع تاريخ فلسفة العلم ليكشف عن جذورها يجد أمامه مجالاً واسعاً لاختيار نقطة البدء . ولذا يوجد وجهات نظر مختلفة تجاه ذلك **أهمها ما يلي :**

١- فريق يرى أنها تبدأ من الفكر اليوناني متقدماً نحو الفكر العربي ، ثم الفكر الأوروبي في عصر النهضة .....

والفلسفة اهتمت أولاً بالفيزيقا أو بتفسير الظواهر الطبيعية قبل أن تهتم بالميتافيزيقا ، ويدلنا تاريخ الفلسفة نفسه على الاتجاه الذي ما لبث أن أرسى قواعد العلم الطبيعي . لكن كان يجب على العلم أن ينتظر قروناً طويلة حتى يتبلور في صيغته النهائية ، من حيث هو علم في الطبيعة " فيزيقا "[3] .

فلقد فكر الإنسان أول ما فكر في المادة التي يتألف منها الوجود ، وهذا طبيعي معقول ، لأن عقل الطفولة الفج لا يستطيع أن يفهم أو يسيغ إلا العالم المادي الذي يحيط به ، وهو لا يقوي في التفكير في المسائل العقلية غير المحسة إلا بعد النضوج . واهتم فلاسفة المدرسة اليونية – وهي أول مدرسة فلسفية

---

[1] انظر : فلسفة العلوم بنظرة إسلامية .د/ أحمد فؤاد باشا . ص٦٦ – ٦٧ .

[2] انظر نفس المصدر . ص٦٦ .

[3] الإسلام وفلسفة العلم د/ أحمد رمضان ص٤٨ .

معروفه ومكتوب نتاجها – ، وهم طاليس ، وأنكسمندر ، وأنكسمينس بتفسير الظاهرة الفيزيقية قبل أن يهتموا ، ويهتم الفلاسفة بعدهم ، بالميتافيزيقا[1] .

فلقد ذهب " طاليس Thales " ٥٥٠ – ٦٣١ ق.م تقريباً " إلي أن " الماء " هو قوام الموجودات بأسرها ، فلا فرق بين هذا الإنسان وتلك الشجرة وذلك الحجر إلا الاختلاف في كمية الماء الذي يتركب منها هذا الشيء أو ذلك .أليس الماء يستحيل إلي صور متنوعة ... وكان الماء عند " طاليس " هو المادة الأولى التي صدرت عنها الكائنات وإليها تعود ... فتكون الحياة حيث الماء وتنعدم حيث ينعدم "[2] .

أما " أنكسمندر Anaxemander" ٥٤٧ – ٦١١ ق.م تقريباً " فقد نفى أن يكون الماء أصلاً للوجود ، ذلك لأن له صفاته المميزة والخاصة به . فإنه لا يمكنك أن " تفهم الحرارة إلا إذا اقترنت في ذهنك بالبرودة ، فإذا انعدم هذا التقابل انعدمت كذلك الخصائص والصفات . وما دام الأمر كذلك ، فلا يعقل أن تكون جميع المخلوقات على تناقض صفتها مشتقة من أصل واحد ذي صفه معينه معروفة . إنما أصل الكون مادة لا شكل لها ولا نهاية ولا حدود " .

وذهب " أنكسمينس Anaximenes " ٥٢٤ – ٥٨٨ ق.م تقريباً " إلى أن الهواء هو المادة الأولى . " فهو ذو صفات معروفة لا تنكر ، وهو في نفس الوقت يشيع في كل أنحاء الوجود ، يغلف الأرض ويملأ في نظره جوانب السماء ، بل ويتغلغل في الأشياء والأحياء مهما دقت . أليست الحياة في صميمها أنفاساً من الهواء تتردد في الصدر شهيقاً وزفيراً ؟ إذن فهو الجوهر الأول الذي

---

[1] نفس المصدر ص٤٨ .

[2] الإسلام وفلسفة العلم .د/ أحمد رمضان ص٤٨ .

صدرت عنه جميع الكائنات ، يتكاثف حيناً فيكون شيئاً . ويتخلخل حيناً فيكـــون شيئاً آخر "[١] .

اهتمت الفلسفة منذ القدم بالرياضيات " فطاليس " اهتم بالرياضة وأســس " فيثاغورث " مذهبه على العدد Figure . فاعتبرت المدرسة الفيثاغورية " العــدد أساساً للكون وأصلاً لمادته ، فكل ما تقع عليه عيناك مركب من أعداد ... ولعل ما دفع الفيثاغوريين إلي هذا الرأي العجيب خلطهم بين وحدة الحساب ووحــدة الهندسة واعتبارهما شيئاً واحد " .

وكان لــ " فيثاغورث " طابعان في تفكيره : الطـــابع الغيبـــي والطـــابع الجزئي . أما طابعه الغيبي يتبدى فيقوله : أن كل شيء في الوجود هـــو شـــكل هندسي أو عدد . وأما طباعة الجزئي : فأنه يظهر في وضعه لنظريات رياضية متفوقة لا تشكل علماً موحداً . ولقد أدى عجز الحساب عن مجاراة الهندســـة ، خصوصاً في مجال الأعداد الصماء إلي قيام جمعية سرية فيثاغورية . ثم حصل تقدم في علم الهندسة اليوناني ، حيث استخدمت الأرقام الهندسية كرموز . وظل الحساب ملحقاً للهندسة إلي أن اكتشف العرب اللوغـــاريتم وبالتـــالي الهندســـة التحليلية[٢] .

كما اهتم الفلاسفة المفكرون المسلمون بالفيزيقا ، وإن كانت قـــد طغـــت على نزعتهم الميتافيزيقا . ولا نستطيع في هذه العاجلة أن نعرض لتطور الفكـــر العلمي – الطبيعي في الإسلام – وإنما نعرض لفكرة " ابن باجة " عن الحركـــة الطبيعية . فهو يذهب إلي أن " لكل جسم طبيعي خاصة متضمنة فـــي طبيعتـــه الذاتية لتحركه إلي مكانه الطبيعي ، سواء كان ذلك المكان هو مركز الكون كمـــا هي الحال بالنسبة للثوابت ، أو أنه المحيط الخارجي كما هي الحال بالنسبة للنـــار

---

[١] نفس المصدر ص٤٩ .

[٢] نفس المصدر ص٤٩ .

وأنه لا بد لبقاء الجسم في مكان غير مكانه الطبيعي من قوة غالبة هي القاسر ، وبمجرد زوال هذا القاسر الخارجي يتحرك الجسم الطبيعي ثانياً إلى مكانه الخاص "[1] .

هذا ولم يؤثر عن الفلاسفة المسيحيين في العصور الوسطى اهتمامهم بالفيزيقا . إذ أنهم تبنوا على العموم نظريات أرسطو في هذا المجال . فمثلاً القديس " توما الأكويني ١٢٢٥ – ١٢٧٤ م " بحث الخلق والملائكة والإنسان والأخلاق السياسية[2] .

(٢) وفريق ثاني يرى أن فلسفة العلم تبدأ من كتابات مفكري النهضة الأوروبية عند " فرانسيس بيكون E.Bacon ٥٦١ – ١٦٢٦ " و " جاليليو جاليلاي G.Galeleleli ١٥٤٦ – ١٦٤٢ " و " رينيه ديكارت R.Descartes " " ١٥٩٦ – ١٦٢٦ " على أساس أن هؤلاء الفلاسفة عنوا عناية خاصة بالكتابة في منهج البحث العلمي ، باعتباره الطريق إلي المعرفة اليقينية . ولم تقصر كتابتهم في هذا الصدد على الجانب الحرفي في كيفية تحصيل المعرفة [3] .

(٣) وفريق ثالث يذهب إلي أن فلسفة العلم تبدأ من مؤلفات فلاسفة التنوير مثل " جون لوك J.Locka " ١٦٣٢ – ١٧٠٤ " و " جورج باركلي " G. Berkeley " ١٦٨٥ – ١٧٥٣ " و " دافيد هيوم D.Hume ١٧١١ – ١٧٧٦ "[4] .

(٤) وفريق رابع يرى أن فلسفة العلم تبدأ من كتابات " أوجست كونت " A.Comte " ١٧٩٨ – ١٨٥٧ " الفليسوف الفرنسي ، باعتباره مؤسس الفلسفة

---

[1] نفس المصدر ص٤٩ – ٥٠ .

[2] نفس المصدر ص٥٠ .

[3] انظر : علم النفس فلسفته وحاضره ومستقبله ككيان اجتماعي د/ مصطفى سويف ص٨١ .

[4] انظر : نفس المصدر ص٨١ .

الوضعية التي اعتبارها أول فلسفة للعلم على درجة عالية من التبلور لم تتوفـــر لما سبقها من محاولات ، هذا بالإضافة إلي كونها تنسحب على العلوم الطبيعيـــة والاجتماعية على حد سواء ، ومع ذلك فـــلا يجـــوز أن نتصـــور أن الفلســـفة الوضعية كما صاغها " أوجست كونت " كانت من أولها إلى أخرها فلسفة للعلـــم فهذا غير صحيح لكن الصحيح أنها كانت فلسفة شاملة ذات توجه اجتمـــاعي ، وكان ما يخص العلم جزءاً من بين أجزائها المتعددة ، وهذا الجزء هو الذي يهم فلسفة العلم[1] .

---

(1) انظر : نفس المصدر ص٨١ ، ٨٢ .

* **بين العلم والدين**

لقد كان العلم والفلسفة بمعنى واحد منذ أقد العصور حتى بداية العصر الحديث ، وضع " فرنسيس بيكون " الإنجليزي أسس المنهج التجريبي في القرن السابع عشر . وتطلعت الدراسات التي اصطنعت المناهج الاستقرائية إلى الاستقلال عن الفلسفة علوماً لها موضوعاتها المستقلة عن موضوعات البحث الفلسفي ، ومناهجها التجريبية التي تختلف عن المناهج العقلية والحدسية التي تصطنعها ، وبدت بوادر الاستقلال إبان القرنين السابع عشر والثامن عشر ، واستقام استقلال العلم عن الفلسفة في القرن التاسع عشر[1] .

* ففي القرن السابع عشر نجد العلم حاز ثقة العقل الإنساني ، بل أصبح الإفراط الزائد في الثقة بنتائج العلم هي السمة العامة للعصر الحديث وبلغ الاعتقاد بأن لدى العلم الإجابة على كل سؤال من الانتشار حداً جعل العلم يضطلع بوظيفة اجتماعية كانت في الأصل من مهام الدين – وأعني بها وظيفة كافلة الطمأنينة القصوى – ففي حالات كثيرة حل العلم محل الإيمان بالله ، وحتى عندما كان الدين يعد متمشياً مع العلم كان يعدل بحيث يلائم عقلية المؤمن بالحقيقة العلمية، ومنذ ذلك العصر فقد أصبح من العصير الوقوف فى وجه العلم الفعال لا العلم النظرى فقط[2] .

– ونظراً للنزاع القائم بين الدين والعلم في هذا العصر ، فقد حاول " ديكارت " حل هذه المشكلة ، ففرض مبدأ الاستقلال المتبادل بين الدين العلم . فميدان العلم الطبيعية وموضوعة استغلال القوى الطبيعية ، وأدواته الرياضية والتجربة . ويختص الدين بمصائر النفس في العالم الآخر ، ويعتمد على

---

(1) انظر : قصة الصراع بين الدين والفلسفة . د / توفيق الطويل ص٢٥٣ – ٢٥٤ . دار النهضة العربية . الطبعة الثالثة ١٩٧٩ .

(2) انظر : الفكر المادي الحديث . د/ محمود عثمان ص٤٧ . نشر مكتبة الأنجلو المصرية

اعتقادات معينة في غاية البساطة ولا صلة لها بدقائق اللاهوت المدرسي ؛ فلا مضايقة بين العلم والدين ولا سلطان لأحدهما على الآخر ، لأن نموهما الطبيعي والمشروع لا يجعلهما يلتقيان. وبهذا قد يكون ساهم مساهمة فاعلة في إيجاد حل لهذه المشكلة . وإذا كان القرن السابع عشر يوجد لديه اهتمام بالعلم ، فإن القرن الثامن عشر يوجد لديه توكيد للعلم أدى إلي نقده التقاليد الدينية ، فاعتبر الدين في حدود العقل بل يرفضه[1] .

وهذا راجع إلي الغرور الذي تملك العلم فاعتز بمناهجه التجريبية ونزعته الحسية المادية حتى استخف بالدراسات الفلسفية التي تتجاوز عالم الشهادة إلى الغيب ، وتتخطى دنيا الحس إلي دنيا الروح ، وكان طبيعياً أن يستهن الكثيرون من رجاله الدين ويهزءون باللاهوت ويضنون باحترام رجاله ، وكان يزعم إبان ذلك أن مناهجه ستتكفل بتيسير أسباب الحياة وتحقيق السعادة للبشرية ، ثم تبين – وتبين للناس معه – أن نظرياته كثيراً ما تستغل في تدمير الحضارة وأشقاء الناس – وإن جاء هذا على كره من العلم ومناهجه – والحروب بما تعج به من آلات التخريب وأدوات التدمير شاهدة على ما نقول ؛ أثار هذا ثائرة بعض المفكرين على العلم ونزعاته المادية الحسية ، وبدأوا ينصرفون عن عالم المادة إلي عالم الروح . وفي غمرة هذا التطور وضح النزاع بين العلم واللاهوت . فالعالم يدرس الأشياء المحسوسة بمناهج الملاحظة والتجربة ، فان تجاوز نطاق المحسوسات خرج عن نطاق العلم ، وإن أغفل مناهج الاستقراء " الذي يقوم على الملاحظة والتجربة " واصطنع المناهج العقلية أو الحدسية دخل في نطاق الفلسفة واستبعد من مجال العلم [2] .

---

[1] انظر : المرجع السابق ص٤٧– ٦١.

[2] انظر : الإسلام وفلسفة العلم ص٥٣ .

أما الدين فإنه غيبي وموضوعاته تقوم وراء عالم الحس ، وحقائقه تـــأتي عــن طريق الوحي الإلهي ، ولا مجال للتجربة فيه نظراً لاختلاف طبيعة كل منهما .
ومن هنا يبدو الخلاف بين موضوع العلم ومناهجه من ناحية ، وموضوع الديـن ومصدر حقائقه من ناحية أخرى ، ولكن هذا الخلاف لا يوجب بطبيعتـــه قيــام نزاع بين العلماء ورجال الدين ، لأن مناهج البحث العلمي توجب على صاحبـها أن يخلص لها في دراسته حتى تنتهي به إلي نتائجها دون نظـــر إلـــي حقــائق الوحي . ومن ناحية أخرى نجد الدين يكفل حرية الباحث[1] .

– ثم يتحدث " إميل بوترو " : عن النزاع بين الدين والعلم فيقول : خـــلال مراحل التاريخ مع تصالحهما مرة بعد مرة ثم يقول " لم يـــبرح العلـــم والديـــن قائمين على قدم الكفاح ، ولم ينقطع بينهما صراع يريد به كل منهما أن يدمــــر صاحبة ، لا أن يغلبه فحسب ، على هذين النظامين لا يزالان قائمين ، ولم يكـن مفيداً أن تحاول العقائد الدينية تسخير العلم فقد تحرر العلم مـــن هـــذا الـــرق ، وكأنما انعكست الآية منذ ذلك الوقت وحل العلم محل الدين أو على الأقل أخــــذ العلم ينذر بفناء الأديان "[2] .

وأثبتت الأيام بعد هذا خطأ هذا الوهم حتى جاهر أمثال " جان جاك روسـو " بأن السعادة تكون بالارتداد إلي الطبيعة لا بتقدم العلم وتسلط العقل على الحياة ..! إن السعادة التي تنشدها البشرية قد تتعذر مع تقدم العلم وشـــيوع مكتشـــفاته ويتيسر تحقيقها عن طريق الدين والفلسفة ، ومن هنا خفف العلم مـــن غـــروره وحد من هجومه على الدين بل الأعجب من ذلك أنه – أي العلم – لاين الديـــن وأحسن ظنه بالفلسفة[3] .

---

[1] انظر : قصة الصراع بين الدين والفلسفة د / توفيق الطويل ص٢٥٤ .
[2] انظر : نفس المصدر ص٢٥٥ .
[3] انظر : نفس المصدر ص٢٩٤ .

ولقد عبر عن هذه النزعة العامة للفلسفة المثالية البرجوازية الفيلسوف الإنجليزي " بركلي " في النصف الأول من القرن الثامن عشر بجلاء .

يقول " لنين " كاشفاً حقيقة علم المعرفة عند " بركلي " والفلاسفة المثاليين الآخرين : " سوف نعتبر العالم الخارجي ، الطبيعة ، " مجموعة من الأحاسيس " وضعها الإله في عقلنا . وأنتم ، إذ تقرون ذلك ، لن تعودوا إلي البحث خارج الوعي ، خارج الإنسان ، عن " أسس " تلك الأحاسيس – وأنا أقر ضمن حدود نظريات المثالية معرفة كل العلوم الطبيعية وكل أهميتها وصحة نتائجها . فأنا بحاجة إلي هذا الإطار بالذات من أجل استنتاجاتي لمصلحة " العالم الخارجي والدين " – هذه هي فكرة " بركلي "[١] .

كما أن فكرة التوفيق بين العلم والدين تنفذ إلي فلسفة " كانط " أيضاً . فهو يحصر المعرفة ضمن نطاق الظواهر ، حيث يعلن أن جوهر الأشياء لا يمكن أن يعرف ، ويؤكد أن هذا " الشيء بذاته " الذي لا يعرف لا تكشفه المعرفة بل الإيمان . ويحد " كانط " من المعرفة والعلم كي يبقى مكاناً للإيمان وللدين . وهو إذ يحدد ميدان الإيمان والمعرفة ، يحظر على العلم التدخل في قضايا الدين ويؤكد ، في الوقت ذاته ، أولوية الدين في العلم[٢] .

وفي القرن التاسع عشر يعتبر مبدأ الرومانسية هو صميم الدين خاصة عند " شيلرماخر " اللاهوتي . وعنده أنه– أى الدين– حياة وتجربة ... وهذه الحياة تستمد أصولها من أعمق جزء في كياننا ، أي العاطفة .ومع ذلك فإن من يشعر بالانفعال الديني يجنح إلي تفسير طبعة وعلة حالته النفسية بواسطة عقلة ، ويرى أن عاطفته في أساسها هي اعتماد المخلوق اعتماداً مطلقاً على العلة الأزلية للكون . ونمو هذه العاطفة وفيضها الذاتي إنما هي الحياة الدينية ، التي من

---

[١] الإسلام وفلسفة العلم ص٥٥ .

[٢] انظر : المادية التاريخية . تأليف : ف . كيللي – م . كوفالزون . ص٥٠١ – ٥٠٢ .

آثارها تزكية الفرد بما لا يستطيع العلم أو الأخلاق أن يقوم به . وهي لا تميل إلي التعبير عن نفسها بأفكار مناسبة فهذا مستحيل بل برموز تستطيع أن تعكسها إلي الشعور فتسمح للانفعالات بالتبادل . وليس ما نسميه عقيدة شيئاً آخر إلا تمثيلا عقلياً لموضوع هذه الانفعالات أو علتها . وفي بعض الأحيان يخلق القلب رموزاً خلقاً مباشراً بقوة العبقرية فيغذي العقل . وأحياناً أخرى يستخدم الرموز التي تقدمها له الديانات القائمة . ولكنه لا يتقبل هذه الرموز نفسها قبولاً سلبياً ، بل يبعث فيها الحياة فتحفظ لها بذلك صفة دينية ، ومع ذلك فلا يستطيع العلم أن يقيم أي عقبة في سبيل خلق أو قبول هذا الرمز الديني أو ذلك .لأن العلم أيضاً ليس إلا طريقة للإدراك الرمزي فهو يعبر بوساطة الألفاظ عن مجهود العقل في فهم الأشياء ، أي إدراك التطابق بين الوجود والفكر ، وهذا مثل أعلى بعيد التحقيق[1]

وهكذا أصبح التطور الشائع للدين إبان القرن التاسع عشر تصوراً مناسباً للرومانسية ، مع ميل إلي الميتافيزيقا في ألمانيا ، وإلي الأدب في فرنسا ، فاعتمد الدين أولا وقبل أي شيء لا على العقل بل على القلب . فللدين مبادئه وأدلته وأعماله التي تفرض نفسها على العقل باسم سلطة متعالية وليس شك في وجود بعض المدافعين عن الدين ممن حملوا الأسلحة التى علاها الصدأ لكبار العقليين فى القرن السابع عشر... ولكن الحياة اتخذت جانب الذين أظهروا الحقيقة الدينية في تمام أصالتها وعظمتها ، دون اهتمام بالعلم وبالعقل المستقلين ، ودون عناية بالتحالف مع الفلسفة أو السلطات الزمنية ، ولهذا السبب ازدهر الدين الحر الذى يعتمد على قواه الخاصة وهى " القلب والإيمان والتقاليد [2] .

---

(1) انظر : العلم والدين في الفلسفة المعاصرة . تأليف : إميل بوترو . ترجمة : د/ أحمد فؤاد الأهواني . ص٣١ – ٣٢ . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ .

(2) انظر : نفس المصدر ص٣٢ .

ويرى كل من " سبنسر وماكس موللر " : أن الدين مرادف إلي ما وراء العقل فالدين نوع من الإدراك لما يفوت العلم وينقطع دون العقل[1] .

ولهذا السبب ازدهر الدين الحر الذي يعتمد على قواه الخاصة ، وهي القلب والإيمان والتقاليد ، عاملاً على تنمية الحياة الروحية وتزكيتها .

أما " العلم " فقد تعود من جانبه تجاهل الدين ، فكان يعد نفسه أكثر فأكثر قائماً على التجربة الموضوعية وحدها ، وليس له موضوع أخر سوى كشف العلاقات المستمدة من الظواهر ، ولهذا يحفل بمذاهب مؤسسة على مبدأ أخر وتسعى إلي أهداف مختلفة ؟ وقد تعايش وجهة نظر جنباً غلي جنب في ذهن الفرد الواحد دون أن يختلطا ، فالعالم حين يدخل معمله يترك بالباب معتقداته الدينية ويستعيدها عند خروجه[2] .

والخلاصة : أن الصلة بين الدين والعلم خلال القرن التسع عشر تعبر عن ثنائية حاسمة . فلم يعد العلم والدين مظهرين متماثلين لموضوع واحد هو العقل الإلهي ، كما كان الأمر قديماً في الفلسفة اليونانية . ولم يعد العلم والدين حقيقتين يمكن التوفيق بينهما كما ان الحال عند المدرسيين . ولم يصبح العقل ضمناً مشتركاً لهما كما في الحال عند العقلين المحدثين ، بل أصبح كل من العلم والدين مطلق على طريقته الخاصة ، وكلاهما متميز عن الأخر من كل وجه ، كما تميزت ملكتا النفس : الذكاء والعاطفة – بحسب علم النفس الزائد في ذلك الوقت – والتي إليهما يرجع العلم والدين . ولهذا الاستقلال المتبادل يرجع الفضل في إمكان وجودهما معا في طريق واحد ، بحيث يقومان جنباً إلي جنب كأنهما ذرتان ماديتان صامدتان ومتجاورتان في المكان . وقد تفهم – ضمناً أو

---

[1] انظر : في مواجهة الإلحاد المعاصر وعقائد العلم . د/ يحي هاشم فرغلي . ص١٩ – سلسلة مجمع البحوث الإسلامية . السنة الحادية عشر يناير ١٩٨٠م .

[2] الإسلام وفلسفة العلم ص٥٦ – ٥٧ .

صراحة – على أن يتفادى أحدهما بحث مبادئ الآخر . ولـذا كـان شـعار العصـر الاحترام المتبادل للأوضاع المكتسبة ، مما أفضى إلي أمن وحرية كل منهما[1] .

* وفي القرن العشرين خفت حدة التوتر القائم بين العلماء ورجال الدين في القـرن التاسع عشر وكان مرد هذا فيما يبدوا إلي أن العلم نفسه قد انتقل من المادية المتطرفـة التي عرفت عنه في لقرن الماضي إلي نوع من الروحية المسرفة في القرن العشرين ، إذ أخذ العلماء يقدمون تفسيراً جديداً للمادة قارب بينهم وبيـن الروحييـن ، فـاعتبروا المادة شحنات كهربائية أو إشعاعات موجبة ... واعتبروا العلوم رموزاً فسـروا بـها الوجود وكان هذا كله كفيلاً بأن يفضي بأصحابه إلي تفسير العالم تفسيراً مثالياً عقليـاً ، ومن هنا وصف بعضهم العالم بأنه نور ، ووصفه غيرهم بأنه فكر ... إلي أخـر مـا ذهب إليه في هذا الصدد[2]

وإذا كان العلم يهدف إلى إخضاع الظواهر الطبيعية للقوانين ، أي إلي النظـام – إلـي الثبات في التغير – إلي الترتيب ، إلي المنطق ، إلي العقل . أنه يبحث عـن قوانيـن بسيطة وكلية يمكن أن يرد إليها تعدد القوانين التفصيلية وتعقيدها . ومن هـذا الوجـه بالذات يميل العلم إلي أن يرى في العالم أثراً واحداً ومتنافساً أي جميلاً .وإذا كان العلم يتجه نحو الوحدة ،ويجدها ، فهل من التعسف القول بأنه يتجه نحو الله ؟[3] .

وهكذا يتضح لنا بناء على ما سبق أن النظرة الحديثة تتيح التوفيق بين العلـم والديـن حيث تشمل حقائق العلم المادي وتفسح المجال للبحث في الحقائق الروحيـة أيضـاً . وهذا ما أكده هانزرييشباخ بقوله تلك الجوانب من الوقع التى توصف بكلمـات مثـل الوعد أو الروح " يمكن ربطها على نحو جديد بالتصور العلمي السائد في عصرنا "[4]

---

(1) انظر : العلم والدين في الفلسفة المعاصرة . تأليف : إميل بوترو . ترجمة : د/ أحمد فؤاد الأهواني – ص٣٢ – ٣٣ .

(2) انظر : قصة الصراع بين الدين والفلسفة . د/ توفيق الطويل ص٢٩٣ .

(3) انظر : العلم والدين في الفلسفة المعاصرة . تأليف / إميل بوترو ص٢٠٦ .

(4) انظر : العلم في منظوره الجديد . ترجمة د/ كمال خلايلي . ص١٣٥ عالم المعرفة فبراير ١٩٨٩ . الكويت .

*** بين العلم وفلسفة العلم :-**

يوجد اختلاف بين العلم وفلسفة العلم ، يمكن إجماله فيما يلي :

(١) أن العلم قضاياه تصف الظواهر الطبيعية وصفاً مباشراً ، وفلسفة العلم قوامها البحث في قضايا العلم من حيث هي تعبيرات لغوية . وهذه التفرقة بين العلم وفلسفة العلم أخذ بها الأستاذ " آير " حيث يقول : " الكتاب العلمي يتألف في جوهره من عبارات ، والكثرة الغالبة من هذه العبارات تتحدث عن أشياء ... لكنك يغلب أن تجد فيه كذلك عبارات " لاتصف أشياء " بل تفسر طريقة استعمال ألفاظ معينه ، أو تعلق على العلاقة المنطقية القائمة بين عبارات أخرى واردة في الكتاب ، كأن تقرر عبارة ما بأن نظريتين مختلفتين متعارضتين أو غير متعارضتين ، أو أن مجموعة من العبارات تأتي لتشهد بصدق مجموعة أخرى ، فهذه العبارات التي لا تشير إشارة مباشرة إلي مادة العلم الذي هو موضوع البحث ، بل تشير إلي مدركاته " الواردة في الجمل التي تصف الأشياء وصفاً مباشراً " ، أو تشير إلي عبارات أخرى . يمكن القول عنها بأنها: هي فلسفة العلم إذاً فالمهمة التى تضطلع بها الفلسفة العلمية هى التحليل " [١] .

(٢) يوجد للعلم لغتان : أحدهما أصلية موضوعية تعبر عن حقائق العلم والأخرى شارحة تعتبر تعليقاً وشرحاً لها . وعلى هذا تكون التفرقة بين العلم وفلسفة العلم بأن العلم هو اللغة الموضوعية التي تعبر عن حقائق العلم بينما فلسفة العلم دراسة تمكن وراء حقائق العلم ولا تدخل في صميم العلم لأنها لا تقرر حقائق علمية بالصورة التي نجدها عند العالم ، بل هي تبحث عن مبادئ العلم وتحلل نتائجه . أو بعبارة أخرى تدل فلسفة العلم على كل ما يقال عن العالم دون أن تكون جزء منه ، فهي مجرد شرح وتعليق عليه[٢] .

---

[١] انظر : موقف من المبتافيزيقا .د/ زكي محمود . ص٢٠٢ – ٢٠٣ .– ط ٣ ،١٩٨٧

[٢] انظر : في فلسفة العلوم ومناهج البحث . د/ محمد مهران . ص٢٠ – ٢١ مكتبة سعيد رأفت جامعة عين شمس ١٩٧٨.

* **أهداف العلم :**

درج بعض الكاتبين في هذا الموضوع على حصر أهداف العلم في ثلاثة هـي : الوصف ، والتفسير ، والتنبؤ ، ومنهم من أضاف رابعاً هو التحكم ، وسوف نعرض الموضوع بطريقتهم الخاصة ثم نعقب برؤيتنا الإسلامية .

١-الوصف :

غالباً تلجأ الفلسفة الى وصف الظاهرة وتوضيح جذورها وتفاعلاتها وهذا الوصف ينبغى ان يكون بلغة علمية محددة ، ومنذ عصر "بيكور" كان هدف العلم هو وصف العالم دون الرجوع إلى العقل ، اى أن الهدف النهائى للعلم هو " وصف الحوادث " [1].

و الوصف معناه : حصر صفات الظاهرة موضوع البحث مثل ملاحظة المعادن التي تتمدد بالحرارة مثلاً ، فيقوم بحصر ووصف الخصائص الظاهرية لعملية التمدد .

٢-الفهم أو التفسير :

وهو عبارة عن كشف العلاقات التي تقوم بين الظواهر المختلفة ، وعلاقة الظواهر بنتائجها . [2]

هذا التفسير هو الذى يجعل الظاهرة مفهومة ومعقولة لأننا إذا أردنا أن نفهم فمن الواجب معرفة السبب ، فهدف النظريات العلمية من التفسير الكشف عن العلل وبيان سبب ظهورها . [3]

---

(١) أنظر : الإسلام وفلسفة العلم . د/ أحمد رمضان . ص ٢٧٧-٢٧٨ .

(٢) البحث العلمى ومناهجه . د/ سعد صالح . ص ١٥ . مكتبة الصحابة . ط٢ ، ١٩٩٣ .

(٣) أنظر : الإسلام وفلسفة العلم . ص ٢٨١-٢٨٢.

٣-التنبؤ :

وهو تصور انطباق القانون أو القاعدة العامة في مواقف أخرى غير تلك التي تنشأ عنها أساساً ، فالعلم لا يقف عند حد التوصل إلى تعليمات أو تفسيرات نظرية للحوادث والظواهر بل يتعداها إلى ما يمكن أن يحدث لو طبقنا هذه التعليمات والنظريات على مواقف أخرى جديدة(١) .

فلتبؤ هو هدف العلم ، لأن الأمر كما صرح " مارشال ووكر " بأن العلم يتعلق أساساً بالتنبؤ بالحوادث فى الكون ، والهدف المباشر للتفكير العلمى هو إقامة تنبؤات صحيحة لحوادث الطبيعة . (٢)

فإذا ما بحثنا ظاهرة الانتحار مثلاً في مجتمع من المجتمعات ووجدنا أن السبب في ذلك هو الفراغ الروحي ، فإنا نستطيع أن نتنبأ بأن كل مجتمع لا يوازن بين مطالب الروح ومطالب البدن ، وسوف تتكرر فيه ظاهرة الانتحار . (٣)

٤-التحكم :

ومعناه تناول الظروف التي تحدد حدوث الظاهرة بشكل يحقق لنا هدفاً معيناً ، ففي ظاهرة مثل تمدد الحديد حين يتعرض للحرارة ، نستطيع أن نتحكم في قضبان السكك الحديدية فنجعل بينها فراغات تستوعب هذا التمدد حتى لا ينقلب القطار مثلاً .

هذه هي أهداف العلم كما تحدث عنها كل من كتبوا في علم مناهج البحث فقد ترجموها وصاغوها هكذا عن الكتب الأجنبية دون أي إعمال للفكر أو العقل ، ودون أي إحساس بالفارق الكبير بين الحضارة الغربية التي أملت على أصحابها ما أملت ، وبين الحضارة الإسلامية التي ينبغي أن نعبر عن فكرنا من خلالها .

---

(١) أنظر : البحث العلمى ومناهجه . د/ سعد صالح . ص ١٥-١٦ .

(٢) فلسفة العلم . د/ صلاح قنصوه . ص ١٥٢ .

(٣)أنظر : البحث العلمى ومناهجه . د/ سعد صالح . ص ١٦م س.

ومن هنا نرى أن هذه الأهداف هي مجرد الأهداف الظاهرية أو القريبة ، ولكن هناك أهداف بعيدة ينبغي أن نلفت النظر إليها .

ومن هذه الأهداف :

١-محاولة الوصول إلى السبب الأول الذي يفسر كل الظواهر المبعثرة في الكون وقد يقول قائل منهم : إنك الآن تخلط بين مهمة العالم ومهمة الفيلسوف من حيث إن الفيلسوف يحاول الوصول إلى كنه الأشياء وحقيقتها ، بينما يقف العالم عند حدود الظواهر الجزئية ، ويحاول الوصول إلى القوانين التي تفسرها دون خوض في البحث عن عللها وعلة وجودها ، ونقول :

أولاً : إن العالم الحقيقي ينبغي عليه أن يرتقي في مراحل بحثه إلى مراقي الفيلسوف ويحاول أن يربط بين القوانين لمعرفة الأسباب المبعثرة بحيث يستطيع أن يفسرها بقانون واحد .

ثانياً : إن هذه الغاية التي نبهنا عليها هي الغاية الحقيقية التي يجهد العالم نفسه من أجل الوصول إليها وإليك ما يقوله العلماء التجريبيون .

" إن العلاقات التي يبحث عنها العلم ليست محصورة في دوائر مفصولة عن بعضها البعض ، بل يمكن أن تتسع دائرة العلاقات حتى تشمل هذا الكون بأكمله ، فالعالم يحاول أن يربط بين الظواهر وبين التفسيرات المختلفة ، ويحاول أن يدمج القوانين والتفسيرات الجزئية تحت قوانين أخرى أعم منها ، وهكذا يحاول أن يدخل الخاص في دائرة العام حتى يصل إلى القانون الكلي الذي يفسر كل الظواهر ، وهكذا يحاول العلم كما قلنا أن يربط بين القوانين الجزئية بردها إلى قانون كلي .

والواقع أن المتتبع لتاريخ العلم الحديث يجد أنه يجري لاهثاً وراء هذه الغاية ، فقد حاول جاليليو مجرد أن يصل إلى قانون ثابت للأجسام الساقطة ، فجاء نيوتن من بعده وجعل قانون جاليليو مجرد حالة خاصة من قانون أعم هو قانون

الجاذبية ، ثم جاء أينشتاين أخيراً ورد قانون الجاذبية إلى قانون القصور ؛ بــل يقول أينشتاين : إنه من الممكن أن نفسر كل القوانين العلمية المكتشفة بقــانون واحد هو نظرية النسبية ، وهذا هو نص كلامه : " إن صدق النظرية النسـبية ليس قاصراً على ناحية واحدة من نواحي الطبيعة فهذه النظرية تشـكل إطـاراً عاماً يضم جميع الظواهر الطبيعية ، ويتضمن تفسيرها .

- وسواء كان أينشتاين مؤمناً أم كان معجباً فقط بنظام الكون وإبداعه كما يقال ، فإن ما يهمنا هنا أن نثبت أن هدف العلم ليس مجرد الوصـف والتفسـير والتنبؤ بظاهرات جزئية متفرقة ، وإنما هدفه الأساسي هو الوصـول إلـى القانون العام الذي نسق بين هذه القوانين الجزئية التي تعمل في الكون .
- أما الذين يدعون أن الغاية الحقيقية من العلم هي مجرد الأهداف القريبـة ، فإننا نقول بكل أسف : أنتم مازلتم تقفون على أبواب العلم وأعتابه ، فادخلوا من الباب ، وابحثوا عن الغاية الأساسية من العلم ونحن هنا لا نتحدث بلغـة علماء الدين ؛ بل بلغة العلم الذي تدعون أنكم سدنته وحراسه ، فبدون هـذه الغاية تتحول إلى كم متناثر لا يربطه رابط ، ولا يجمعه جامع .

وهنا يطيب لي أن أذكر مقالة الفيلسوف " باسكل " التي يقول فيها " صنفان مـن الناس يجوز أن تسميهم عقلاء : وهم الذين يخدمـون الله ؛ لأنـهم يعرفونـه ، والذين يجدون في البحث عنه ؛ لأنهم لا يعرفونه .

ومن هنا فهؤلاء الذين بين غاية العلم وبين البحث عن الله ليسـوا بعقـلاء ولا علماء ، فلتكن وجهة العالم دائماً هي البحث عن القوة العليا التـي يسـتطيع أن يفسر بها كل الظواهر الجزئية التي يبحث عن تفسيرها .

٢- الغاية الثانية التي يهدف إليها العلم هي تسخير الكون بكل ما فيه لخدمـة الإنسان وتكريمه وتحقيق سعادته ووقايته من أسباب الشقاء والدمار .

فالعلم حيث يستخدم أداة لخلق الشقاء والتعاسة للإنسانية يكون قد انحرف عـــن غايته الأساسية ، ولا لوم على العلم ، إنما اللوم على هؤلاء العلماء الذين جعلوا من العلم وسيلة لتدمير الإنسان ، واختراع ما فيه شقائه وفنائه

فالمسألة ترجع إلى الروح التي يستخدم بها الإنسان ثمار العلم ، فهذه الروح هي التي تقرب الإنسان من الدرجة السامية للإنسانية حيث تستخدم في إسعاد الإنسان ، أو تقربه من أدنى درجات الحيوانية الوحشية حين تستخدم في ضرر الإنســان وشقائه . [1]

وفي توجيه القرآن الكريم إلى هذه الغاية جاء قوله تعالى : " هُو الذي خَلَقَ لكــم ما في الأرضِ جَميعاً " . [2]

وقوله تعالى : اللهُ الذي خَلَق السماواتِ والأرضَ وأنزل مِن السماءِ ماءً فــأخرج به من الثمراتِ رزقاً لكم وسخر لكم الفُلْكَ لِتَجرِي في البحر بأمره وسخر لكـــم الأنهار وسخر لكمُ الشمسَ والقمرَ دائبين وسخر لكم الليلَ والنَّهار "(٣) .

وقوله " اللهُ الذي سخرَ لكُمُ البحر لِتَجري الفلكُ فيه بأمره ولِتبتغوا مـــن فَضلِــهِ ولعلكم تشكُرُون "(٤) .

وهكذا ينبغي أن تكون غاية العلم وهدفه – بعد الوصول إلـــى الله – أن يســـخر الكون لخدمة الإنسان .

*** مسلمات العلم :**

ادعى كثير من الكاتبين أن مسلمات العم التي ينبغي أن يسلم بها العالم تســـليماً جازماً ثلاث هي :

---

(١) نفس المصدر ١٦-١٨ .

(٢) سورة إبراهيم الآيات ٣٢ – ٣٣ .

(٣) سورة إبراهيم الآيات ٣٢ – ٣٣ .

(٤) سورة الجاثية الآية ١٢ .

١)مسلم الحتمية :

الذي اكتشفه نيوتن ، وداعي فيه أن الكون وأسبابه ومسبباته تخضع لقانون الحتمية فالمسببات تحث عقب ظهور الأسباب حدوثاً ضرورياً دون أية حاجة إلى افتراض سبب آخر وراء الظواهر المحسوسة .

٢)مسلم الاضطراد :

ومعناه أن ما حدث اليوم لظروف معينة ، لابد أن يحدث غداً حين تتحقق هذه الظروف.

٣)مسلم الوضعية أو الحسية :

ومعناه أن العالم ينطلق من الأمور المحسوسة الموضوعة أمامه ، ولا يضع أي اعتبار لما لا يقع تحت الحسي .

والذي نراه أن هذه المسلمات غير واقعية ، ولا تعبر عن واقع العلم ، فلقد جاءت نظريات الرياضيات الحديثة في الاحتمالات ، ونظرية النسبية لكي تهدم هذه المسلمات .

فنظرية الاحتمالات التي وضعها " كينز " ، لا تضع أي اعتبار لمسلم الحتمية أي الاضطراد ، فلم تعد العلاقة بين السبب والمسبب حتمية ضرورية لا تتخلف بل أصبحت محتملة بدرجة ما من درجات الاحتمال على حسب الفرص المتكافئة بحدوث الظاهرة أو عدم حدوثها .

ولقد سبق أن عبر الإمام الغزالي عن هذه الحقيقة من خلال إثباته لعادية التلازم بين الأسباب والمسببات ، فليس من الضروري إذا حدث الظاهرة (أ) أن تحدث الظاهرة (ب) ، وإنما على ضوء نظرية الاحتمالات : لو حدثت الظاهرة (أ) فإنها يحتمل أن تتبعها الظاهرة (ب) .

إذاً فالظواهر ليست خاضعة لقانون الحتمية ، بل لقانون أعلى وأسمى ، وهو قانون " ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن " ، نعم .. فهناك الإرادة الحرة عن دوامة الأسباب والمسببات .

وعلى أساس نظرية الاحتمالات قامت نظرية النسبية التي لم تضع أي اعتبار لوضعية الماديين وحسيتهم ؛ بل قالت : إن المادة التي يتألف منها الكون عبارة عن طاقة هوائية متجمدة في شكل ذرات غير مرئية ، وأثبت هذا العالم أن المادة والطاقة شئ واحد وهو لم يشاهد الذرات ولا مكوناتها ، وإنما تعرف عليها بآثارها ، وقد صدق رأيه عندما أمكن تفتيت الذرة وتحويل مادتها إلى قوة فخبرونا بالله عليكم هل تصدقون بوجود الإلكترون والبروتون والنيوترون ، وهي مكونات الذرة التي لم يرها أحد أم لا ؟

وهل نظرية النسبية علم أم لا ؟ وهل أينشتاين [illegible] لا ؟ فكيف تدعون بعد كل ذلك أن الحسية والوضعية هي المسلم والأساس [illegible]طلق منه العالم ؟

وإذاً فوضع هذه الأمور كمسلمات للعلم أمر لا [illegible] أبداً مع مقررات العلم ذاته . ومن هنا نضع نحن مسلمات العلم الحقيق[illegible]ي أن يؤمن بها العالم أياً كان تخصصه وأياً كان محال بحثه ، ومنها :

١- لابد أن يسلم العالم بأن هناك قوة عليا [illegible] خلقت هذا الكون ، وأبدعته ونسقت قوانينه على أفضل ما يمكن أن يكون .

٢- أن الله سبحانه وتعالى قد وضع في الكون [illegible] اميس وأسباباً ومسببات إلا أن العلاقة بينهما عادية تخضع لقدرة [illegible] ليس معنى ذلك أن الأسباب لا تؤثر في المسببات ، بل المقصود انه [illegible] بطبعها وذاتها بل بقدرة الله " اللهُ الَّذِي أعطَى كُلَّ شَيءٍ خلقه ثُمَّ

(¹) سورة طه الآية ٥٠ .

٣- أن التجربة والمختبر والحس ليس هو الطريق الوحيد للعلم ؛ بل هناك العقل والمنطق الذي يستطيع أن يفسر في أحيان كثيرة ما يعجز عنه المعمل والمختبر .

ولسوف يقولون : إنه يلقي بنا إلى غيبيات لا دليل عليها من الحس ، ونقول : وهل العلم اليوم في أحدث نظرياته إلا ضرب من الغيبيات ، فهذه هي المسلمات الأساسية التي ينبغي أن يسلم بها العالم والباحث قبل أن يدخل إلى مختبره ، وسوف لا يجد أي تناقض بينها وبين نظريات العلم الحقيقي ، وأما العلم الزائف والنظريات التي حسبت على العلم بدون وجه حق فلا شأن لنا بها ، وعلى البحث ألا ينخدع بالمسلمات التي وضعها هؤلاء ، وإنما من واجبه أن يبحث عن مسلمات العلم الحقيقية .[1]

أخلاق العلم

يرى " البيربيية " : أن أخلاق العلم عبارة عن جملة الأفكار المعيارية التي حملت الناس على السير في طريق البحث العلمي ، والتي جعلتهم يحددون مناهجه ويوثقون تقدمه[2] .

فالأخلاق تعتبر عن مثل أعلى يستولي على الإنسان كله ، ويرفعه بالتجرد عن الذات فوق نفسه ، شيئاً يبعث فينا يقيناً وحماسة ، وينشط الذهن والقلب جميعاً ، ويجعل لحياتنا قيمة ، ويضفي عليها جمالاً . والأعمال العظيمة في جميع الأزمان ثمرة لتقديس المثل الأعلى ، وبه وحدة يحق لنا الرجاء في أن ننطلق من هذه المادية الأخلاقية ، إذا أنكرنا على العلم حقه في إعطائنا مثلاً أعلى ، وانتقصنا من مهمته فجعلناها أمراً ثانوياً ، نكون في الحقيقة قد منعناه

---

(1) أنظر : المصدر السابق . ص١٨-١٩ .

(2) انظر : دفاع عن العلم . تأليف : ألبير باييه . تعريب : د/ عثمان أمين ص٦٠ - ٦١ ، دار إحياء الكتب العربي ، القاهرة ١٩٦٤ .

من أن يؤثر أثراً جدياً عميقاً على ما أسمى ما في المصير الإنساني ، وما يبث الروح من الهيئات والحياة في الضمائر .

وكيف يسوغ لنا أن نزعم أن أمثال المخترعات الرائعة التي يكاد يقصر عنها الوهم ، والتي تغير أمام بصرنا صورة الكون هي أشياء لا أثر لها في الحقائق العميقة حقائق الحياة الباطنة ، ولا في الشعر والعواطف ، ولا في الحركات الكبيرة التي توجه سير العالم[1] .

والمثلُ الأعلى الذي يستوحيه العلم والمبادئ التي هي مبعث نشاطه الفعلي هي الوقائع وكشف العمل عن العامل .

والأخلاق عند من يلاحظها ملاحظة علمية هي التمييز بين الخير والشر على نحو ما يتجلى في الوقائع الاجتماعية. والفلسفات إحدى هذه الوقائع[2] .

ويرى أن أخلاق العلم لم تنتظم بعد في مذهب ولم تتركز بعد في قواعد ولن تعبر عن مثلها الأعلى باللفظ وإنما خدمته بالفعل ؛ إنها متضمنة في وجود العلم وفي نفس تطوره .

ذلك أن للعلم مقصده الذي يشير إليه حين يسعى إليه . وإن شئناً قلنا أن العلم حقه ، لأننا نستطيع أن نطلق هذا الاسم على المنهج العقلي الذي تؤيده جهود الباحثين الموصولة . فلندرس هذا المقصد ، وأنهما يفترضان ويتضمنان نظرة عن عظمة الإنسان وجمال الحياة .

فهذه الأخلاق عدل في جمالها وتتجاوز ما قدمه المفكرون لنا من مذاهب الأخلاق قبل العصر العلمي . وهي أيضاً قادرة على أن تنظم حياتنا وأن تثير حماستنا[3] .

---

(1) انظر : نفس المصدر ص ١٥٣ – ١٥٤ .

(2) انظر : نفس المصدر ص ٦١ – ٦٣ .

(3) انظر : المرجع السابق ص ٦٦ – ٦٧ – ٦٩ .

- فأخلاق العلم ترجع إلي وجود مثل أعلى ، على هديـــه يتقــدم العلــم وينتظم شئون حياتنا .

وذهب " ألبيربابيه " إلي أ لخلاقيات العلم تتمثل فيما يلي :

(١) كرامة الفكر :

الكرامة الإنسانية هي أول فكرة ينطوي عليها تقدم العلم وهي عبــارة عن جهد العقل لبلوغ الحقيقة ، وغاية هذا الجهد المعرفة ، لأن العلم الصحيـــح بحث مبرأ من الأغراض ، لا يعنيه حين يرّى مشكلة أن يعرف هل أن يكـــون لحلها نتائج علمية أو لا يكون ، ولا يبالي إلا أن يستعيض عن جــــهل بعلــم . فالمعرفة هي الغاية الوحيدة عند عالم الطبيعــة أو عـــالم البيولوجيــا أو عـــالم الاجتماع[١] .

فالعلماء كالفلاسفة الذين سبقوهم . ومهدوا لهم الطريق ، يجعلون الفكــر صميم الكرامة الإنسانية ، ولكنهم يرون ذلك الفكر وثبة موصولة وبناء تدريجيـاً لا حد له السير الظافر للعقل ، " والعدول عن الراحة " هما في نظر العلم مــدار عظمتنا الحقيقية للعمل المظفر عمل المفكر .

هذا المثل الأعلى الذي يتضمنه النشاط لعلمي له اثر في حياة الجماعـــات ويتلخص في انه : متى كانت الكرامة الإنسانية في صميمها عبارة عن الجــــهد الموصول للمعرفة ، فإن مهمتنا الأولى أن نعمل بحيث يكـــون للنـــاس جميعـاً نصيب في هذه الكرامة[٢] .

فالأخلاق التي يستوحيها العلم تهدف إلي أن نضع المعرفة فــــي المرتبــة الأولى عند جميع الأفراد . وما نحلم به هو إيجاد مجتمعات توزع على النـــاس

---

[١] انظر : المرجع السابق ص ٧٠ – ٧١ .

[٢] انظر : المرجع السابق ص ٧٧ .

جميعاً ضروب الثقافة ومناهج المعرفة ، والإنسانية قد تحررت من المشاغل المادية ، فاستطاعت أن تفرغ لتوفير كرامتها ، أي لتوفير معارفها[1] .

وبما أن أخلاق العلم تمجيد للفكر ، فإن أصحاب التطبيقات العلمية Technicians لن يستخدموا الوقائع المقررة ولا القوانين الممحصة إلا للعمل على ذلك التمجيد . وسيتوخون مهمة تحرير الإنسانية من العبوديات الاقتصادية ، لا لزيادة اللذائذ المادية زيادة لا حد لها ، بل لكي يتيسر لكل واحد وللمجموعة أن يدخر للمتع العقلية أكبر قسط من الحياة . ولن يضعوا الذهن لحظة واحدة في خدمة الآلة إلا لكي يضعوا الآلة في خدمة الذهن وسيخلصون الإنسانية من هذا الخضوع للعامل الاقتصادي الذي ينوء بعبئه أغلب الناس . ولذا فلن يبحثوا إلا عن الوسائل العلمية Techniques لجعل المعارف المكتسبة في متناول الجميع ، ولكي يتيسر لكل واحد أن يكون أكثر فأكثر وأحسن فأحسن كائناً مفكراً[2] .

(٢) – الوفاق والتماس الوحدة (الاتحاد) :

والمثل الأعلى الثاني الذي ينطوي عليه النشاط العلمي هو الوفاق والائتلاف . أي يؤلف بين العقول في كل مكان[3] .

وهذا لمبدأ ليس جديداً ، فقبل العلم الحديث قامت أديان وفلسفات لم تخل من رغبة في التأليف بين النفوس وإشراكها في تقديس حقيقة واحدة . ولكن ظهر أيضاً عندهم عجز في التوفيق بين النفوس والحصول على ذلك الإجماع على الرأي الذي هو شرط للشمول والكلية .

---

[1] انظر : المرجع السابق ص ٨١ .

[2] انظر : المرجع السابق ص ١١٠ – ١١١ .

[3] انظر : المرجع السابق ص ٨٢ .

حيث أننا قد سلكنا الطريق كي نصل إلي نظرية واحدة لا يدانيها غيرها فيلتقي الجميع عندها إخواناً متصافين . إلا أن الطريق التي كانت تبدو مؤدية إلي تلك النظرية قد بلغت من التباعد والاختلاف حداً يترك الإنسان ، على شدة ما عانى من تعب وطول مطاف ، أكثر زلزلة وارتياباً ، ويدع الناس أشد تفرقاً وانقساما .

وقد ظهر العلم وسط هذه الانقسامات عاملاً فعالاً على جمع الكلمة والوفاق ، أي أنه أوجد ، الاتحاد وأما غير العلم فيدعو إلي الاتحاد . فتجد في العلماء كاثوليكيون وبروتستانيون .. وفيهم إنجليز وألمان وفرنسيون .. ولكن ليس هناك هندسة كاثوليكية أو بروتستانتية أو إسرائيلية ، ولا علم طبيعة ألماني أو إنجليزي أو فرنسي !

وقد نتصور أقوالاً دينية أو فلسفية تتصل اتصالاً وثيقاً بالهند أو بالغرب ولكن لا نتصور برهاناً من براهين علم الرياضة يكون عند المسيحي غيره عند البوذي ، ولا نتصور تمحيصاً تجريبياً مما يقوم به علماء الطبيعة يكون مقبولاً عند المعجب بفلسفة " كانت " ولا يكون مقبولاً عند المعجب بمذهب " اسبينوزا "[1] .

والعلم لا ينبغي الوصول إلي الحقيقة فحسب ، إنما يريد أن يبرزها للناس أجمعين . ولا يكفيه أن يؤمن الناس بما يقول ، بل يود ألا يصدقوه إلا عن أدلة ذات وزن ورنين . فالبراهين المضبوطة والتمحيصات الدقيقة هي أسمى صورة من صور الإيثار ، لأنها تنطوي في وقت واحد على موافقة الغير على الأشياء الجوهرية والرغبة في أن لا تكون هذه الموافقة لحظية ولا أن تكون تقرباً طارئاً بل أن كون تعبيراً متيناً عن مشاركة حقيقية .

---

[1] انظر : المرجع السابق ص ٨٦ – ٨٧ .

إن " احترام الإنسان لأخيه الإنسان وحبه إياه " هما روح البحث العلمي لأن المرء لا يستطيع أن يهب غيره من الناس هبه أثمن من أن يقــدم لــهم حقيقــة تصبح ملكاً لهم ، وتجعلهم إخواناً متآلفين[1] .

– فمبدأ التماس الوئام بالروح من المبادئ العليا للأخلاق ، وتظــهر محبــة بعضنا البعض في أن يقنع بعضنا بعضاً في أي مجال مهما يكن . والاتحاد الذي منشؤه الرضى والإذعان لحقيقة أيدها البرهان السليم ، أساسه متميــــن وليــس للصدفة عليه من سلطان .

وإذا كنا ليوم متفقين في بعض الأمور من الحقائق المتضمنة بالمادة والحياة فإننا مختلفين أشد الاختلاف في أمور أخرى . لكن أقل ما يقال إن المثل لأعلــى المنطوي في النشاط العلمي يدلنا على الطريق الذي ينبغي أن نسير فيه لتلطيــف حدة هذا الاختلاف : وهو أن نزيد عدد الحقائق اليقينية المشتركة ، وأن نطالــب إلي العقل في جميع المناظرات أن يعطينا مبدأ الاتفاق[2] .

والفلاسفة الذين يتجادلون اليوم في أمر العلم وهل له قيمة مطلقــة أم لا هم على الأقل متفقون على العناصر التي يتكون منها العلم ، وليس بينهم خلاف إلا على الحدود التي يقف عندها سلطانه .

ولقد بلغ من الوفاق الذي مصدره العلم أن أصبحنـــا لا نلقـــي إليـــه بـــالاً وأصبحنا نتكلم عنه كما نتكلم عن أمر بسيط جداً ، بل قد لا نتكلم عنه[3] .

– وبما أن أخلاق العلم تطلب الاتحاد ، فإن أصحاب التطبيقات العلمية لــن يقبلوا أن توجه نتائج البحث البريء ناحية الحقد والموت . وسيأبون أن يكونــوا عمالاً في خدمة الحرب ولن يطيب لهم أن يروا أن ما اكتشفوا لتحقيق الوئام قــد

---

[1] انظر : المرجع السابق ص ٨٨ .

[2] انظر : المرجع السابق ص ٨٩ .

[3] انظر : المرجع السابق ص ٨٧ .

استخدم للقتل ، بل سيبذلون لإذاعة الحقائق المكتشفة ما وسعهم من جهود حتى ينشأ من الوفاق بين الأذهان في عالم عاقل ، وئام بين الإيرادات والقلوب[1].

(٣) – احترام الحرية :

إن احترام الحرية من أهم مبادئ أخلاقيات العلم ، حيث جعل العلم الحرية قانونه[2] .

فالعلم لا يفض على أحد من الناس براهينه ، وإنما تفرض البراهين نفسها بنفسها إذا كانت متينة ، ولا شيء هو أكثر حرية من الإذعان الذي يمنحه العقل البراهين .

وليست الحرية التي يعترف العلم بها للجميع تساهلاً مكرها ، وإنما هي أساس النشاط العلمي ، وهي شرط النجاح[3] .

ومن أجل هذه الحرية فالعلم لا يطمئن إلي أي نتيجة من نتائجه ، حيث يقول البعض مثلاً : " لا مناقشة في هذه المسألة " ويعدل عن الحرية . إن كل شئ يمكن أن يوضع موضع المناقشة ، لأنه لا علم إلا مما هو نسبي ؛ ومن أجل هذا ستكون الحرية دائماً في مواجهة جميع المشكلات ، وهي نفس قانون العلم[4]

وما يبديه الغير من أراء مخالفة لآرائنا شئ جميل ؛ وينبغي أن نبتهج له ابتهاجاً لخير متن الخيرات ، لأن حرية التعبير عن الآراء مهما يلحقها من شوائب التطرف ، تعين الحقيقة على الظهور . وأخلاق العلم تريد أن تصون هذه الحرية من عدوان الاستبداد ومن سطوة المال ، الذي نجده دائماً على استعداد لأن يشتري وسائل التعبير عن الفكر أو يشتري الفكر نفسه .

---

(١) انظر : المرجع السابق ص ١١١ .

(٢) انظر : المرجع السابق ص ٩١ – ٩٣ .

(٣) انظر : المرجع السابق ص ٩٤ .

(٤) انظر : المرجع السابق ص ٩٦ – ٩٧ .

والمبدأ الذي يستلهمه العلم بالفعل يتطلب أن ننصت إلي الغير بقدر من التعاطف الذي يصاحب كل جهد لتمام الفهم : فإن العالم إذا أراد أن ينقض نظرية تبدو له مخالفة للوقائع المشاهدة ، إنما يبدأ بدراسة تلك النظرية بما يستطيع من تعمق واستقصاء ، ويأخذ منها الصحيح النافع ، ويحلو له وهو يتجاوزها أن يقدم له أطيب التحية ؛ وهو يبذل الجهد ليبين في الدعوى الباطلة الهم المشروع الذي كان سبب وجودها . حتى لا تفلت منه أدنى ذرة من حقيقة ممكنة . وهذا الجهد المبذول للفهم مع المشاركة الروحية والتعاطف يمكن أن يمتد إلي جميع الأفكار[1] .

والروح العلمي يذهب إلي ابعد من التسامح : فهو لا يقنع بتطليق الكراهية أو الازدراء باعتبارهما سبة للفكر ، بل ينكرهما أولا بوصفهما عقبة من العقبات في سبيل الذهن[2] .

وعلى ذلك فأخلاق العلم يتضمن : احترام الفكر المستقل[3] .

– ولما كانت أخلاق العلم احتراماً للحرية ، فإن أصحاب التطبيقات العلمية لن يضعوا أنفسهم أبداً في خدمة الاستبداد في أي صورة ظهر ، سواء كان استبداد القوة أو المال أو استبداد المذهب الذي يريد الافتئات على حقوق العقل . وسيكون قانونهم في جميع التطبيقات التي تستطيع اختراعاتهم أن تخدمها ، وأن يحترموا استقلال الفكر وأن يناصروه ، موقنين أن القوة لا يحل لها بوجه من الوجوه أن تصاول الفكر[4] .

---

(1) انظر : المرجع السابق ص ٩٨ – ٩٩ .

(2) انظر : المرجع السابق ص ١٠٠ .

(3) انظر : المرجع السابق ص ٩٧ .

(4) انظر : المرجع السابق ص ١٠١ – ١١٢ .

وتمجيد الفكر ، والتماس الوحدة الحرية هي المبادئ الثلاثة المتضمنة في البحث العلمي – كما يقول " ألبيربابيه " – وهي المثل الأعلى الذي صدر عنه العلم ، أي أنها النتيجة الضرورية لأخلاق العلم لرفع النشاط الإنساني إلي منزلة عالية . وستتحقق النتيجة إذا انتصرت تلك الأخلاق . وهذه الأخلاق نفسها ستنتصر إذا دأب العلم والروح العلمي على توسيع مجالها وتوطيد دعائمها[1] .

الخلاصة :

أن موضوع أخلاقيات العلم وتطبيقاته سوف يظل لفترة طويلة أحد شواغل المجتمع الإنساني نظراً للطبيعة المتغيرة له وظهور الجديد منه بشكل مستمر وظهر ذلك واضحاً في مؤتمر العلم والأخلاقيات والمجتمع الذي عقد في اليونسكو في باريس عام ١٩٦٦ م . وموضوع أخلاقيات العلم أثار كبير من الجدل في الآونة الأخيرة على النطاق العالمي وكذلك المحلي . وذلك راجع إلى أن كثير من المجالات العلمية والتكنولوجية يجب أن يتنبه العالم إلي المخاطر التي قد تنجم عن سوء استخدامها ، ومن تلك المجالات الطاقة الذرية سواء عن استخدامها في الحرب أو السلم والهندسة الوراثية ونقل الأعضاء وثورة المعلومات والاتصالات وسوء توزيع المياه العزبة والتدهور البيئي والتلوث بجميع أشكاله ... وغير ذلك من المجالات التي يمكن أن تمثل تهديداً لأمن وحقوق الدول – الفقيرة منها على وجه الخصوص – وكذلك الأجيال القادمة .

وتناشد تلك المؤتمرات العلماء في كل مكان مراعاة ضميرهم خلال إجراء بحوثهم العلمية ، كما تحملهم أيضاً مسئولية الكشف عن الأخطار التي قد تنتج من التطبيق العلمي لها[2] .

---

[1] انظر : المرجع السابق ص ١٠٩ – ١١٢ .

[2] انظر : جريدة الأهرام ، عدد (٤١٤٧٩) بتاريخ : ١٨ / ٦ / ٢٢٢ . ص ١٠ .

حيث رفعت في مؤتمر أوسلو عام ١٩٩٩ شعارات ، مثل : العلم للمعرفة والمعرفة للتقدم وضرورة وضع العلم في خدمة الإنسانية وضمان نوعية أفضل من الحياة للأجيال الحالية والمستقبلية . هذه المعرفة ضرورية ومهمة وتمثل قوة وقدرة على المناقشة كما إنها تزيح الستار عن أسرار كثير من الأبحاث والتطبيقات العلمية التي يجب الحذر منها مما يمثل حماية لمجتمعنا ويتحمل المشتغلون بالبحث العلمي في مصر والدول النامية أيضاً مسئولية الإضافة المستمرة إلي قاعدة البيانات موضحين كل في تخصصه الأخطار المحتملة لتطبيقات الأبحاث في هذا لمجال .

والتقدم العلمي في بلادنا لن يصل إلي ما نرجوه له ولتطبيقاته من نجاح في خدمة وحماية وطنه إلا من خلال بناء مجتمعه على أسس وسلوكيات وضوابط تحكمه . وعلينا أن عمل جاهدين على توضيحها واستكشاف سبل ووسائل تحقيقها . ولقد أثير موضوع الآثار الإنسانية والاجتماعية للبحوث العلمية والتكنولوجية في مجلس الشورى في مصر وتعددت الآراء حول الموضوع واختلفت ما بين قائل أن علينا امتلاك العلم والتكنولوجيا قبل أن نتحدث عن ضوابطها ، ورأى أخر يؤكد المستوى المتقدم لمصر في هذا المجال ثم طلب وزير التعليم والبحث العلمي بأن تصبح الأخلاقيات جزء لا يتجزأ من رسالة العلم[١] .

---

[١] انظر : المرجع السابق ص١٠ . و انظر : الإسلام وفلسفة العلم . ص ٣٠٦-٣١٤ . فقد نقلنا هذه النقطة منه بتمامها لأن فيها استفادة كبيرة فيرجى الرجوع إليه .

الفصل الثاني

دراسة لبعض النظريات العلمية (نظرية التطور) وموقف العقيدة منها

نظرية التطور

من الأخطار التى تعود على العقيدة من جراء إنكار الغيب ظهور نظريات وفلسفات مادية إلحادية، ومن بين هذه النظريات التى يظهر فيها هذا الاتجاه بوضوح نظرية التطور؛ تلك النظرية التى تنسب إلى داروين[1].

فقد نسبت إليه هذه النظرية ، وارتبطت باسمه إلا أن هذا لا ينفى وجوداً سابقاً لها عليه، فلم يبتدعها "داروين" من تلقاء نفسه، إنما سبق بجملة من الأبحاث والأقوال التى مهدت لظهورها على يديه فيما بعد على النحو الموجودة عليه.

وقد ارتدت هذه النظرية، ثوب العلم لتخفى من خلاله ما تريد بثه أعنى نشر الإلحاد، فهى إحدى المحاولات التى قامت من أجل العمل على انهيار العقيدة الدينية، ونفى فكرة العناية الإلهية عن الخلق، ويتجلى ذلك بوضوح من خلال إنكارها لما وراء الطبيعة أى العالم الغيبى جملة وتفصيلاً.

وبالجملة فهى إحدى صور الإلحاد العلمى المعاصر التى لا تؤمن بإله وتتخذ من المنهج العلمى ستاراً لها وطريقاً لتحقيق أهدافها وفيما يلى عرض لهذه النظرية من خلال عدة جوانب:-

تعريف التطور:

(أ) فى اللغة:

لقد خلت المعاجم اللغوية من تناول هذه اللفظة بشىء من التعريف فمصطلح

([1]) داروين: عالم طبيعى ولد عام ١٨٠٩ وتوفى عام ١٨٨٢ وضع نظرية فى تطور الأحياء أدت به إلى نظرية فلسفية فى الطبيعة، وعالج تبعاً لهذه النظرية مسائل نفسية وأخلاقية، وقد درس الطب واللاهوت، وقد اشترك فى رحلة حول الأرض طالت خمس سنوات وجمع خلالها من الملاحظات ما كان أساساً لنظريته. (انظر: تاريخ الفلسفة الحديثة . يوسف كرم صـ ٣٥١ الدروانية أ .حنا نمر صـ ١٥ المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ط١ ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م).

التطور من حيث معناه اللغوى "يعد مصطلحاً جديداً على المعاجم والقواميس العربية؛ فلم يرد فى المعاجم اللغوية إلا لفظ "طور" وورد فى القرآن فى صيغة الجمع أطوار " [1].

غير أنه يمكن أن يكون التطور مأخوذاً من الطور الذى هو كلمة عربية ، فقد ذكرت المعاجم إن الطور بالضم اسم للجبل المعروف الذى أقسم الله به، وبالفتح التارة فنقول: طوراً بعد طور أى تارة بعد تارة، كما جاء بمعنى الحد بين الشيئين[2].

وعلى هذا يكون التطور فى اللغة بمعنى الدروب والأحوال المختلفة كما يقصد به التحول والانتقال من شئ إلى آخر، وقد يطلق ويراد به الظهور التدريجى لشىء من شئ آخر [3].

ب- فى الاصطلاح:

التطور فى الاصطلاح جاء بعدة معان منها:

١- أنه النمو والمقصود به أن ينتقل المبدأ الداخل من حال الكمون إلى حال الظهور حتى يبلغ نهايته كمبدأ الحياة الذى ينمو وينبسط.

٢- هو التبدل الموجه إلى غاية ثابتة على مراحل متعاقبة يمكن تخديدها مستقبلياً.

٣- هو التبدل التدريجى البطىء بتأثير الظروف الخارجية.

٤- هو الانتقال من البسيط إلى المركب، ومن المتجانس إلى غير المتجانس، أو

---

(١) نظرية التطور عند مفكرى الإسلام . دراسة مقارنة د. محفوظ عزام صـ ١١ دار الهداية للطباعة ط٢ ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

(٢) انظر: لسان العرب لابن منظور جـ٨ صـ ٢١٦ - ٢١٧ القاموس المحيط للفيروزآبادى صـ ٥٥٤.

(٣) انظر: نظرية التطور فى ضوء الإسلام صـ٤ رسالة دكتوراه إعداد الباحث د. عبد المعبود مصطفى على سالم . كلية أصول الدين بالقاهرة رقم ١٦٤٧ بدون تاريخ.

من الأكثر تجانساً إلى ما هو أقل منه تجانساً [1] وعلى هذا فالتطور يكون عبارة عن "نمو الكائنات عبر الزمن عن طريق التباين فى البقاء فى كل جيل من أفراد النسل ذات الصفات المعنية" [2].

أنواع التطور.

يتنوع التطور إلى نوعين:

١- التطور العضوى: وابرز من يمثله لا مارك [3] وداروين وهذا التطور مفهوم يقصد به "الاعتقاد بأن جميع الأنواع المختلفة حيوانات ونباتات تكونت من أشكال مختلفة نتيجة تحول تدريجي مستمر" [4].

٢-التطور الكونى : ويسمى أيضاً بالتطور العام، وأبرز من يمثله "هربرت سبنسر" [5].

وخلاصة قوله فى هذا إن الأمور كلها الموجودة على الأرض خاضعة للتطور.

---

(1) انظر: المعجم الفلسفى جميل صلبياً جـ١ صـ ٢٩٤ ط دار الكتاب اللبنانى بيروت ١٩٧٨م.

(2) وراثة وتطور السلوك. لى إرمان ، وبيتزا بارسونز صـ ٤٥٧ ترجمة د. أحمد شوقى حسن، د. رمزى على العدوى ط دار ماكجر وهيل للنشر. الطبعة العربية ١٩٨٣.

(3) لامارك: فيلسوف وعالم فرنسى ولد عام ١٧٤٤ وتوفى عام ١٨٢٩ من القائلين بالتطور العضوى، وكتابة فلسفة الحيوان أكبر شاهد على ذلك وقد أصدره عام ١٩٠٩. (انظر: أصل الأنواع داروين هامش صـ ٤).

(4) الإسلام وفلسفة العلم د. أحمد رمضان صـ ٢٤٩ الدار الإسلامية للطباعة والنشر ط١ ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٠م.

(5) سبنسر فيلسوف إنجليزى ولد عام ١٨٢٠م وتوفى ١٩٠٣م له نظرته فى التطور الكونى، وقد اهتم بالعلوم الطبيعية اهتماماً كبيراً، و له عدة مؤلفات، مبادئ علم النفس، معطيات الأخلاق وغيرهما (انظر: موسوعة إعلام الفلاسفة العرب والأجانب جـ١ صـ ٥٤٥ - ٥٤٦، اصل الأنواع لداروين هامش صـ ١٨ ترجمة إسماعيل مظهر .المطبعة المصرية١٣٣٦هـ - ١٩١٨م، تاريخ الفلسفة الحديثة ٣٥٦ - ٣٥٧).

فهو يقول : "إن سنة ذلك الترقى العضوى، سنة ضروب الترقى الطبيعى كافـــة فإن كل ما فى الكون مثل تكويـــن الأرض، ونمـــاء الحيـــاة فيـــها ، أو ترقـــى الجماعات فى العمران ونشوء الحكومات والصناعات والمتاجر والأدب والعلـــم والفنون جماعها تخضع لهذه السنة الطبيعية فى التغاير التدريجى مـــن الوحـــدة النوعية إلى الاختلاط والتكاثر النوعى، فإن الانتقال من حالة التجانس إلى التنافر كان السبب الوحيد فى حدوث الارتقاء منذ ظهر أول أثر للتغايرات الكونية فـــى الوجود إلى أن بزغ فجر المدنية فى الوقت الحاضر" [1].

الجذور التاريخية لمذهب "داروين":

القول بفكرة التطور ليس حديثاً أو معاصراً بل تمتد جذوره إلى أعماق التـــاريخ البعيد، فلم يبتدع "داروين" هذه النظرية من عنده ؛ بل إن القول بمجىء الكائنات الحية بعضها من بعض عن طريق التطور قديم لدى أصحاب الفلسفات القديمـــة، والدارس لفكر الشرق القديم يستطيع الوقوف على ذلك.

أ- الفكر الشرقى القديم.

تعد الفلسفات الشرقية القديمة من أقدم الفلسفات التى تحدثت عن هذا الموضـــوع، ونستطيع الوقوف على هذه الحقيقة من خلال بعض الأساطير التى قام بوضعـــها "حكماء بابل وأشور، ومصر، فكانوا يقولون: بأن أثر الكواكب واشتراك بعضها مع بعض، كان السبب فى نشوء الأحياء فى الأرض، وأنها لم تنشأ إلا بـــالتدريج درجة على درجة، وأنه بتأثير الكواكب السيارة من عناصر الأرض قد تعـــاقب الأحياء فيها حتى إنهم ليرددون فى خلق الإنسان خرافـــة، مـــن خرافاتـــهم؛ إذ يقولون: بأنه فى بدء التكوين لم يكن إلا كتلة لزجة من المادة لا شكل لـــها ولا صورة، اللهم إلا نفثه من الحياة نفثها الخالق فيها، ومن ثم أثرت الطبيعة فى تلك

---

(1) أصل الأنواع . داروين مقدمة المترجم صـــ ٤٢.

المادة فتقلبت فى أطوار النشؤ بلغت فى حدها الأخير الصورة البشرية"[1].

ب- الفكر اليونانى.

١- انكسمندر

يعد هذا الفيلسوف اليونانى "انكسمندر" [2] من أوائل فلاسفة اليونان الذين تحدثوا فى هذا الموضوع فقد رأى " أن الحياة تولدت فى الرطوبة بعد التبخر أى من طين البحر، وهو مزاج من التراب والماء والهواء، فكانت فى الأصل سمكاً مغطى بقشر شائك، حتى إذا ما بلغ بعضها أشده نزح إلى اليابس، وعاش، ونفض عنه القشر، والإنسان لم يوجد أول ما وجد على ما نراه يوجد...ولكنه منحدر هو أيضاً من حيوانات مائية مختلفة"[3].

٢- إنكاغوارس[4]

أحد فلاسفة اليونان الذين تحدثوا عن التطور بالنسبة للكائنات فهو يرى أن الحياة كانت "جراثيم تسبح فى الجو فساقتها.

---

(١) أصل الأنواع -مقدمة المترجم صـ ١٣.

(٢) انكسمندر -هو ثانى فلاسفة المدرسة الأيونية ، ولد عام ٦١١ ق.م وتوفى عام ٥٤٧ ق.م كان تلميذاً لطاليس، وكان واسع العلم بالجغرافيا، والفلك، وربما كان أول فيلسوف يونانى كتب رسائل فلسفية (انظر: قصة الفلسفة اليونانية-زكى نجيب محمود، أحمد أمين صـ ١٨. مكتبة النهضة المصرية ط١٨).

(٣) تاريخ الفلسفة اليونانية. يوسف كرم صـ ١٥.

(٤) فيلسوف يونانى ولد عام ٥٠٠ ق.م من أسرة شريفة وتوفى عام ٤٢٨ ق.م، وقد انتقل إلى مدينة أثينا عندما بلغ الأربعين من عمره ، وظل بها ثلاثين عاماً يعلم الفلسفة، ثم عاد إلى آسيا الصغرى، وظل بها حتى مات (انظر: تاريخ الفلسفة اليونانية. يوسف كرم ص ٤١).

ثم يعلل رقى الحيوانات على النبات بأن ذلك يرجع لكون الحيوان "طليق غـــير مرتبط بالأرض، ورقى الإنسان على الحيوان بأن له يديـــن، وأن اليـد خـير الآلات"[1].

واللافت للنظر أن ما ذكره كل من انكسمندر، وإنكاغوارس لم تكن سوى وجهـة نظر توصل إليها كل واحد فيها بناء على فلسفته التأملية، فلم يكـن لـدى أى منهما أية دليل على ما يقولان؛ مما يعنى أن ما ذكره لم يكن سوى قـول قـائم على مجرد افتراضات ليس لها أى أساس علمى.

جـ- الفكر الأوربى الحديث[2].

(١) بوفون [3] من أشهر كتاب القرن الثامن عشـر، وأعلاهـم فـى العلـوم الطبيعية، من القائلين بمذهب التطور، وقد ألف كتابه عن التـاريخ الطبيعـى، واتخذ من تصنيف أنواع النبات رأياً يماثله فى تصنيف أنواع الحيوان.

---

(1) تاريخ الفلسفة اليونانية. يوسف كرم صـ ٤٣.

(2) لن يتعرض البحث لفكرة [illegible] عند مفكرى الإسلام؛ حيث إن التطور الذى تحدثـوا عنه لا يتضمن القول بتحول ا[illegible] انشقاق بعضها من بعض كما يقول بـه أصحـاب النشوء والارتقاء، وإنما نظرة مفكرى الإسلام فى التطور يقصد به تدرج الكائنات بعضـها عن بعض. بهدف الكشف عن المشابهات بين الكائنات، واتصال بعضها ببعض هو أساس القول بالتحول.

(انظر : تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق لابن مسكويه. حققه وشرح غريبة ابن الخطيب . صـ ٧٦-٨١. المطبعة المصرية ومكتبتها ط١، الفوز الأصغر. لابن مسـكويه صـ ٨٦-٨٧ طبعة بيروت ١٣١٩هـ ، أراء أهل المدينة الفاضلة للفـارابى صـ ٢١-٢٥ إصدار دار العراق بيروت ١٩٥٥، الإنسان كما يصور القرآن. رسالة دكتـوراه. إعـداد الباحث. د.صلاح عبد العليم صـ ١١١-١٢١).

(3) فيلسوف فرنسى ولد عام ١٧٠٧ وتوفى عام ١٧٨٨. درس العلوم القانونية؛ غير أنـه كان شديد الميل والحب إلى الفلك والرياضيات فاضطر والده إلى النزول إلى رغبته وقـد كتب عدة رسائل (انظر: أصل الأنواع. داروين هامش صـ٣).

وقد أعجب به "داروين" وبفلسفته، حتى إنه نظر إليه على أنه أشهر كتاب القـرن الثامن عشر، وعده أول من كتب فى هذا الموضوع "بأسلوب علمى فى الأعصر الحديثة، غير أن بعض آرائه كثيرة التناقض، ولم يبحث فـــى أســـباب تحـــول الأنواع وكيفياته "[1].

"فيوفون" يعد أول عالم بيولوجى يستبعد نظرية الخلق الخاص، وذلك عندما أشار إلى أن الحيوانات قابلة للتغيير تبعاً للبيئة، وأن التغيرات البسيطة التى تطرأ على الحيوانات تتجمع لتكون تغيرات كبيرة، وأن كل حيوان هو نتيجة لتغيرات حدثت لحيوان سابق أقل منه رقياً وأبسط تركيباً[2].

(٢) ديدرو [3].

من بين الذين مهدوا لنظرية التطور، وظهورها على هذا النحو على يد "داروين" هذا الفيلسوف، فقد رأى "أن المادة حية بذاتها، وأن الأحياء تتطور ابتـــداء مـــن خلية تحدثها المادة بحيث تحدث الأعضاء الحاجات، وتحدث الحاجات الأعضاء "[4].

([1]) أصل الأنواع صــ ٤.

([2]) انظر: الإسلام والاتجاهات العلمية المعاصرة. د يحيى هاشم صــ ٢٣.

([3]) ديدرو. فيلسوف فرنسى مادى النزعة الحادى العقيدة. أنكر الميتافيزيقا بكل ما فيـــها، وقد ولد عام ١٧١٣ وتوفى عام١٧٨٤وله عدة مؤلفات أفكار فلسفية، أفكار فـــى تفســـير الطبيعة، وغيرهما (انظر: الموسوعة الفلسفية المختصرة صـــ ١٣٨ ترجمة فؤاد كـــامل وأخرون. مراجعة د/ زكى نجيب محمود. مطبعة الانجلو المصرية. سلسلة الألف كتـــاب ٤٨٢، تاريخ الفلسفة الحديثة صـــ ١٩٠ – ١٩١).

([4]) تاريخ الفلسفة الحديثة يوسف كرم صـــ ١٩١.

(٣) لامارك

فيلسوف فرنسى قال بالتطور، وقد عرض لمذهبه فى كتابة فلسفة الحيوان وقد انتهى فيه إلى أن للتطور أسبابه التى تكمن فى:

أ-العادة ب-الاستعمال جـ-الضرورة [١]

وقد أعجب به "داروين" إعجاباً شديداً؛ حتى أنه قال عنه بأنه "أول من نبهت نتائج أبحاثه لأفكار هذا الموضوع"[٢].

كل هذه الأبحاث وغيرها كان لها أثر كبير فى تدعيم نظرية التطور بالصورة التى وجدت عليها كما هى عند داروين. فقد جمع هذا الأبحاث، وقام، بدراستها دراسة متأنية، ثم قارن بينها وقام بتنقيحها وتهذيبها، ثم أضاف إليها شيئاً من معلوماته التى جمعها من خلال دراسته، ورحلاته التى طاف فيها بأماكن وبلدان مختلفة ثم كانت فى النهاية النظرية التطورية التى تعرف، بالنظرية الدروانية.

نظرية التطور عند داروين.

لقد كان ما قاله السابقون على داروين "أساساً قوياً اعتمد عليه فى عرضه للنظرية، وكان لهذه الآراء أثر واضحاً عليه، فقد أخذ هذه الأفكار ممن تقدم عليه.

فقد أخذ الناحية البيولوجية من "لامارك" ، كما أخذ من "سبنسر" تحديد قانون التطور، ولهذا نجد د. بدوى يقول: بأن كلمة التطور نفسها لم يكن "داروين" أول من قال بها، بل سبقه إليها هربرت سبنسر "وكان ذلك فى عام ١٨٥٤[٣].

---

(١) انظر الفكر المادى الحديث د. محمود عثمان صـ ١٢١.

(٢) تاريخ الفلسفة الحديثة. يوسف كرم صـ ١٩١.

(٣) انظر: النزعة الإلحادية فى النظريات العلمية "الدروانية" وموقف الإسلام منها . د فرج الله عبد البارى صـ١١.مطابع الشناوى بطنطا ١٤١٢ هـ-١٩٩١م،موسوعة

وتأكيداً على هذه الحقيقة نجد "داروين" يذكر فى مقدمة كتابه أصـــل الأنـــواع ضمن الذين سبقوه إلى نظريته"[1].

وإذا كان داروين قد أخذ آراء السابقين، وتأثر بها إلا أنه استطاع أن يجمع بينها ويؤلف بين شتاتها. ثم قام بتنقيحها؛ ثم أضاف إليها كثير من التعديلات ليخـــرج فى النهاية بهذه النظرية كما سبق وأن أشار البحث.

أسس نظرية أصل الأنواع.

الأسس التى أقام عليها " داروين نظريته" جاءت على النحو التالى:

أ- تنازع البقاء أو التناحر على البقاء. ب-تكون التباينات أو تغير الأفراد.

ج-إمكان انتقال الصفات بالوراثة. ء-الانتخاب الطبيعى، أو بقـــاء الأصلح.

وقد عرض لهذه الأسس ضمن كتابه أصل الأنواع؛ موضحاً أن اجتمـــاع هـــذه الأصول الأربعة،وقيامها بدورها تكون النتيجة عنه تحول الأنواع وتطورها.

وفيما يلى عرض لهذه الأسس بشئ من التفصيل :

أ- تنازع البقاء:

الأصل الأول لهذه النظرية، وفيه يذهب إلى حدوث تنازع بين جميع الكائنـــات فجميعها تعمل للبقاء وتتنازع من أجله. "فجميع أفراد النبات والحيوان ميالة إلـــى التكاثر إلى ما يقل منه الغذاء، وتضيق عنه الأرض، وهذه الكثرة فى النتـــائج تعترضها أسباب كثيرة، منها مزاحمة الأفراد بعضها لبعض من جهـــة، وعـــدم

الفلسفة د. عبد الرحمن، بدوى جـــ١ صـــ٤٧٤. المؤسسة العربيـــة للدراســـات والنشـــر بيروت ط١ ١٩٨٤م.

([1]) تاريخ الفلسفة الحديثة.يوسف كرم صــ ٣٥٦.

موافقة الأعضاء الخارجية من جهة أخرى، وهذا تنازع البقاء "[1] الذى يعمل من أجله جميع الكائنات ليتحقق لها الوجود فهو يقول: "التنازع للبقاء ذلك أن نفس أفراد الأنواع يقع التنافس بين بعضها والبعض الآخر من جهة، وبين الأنواع الحية والعوامل الطبيعية من جهة أخرى"[2].

هذا هو الأصل الأول من أصول نظريته، ومن الواضح أنه أقرب ما يكون على هيئة صراع بين أفراد النوع يترتب عليه فناء عدد كبير منه فالمسألة أشبه ما تكون بمسألة حياة أو موت، يكون البقاء فيها للأقوى، فالفائز يبقى، والمهزوم يفنى فلم يستطع أن يتكيف مع البيئة، أو يتلاءم مع ظروف الحياة.

ب-تكون التباينات:

وهذا هو الأصل الثانى، من أصول النظرية، وفيه يرى أن هذه التباينات قائمة على أن الأجسام الحية تميل إلى التغير إلى أشكال مختلفة يقول بخنز: "إن تكون التباينات مبنى على القاعدة المتحصلة بالاختيار، والتى وضعها "داروين" وهى أن الأجسام الحية ميالة إلى التغير على أوجه مختلفة، وإلى أى حد محدود؛ أى أنها لتنحرف عن الأصل الصادرة عنه ببعض صفات خصوصية قد تكون إما أن تكون فى السحنة، أو اللون، أو الكساء أو القد أو القوة أو تكوين بعض الأعضاء، فلا تشبه الأبناء الآباء شبهاً تاماً مطلقاً، ولا يجتمع اثنان مع كثرة الأجسام العضوية على شبه واحد "[3].

([1]) نقد فلسفة داروين . للشيخ محمد رضا الأصفهانى جـ١ صـ ١٢٢.مطبعة الولاية العامرة ١٣٣١هـ.وانظر فلسفة النشوء والارتقاء د. شبل شميل جـ١ صـ ٨١ ضمن مجموعة د/ شميل مطبعة المقتطف بمصر ١٩١٠.

([2]) فصل المقال فى فلسفة النشوء والارتقاء. أرنست هيكل صـ ٣٠.

([3]) شرح بخنز على مذهب داروين ترجمة. د شبل شميل جـ١ صـ ٨٢ .

وعلى هذا يمكن القول : بأن الحى يعقب حياً شبيهاً له فـــى بعــض الصفـــات الجوهرية وليس مشابهاً له مشابهة تامة فى كل الصفات فذلك أمر متعذر يصعب حصوله.

جـ- إمكان انتقال الصفات بالوراثة:

هذا هو الأصل الثالث من أصوله التى أقام عليها نظريته، وقد اهتم به لأنه رأى أن أى تغير فى الأحياء لا قيمة له إذا لم يكن عن طريق الوراثة فــهو يقــول : "وأن الكائنات مسوقة بفطرتها إلى الانحراف عن صفات أصولها الأولية وهنـــا على وهن، على أن كل التغايرات غير المتوارثة ليست بذات شأن فيمـــا نحــن بصدده"[1].

فالوراثة تشغل مكاناً مهماً فى مذهب انتقال الأنواع، فعن طريقها يتـــم انتقــال الصفات من الأصل للفرع. حسية كانت أو معنوية، فطرية كـــانت أو مكتســبة وهذا ما أكده داروين " فهو يقول :

"واعلم أن الوراثة تنقل الأمراض كما تنقل عيوب التكوين مثـــل زيـــادة عــدد الأصابع، والأظفار ومثل الجهر وتشقق الجلـــد، ولاديـــة كـــانت أو عارضـــة، كالعيوب الحاصلة من آفات طارئة، وكما أنها تنقل الصفـــات الجســدية تنقــل الصفات الأدبية، وذلك مثل الشهوات والأميال والعوائد والأخلاق والعقل وغــير ذلك ومن عجيب أمرها أنها كثيراً ما تقطع الأجيال كامنة وتظهر فى الأولاد بعد ذلك"[2].

د-الانتخاب الطبيعى:

هذا هو الأصل الأخير الذى بنى عليه "داروين" نظريته فى التطور كمـــا أنــه النتيجة التى توصل إليها من خلال ملاحظاته للكائنات الحية، ومفاد هذا الأصــل

---

(1) أصل الأنواع .داروين صـــ ٥٠.

(2) شرح بخنز على مذهب داروين جـ١ صـــ ٩٠.

هو "أن التناحر للبقاء نتيجة راهنة لما فى طبيعة العضويات من قابلية الازديـــاد والتكاثر العددى بنسبة كبيرة، وكل كائن فى الوجود إن أنتج من حياته عـــدداً أو فر من البيض أو الحب فلابد من أن ينتابه الفناء فى بعض أدوار حياته أو فـــى غضون بعض الفصول أو السنين اتفاقاً، وإلا فإن عدد أفراده يتكاثر بســـرعة لا يتصورها الوهم، حتى لقد تقصر أى بقعة من البقاع دون أن تعضـــد نتائجـــه، خضوعاً لقاعدة الازدياد الرياضية، وسنن الحياة تقضى بأن يربو عدد الأفـــراد الناتجة على العاجز منها على البقاء؛ لذلك يتعين أن تجرى على الكائنات ســـنة التناحر للحياة أفراد النوع بعضها إزاء بعض، وأفراد الأنواع الخاصة، وحـلات الطبيعة التى تحوط بالأفراد، شرع فى حكم هذه السنة؛ إذ لا يتسنى فى مثل تلك الحال أن تزيد كمية مواد الغذاء بطرق عملية، وليس ثمة قيد ناتج عـــن بـــاعث اضطرارى يمنع التزاوج، فإذا أمعن بعض الأنواع فى النماء والـــتزايد بنســـبة كبيرة أو قليلة فإن كل الأنواع لا يتيسر أن تمضى خاضعة للنية ذاتها وإلا ضاق عليها العالم بما وسع قضاؤه تلك هى القاعدة التى عزاها "ملتاس" [1] إلى عالمى الحيوان والنبات، وثبتها عليهما تثبيتاً"[2].

وهكذا يهتم داروين بهذا الأصل ويركز عليه، فهو المكمل للأصـــول الســـابقة وبدونه لا تتم عملية التطور، أما إذا اجتمعت هذه الأصول الأربعة، وفعلت معـــاً

---

(1) ملتاس اقتصادى إنجليزى معروف ولد عام ١٧٦٦، وتوفى عام ١٨٣٤. يذهب فـــى كتابه إلى أن السكان حتى لا يعوق تكاثرهم عائق يتضاعف عددهم فى كل ربع قرن فيزيد بنسبة هندسية، فى حين أن أسباب المعيشة لا تزيد إلا بنسبة حسابية. [انظر: تاريخ الفلسفة الحديثة يوسف كرم هامش صـــ٣٥٢].

(2) أصل الأنواع داروين صـــ ١٣٩، وانظر: فصل المقال: أرنست هيكل صـــ ٣٨ من مقدمة المترجم.

فلا شك فى النتيجة،وهى استمرار تحويل الكائنات الحية فى الطبيعة وتطورهـا، وتغايرها.

فالانتخاب الطبيعى يلعب دوراً مهماً ودقيقاً فى تكيف الفرد للبيئة، وتكيف أفراد الأنواع المختلفة بعضها للبعض الآخر[1].

وقصارى القول فى هذا أن الانتخاب الطبيعى عند أصحاب هذه النظرية يعنـى. أن الطبيعة هى التى اختارت كائنات معينة تعيش وتتناسل وتتكاثر وهذه الكائنات بعضها يستطيع البقاء من خلال تفاعله وتكيفه مع البيئة التى يعيش فيـها، أمـا الكائنات الأخرى التى لا تستطيع ذلك فيكون مصيرها إلى الفناء، فهى لم تتوافق مع البيئة، فضلاً عن ذلك فالتنافس الذى وقع بينها، وبين غيرها مـن الكائنـات الحية الأخرى أوضح عدم قدرتها على البقاء ومعلوم أن البقاء يكون للأصلح.

أصل الإنسان.

عندما نشر "داروين" كتابه أصل الإنسان ترك مسألة أصل الإنسان معلقـة فلـم يشر بأكثر من أن هذا المذهب قد يحتمل أن يفيض بشىء من نور الحقيقة علـى أصل الإنسان وتاريخه [2].

ثم بعد فترة عاد فرأى أن الإنسان يخضع لقانون التطور شأنه فى ذلك شأن بقية الكائنات الأخرى فقد صرح بذلك فى كتابه "تسلسل الإنسان" لأنه رأى أن الفـوق بينه وبين الحيوان فرق بالكم أو بالدرجة فقط، وأن المسألة بين القوى الفكريـة

---

(1) انظر: أصل الإنسان. د. محمد السيد غلاب صـ ٣١. الهيئة المصرية العامة للكتـاب ١٩٧١م.

(2) انظر: ملقى السبيل فى مذهب النشوء والارتقاء . إسـماعيل مظـهر صـ ٢٨٥. المطبعة العصرية بالفجالة ١٩٢٤.

لحيوان من أدنى الفقريات، والقوى الفكرية لقرد من القردة العليا يكون أكبر من المسافة بين القوى الفكرية فى القرد وبينها فى الإنسان [١] .

وهذا ما أكده شارح المذهب بقوله وهكذا تفعل الطبيعة أيضاً فإنها تجمع التغيرات النافعة للفرد وتنقلها من جيل إلى جيل، والفرق الوحيد بين عمل الإنسان وعمل الطبيعة -أن عمل الإنسان عن علم أما الطبيعة فيلزم لنجاحها زمان أطول[٢].

ويؤكد هذا أيضاً هكسلى بقوله: "إن ما انقرض من الحيوانات والنباتات وفيما وجد من الحفريات لدليل لا ينكر على تسلسل الإنسان من سلسلة طويلة، تجمع بين طرفيها المنحط والراقى من ذوات القفاز،وليس ثمة دليل على ذلك إلا التطور "[٣].

"فداروين" يرى أن الإنسان خاضع لسنة التطور تماماً كبقية الكائنات الأخرى، إلا أنه إنصاف للحق ينبغى القول : بأنه لم يكن أول من قال بتطور الإنسان من الحيوان فقد سبق بذلك.

يقول صاحب فلسفة النشوء والارتقاء:

"إن أول واضع لهذه النظرية- نظرية تسلسل الإنسان- من القرد، وأول مبرهن على صحتها بالبرهنة العملية هو العلامة الكبير عالم مشهور فى علم الحياة "يوحنا لامارك"، ولقد تابع البحث فى كتابه فلسفة الحيوان الذى ظهر عام ١٨٠٩م فى تطور الإنسان، وقرب الشبه بينه وبين القردة فى ذلك التطور، وما كان يراه فى تلك الحالات من إحكام الشبه سيما بين الإنسان والراقى من القودة

---

(١) انظر: تاريخ الفلسفة الحديثة . يوسف كرم صـ ٣٥٣.

(٢) انظر: شرح بخنز على مذهب داروين جـ١ صـ ٩٥.

(٣) فصل المقال فى فلسفة النشوء والارتقاء صـ ٥١.

مثل الشامبانزى"(١).

وواقع الأمر أن ما قال به لامارك "هو ما أخذ به توماس هكسلى وغـيره"(٢) و مع تأثر "داروين" بهذه المقولة إلا أنه لم يقل بتسلسل الإنسان عن القرد وإنما قال بتطور الإنسان من الحيوان، وحول هذا المعنى يقول بعـض البـاحثين: "هـذا المذهب مؤداة أن أصل الأنواع النباتية، والحيوانية التى تعض بها هـذه الأرض جرثومة واحدة، أو جراثيم قليلة تطورت من حال إلى حال تحت تأثير فواعـل مختلفة طبيعية محضة، حتى وصلت إلى ما نراه من التنوعات علـى رأسـها الإنسان، فهو لا يقول: أن أصل الإنسان القرد الموجود الآن، ولكن حيوان بيـن القرد والإنسان، لم يعثر على هيكله فى الأحافير للآن، أما القرد فإن "داروين" يعتبر نهاية ترق لفرع من أفرع الشجرة الحيوانية"(٣).

هذا وقد أقام داروين نظريته حول أصل الإنسان على عدة أسس من أهمها مـا يلى:

١ -علم التشريح.

لهذا العلم مكانة كبرى عند دعاة هذه النظرية، فقد جعلوا منه دليلاً على تطـور الإنسان، فقد ثبت من خلال التشريح وجود تشابه بين أجزاء الـهيكل العظمـى للإنسان عند مقارنتها بما يماثلها من الحيوانات، فمن خلال عملية مقارنة بيـن الأعضاء وجد أن "الساق والذراع فى الحيوانات الفقرية متشابهتان فى الشـكل؛ لأن كلتيهما مطبوعتان على غرار واحد"(٤).

---

(١) نفس المصدر صـ ٣٤-٣٥.

(٢) انظر: فصل المقال فى فلسفة النشوء صـ ٣٥.

(٣) على أطلال المذهب المادى . محمد فريد وجدى جـ١ صـ ٧٥.

(٤) الإسلام وفلسفة العلم.د. أحمد رمضان صـ ٢٥٧.

فهذا التشابه الموجود بين الإنسان والحيوان يجعل منه التطوريون دليلاً علـــى تطور الإنسان من أصل حيوانى،ودليل ذلك.

"إذا نظرت فى فصيلة القرد تخيل إليك أنك تنظر إلى صورة مشوهة للإنســان، فوجوهها وأيديها وحركاتها وما تعبر عنه تغيرات وجهها وكافة أعمالها تشــبه ما يأتى به الإنسان مشابهة ما"[1].

٢- علم الأجنة .

لقد جعل التطوريون من تشابه الأطوار الجنينية للحيوانات فى أطــوار حياتــها المبكرة دليلاً على تطور الإنسان من أصل حيوانى.

يقول هكسلى: "إن السبيل التى تتبعها أجنة الإنسان فى أول مدارج تطوره الأول، ونشأته لا تختلف مطلق الاختلاف عن السبيل التى تخضع لها بقية الحيوانـــات التى تقع فى الطبقة التى تليه فى سلسلة التتابع الارتقائى فى عـــالم الحيــوان... وإن كان هذا لا يمنع من التفرقة بين البويضتين...كذلك تجد فى مدارج التطور الجنينى فى الإنسان، إن عظم العصعص قدخرج باستطالته وامتداده عن القياس، حتى ليظهر كأنه ذنب يذهب إلى مدى أبعد بكثير عن امتداد الرجلين فى الحالــة الجنينية، واللفائف المخية فى الإنسان تشابه حتى الشهر التاسع من أشهر الحمــل اللفائف المخية فى البابون وهو نوع من القرود العليا" [2].

٣- علم الحفريات [3].

تعد أدلة هذا العلم من أهم الأدلة التى يرتكز عليها دعاة التطور، وحجة أقـــوى من أقوى الحجج المؤيدة لوجهة نظرهم وذلك لكون"بقايا الحفريات تشكل سلســلة

---

(١) ملقى السبيل أ . إسماعيل مظهر صـــ ٢٩٣.

(٢) ملقى السبيل . أ /إسماعيل مظهر صـــ ٢٩٣.

(٣) الحفريات هو العلم الذى يبحث فى صور الأحياء التى غمرت الأرض مــــن خــلال العصور الأولى وكل ما يتعلق بها (انظر: ملقى السبيل صـــ ٢١٤).

كاملة من الأشكال التى عاشت فى الأزمنة السابقة من أدناها إلى أرقاها مما يدل على وجود نمو تدريجى للكائنات"[1].

وإذا كان كثير من الحفريات قد يعتريها التغيير "فإن كثيراً منها قد يبقى حافظـــاً لتكوينه العضوى،وتركيبه الكيماوى، وفقاً للظـــروف والحـــالات التـــى تحيـــط بها....، وإن عدداً عظيماً من الحيوانات والنباتات التى يعـــثر علـــى بقاياهـــا المتحجرة فى طبقات الأرض الثالثة، أى تكونات العصر الثالث، قد تكـــون ذات صلة نسبية بأنواع لا تزال الأرض فى العصر الحاضر"[2].

"إن بقايا الحيونات والنباتات التى يعثر عليها مستحجرة في طبقـــات الأرض وإن كانت على درجة كبيرة من التهوش والنقص، ولم تحتفظ بها الطبيعة كاملة، بـــل غيرت كثيراً من معالمها الظاهرة. فإنها مع ذلك تؤهل بالباحثين إلـــى معرفـــة أوصافها،وعلاقتها بالصور التى انقرضت، أو الصور التى لا تزال باقية إلـــى الآن تعمر بقعة من بقاع الأرض فى هذا العصر"[3].

(٤) علم التقسيم.

لقد جعل التطوريون من أدلة علم التقسيم أساساً يرتكزون عليـــه فـــى قولـــهم بتسلسل الإنسان عن الحيوان حيث إن " تصنيف الحيوانات أقســـام . الأنـــواع والأجناس والعائلات، والفصائل والرتب والشعب يشبه إلى حـــد كبـــير فـــروع شجرة العائلة، فترتيب هذه الأقسام يوحى بأنها نشأت بواسطة التحور كل مـــن المرتبة التى سبقته، وبالرغم من أن هذا التصنيف من صنع العلماء، فإن شجرته

---

(1) الإسلام وفلسفة العلم د.أحمد رمضان صـــ ٢٦١.

(2) ملقى السبيل . إسماعيل مظهر صـــ ٢١٤-٢١٥.

(3) ملقى السبيل . صـــ ٢١٦-٢١٧.

توحى لدى التطوريين بأن الكائنات قد انبعث هـذا مـن الطريـق فـى أثنـاء نشوئها"[1].

هذه هى الأدلة التى استند إليها "داروين" ومن على شاكلته لبيان تطور الإنسـان وتسلسله من أصل حيوان.

وبالطبع لم تكن هذه كل ما اعتمد عليه "داروين" وغيره بل كانت هناك حجـج أخرى مثل دليل الأعضاء المختلفة [2]، وأدلة علـم الكيميـاء [3]،وأدلـة علـم الوراثة[4] ولكن هذه الأدلة ليست من الأهمية مثلما سبق عرضه، وغنما ينظـر إليها على أنها فرعية. فلا داعى للحديث عنها.

نقد النظرية الدروانية.

نظرية "داروين" شغلت الفكر الإنسانى، وكان لها تأثيرها البالغ عليه فى منـاحى مختلفة وقد وجه إليها انتقادات متعددة، من جوانب شتى. كان بعضها يوجه إليها بصفة عامة ، والبعض الآخر كان موجهاً إلى أصولها التى قامت عليها، لإثبات انحدار الإنسان من حيوان أدنى.

(١) النقد العام.

أ- أنها مجرد فرض:

من أولى النقود التى وجهت إليها أنها نظرية قائمة على الافتراض والتخميـن، يقول الشيخ "مصطفى صبرى" وسواء أكان مذهب "داروين" هـذا أم ذاك فـلا

---

(1) الإسلام والاتجاهات المعاصرة . د.يحيى هاشم صـ٣٠.

(2) انظر: الإنسان فى القرآن الكريم-رسالة دكتوراه إعداد الباحث د. صلاح عبد العليـم صـ ١٣٣.

(3) انظر: التطور الحضارى للإنسان-برونوفسكى. ترجمة د. أحمد مستجير صـ ١٨٧ - ١٨٨ الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(4) انظر: الفكر المادى الحديث د. محمود عثمان صـ ١٢٧-١٢٨.

يصح كونه مذهباً عملياً مبنياً على التجربة الحسية، وإنمـــا هـــو مبنـــى علـــى الافتراض والتخمين؛ لأن تولد الأنواع بعضها من بعض لا يكون فى متنـــــاول الحس والمعاينة"[1].

والذى يساعد على تأكيد هذا كتاب أصل الأنواع الذى عـــرض فيـــه صاحبـــه لنظريته، فالقارئ لهذا الكتاب يعده مذهباً عملياً، والواقع خلاف ذلـــك فالنـــاظر يرى بعد ذلك فى ثناياه اعترافات كثيرة من الأحيان، وقارئ الكتاب يســتطيع أن يخرج منه بأن "داروين" لا يستطيع أن يدعى لمذهبه بأنه أكثر من فرض"[2] .

وهكذا يتضح أن هذه النظرية، لا تقوم على أى أساس علمى، على الرغـــم مـــا يزعمه دعاتها. من كونها نظرية علمية قائمة على الحس والمشاهدة وإنما هـــى نظرية فرضية، قائمة على مجموعة من الافتراضات.

(ب) كونها نظرية مجردة:

من بين الانتقادات التى وجهت إليها، كونها نظرية مجردة، فلم تصل بعد إلـــى مرتبة الحقيقة العلمية، ودليل ذلك أنه يوجد بها "ثغرات فـــى السلســـة النظريـــة المزعومة ،ولا سيما بين الإنسان والحيوان من جهة، وبين المركبات الكيميائية، والكائنات العضوية من جهة أخرى، كذلك فإن الأدلة المباشرة أى الأمثلة التـــى يمكن أن نلاحظها لحدوث تعديل فعلى قليلة جداً، ومن هنا فالنظرية تبقى بأسرها بلا إثبات"[3].

(جـ) أنها نظرية خرافية:

من الأوصاف التى قيلت عنها "بأنها لا تقل عن أى قصة خرافية، حافلة بأغرب المخلوقات... بل يبدو أن النشوئى هاو للقصص الخرافية، التى تتغلـــب عليـــها

---

(1) موقف العقل والعلم الشيخ مصطفى صبرى جـ٣ صـ ٢٨٣.
(2) الفكر المادى الحديث.د.محمود عثمان صـ ١٥٨.
(3) نظرية التطور عند مفكرى الإسلام د. على محفوظ صـ ٢٢٧.

صفة التحولات الفورية التى تحدثها عصا الساحر فى القصص الخرافية...، وأحياناً توصف هذه النظرية بأنها إيمان أعمى ممتزج بالسذاجة والخرافة"[1].

(د) قيامها على المصادفة:

فهذه النظرية تتخذ من المصادفة قانوناً تعتمد عليه،ولا تجعل مجالاً للغاية والقصد من الخلق، فلقد وجدت هذه الحياة.هكذا مصادفة دون تدخل قوة عاقلة، وهذا يتصادم مع المنقول والمعقول ومعطيات العالم الحديث وقد سبق بيان فساد هذا القول[2].

وقصارى القول فى هذا أنها نظرية تريد أن تقدم لنا عالماً وجد عن طريق المصادفة، وعالم وجد بهذه النتيجة- يكون عالم بلا هدف له ولا غاية.

(هـ) كونها تيار إلحادى:

النظرية التطورية قائمة على مجموعة من الافتراضات لاشك فى ذلك إلا أنها مع هذا تعد جزءاً من الدعاية المادية الإلحادية، يتلخص هدفه فى القضاء على الأديان، من خلال الهجوم عليها لذلك الأولى أن يكون النظر إلى هذه النظرية على أنها "جزء من الدعاية المادية وليس كنظرية مستقلة، والحقيقة أن نظرة واحدة إلى كيفية انتشارها تكفى للبيان بأن الموضوع ليس موضوع علم؛ بل موضوع عقيدة، وأيدلوجية معينة؛ ذلك لأن نظرية التطور تتبع فى انتشارها طرق الدعاية وأساليبها، وليس الطرق العلمية"[3].

(و) تصادمها مع قوانين الفكر:

([1]) على أطلال المذهب المادى جـ١ صـ ٩١.

([2]) انظر ٨٦-٩٦من البحث.

([3]) دارون ونظرية التطور . شمس الدين أق بلوت صـ ١٠٠ ترجمة عن التركية . محمد أورخان محمد على. دار الصحوة للنشر.

فقد ذكر بعض العلماء أن هذه النظرية تتعارض مع قانون الذاتية الذى هو أحـــد قوانين الفكر الأساسية.

"والذى يحدد لكل موجود ذاتيته و حقيقته الخاصة، التى لا تنفك عنه، فالنبات هو النبات، والحيوان هو الحيوان، والإنسان هو الإنسان، ومن هنا استحال أن تتغير حقائق الأشياء؛ فمن غير المعقول أن يكون هذا الإنســـان فـــى وقـــت مـــا لا إنسان"[1].

فهذه النظرية بناءً على هذا نظرية خرافية باطلة ويكفى بتعارضـــها مـــع أحـــد قوانين الفكر الأساسية دليلاً.

(ز) مخالفتها للمنهج العلمى:

فهذه النظرية التى يتمسك بها الملحدون، ويجعلون منها دليلاً قوياً على صـــدق مدعاهم فى قصة الخلق، تخالف المنهج العلمى الذى يدعونه، فلقد اتخـــذوا مـــن المشاهدة والتجربة منهجاً لهم ، وهذه النظرية خلاف ما يزعمونه. يقول بعـــض الباحثين : "هذه النظرية التى أجمع العلماء على صحتها. هل لاحظـــها أحـــد أو جربها فى معمله؟والجواب : لا. فذلك ضرب من المستحيل إن مزعومة الارتقاء معقدة، وهى تتعلق بماض بعيد جداً حتى أنه لا سؤال عن تجربتها، و ملاحظاتها وهى ما أكده (لك) فى كلمته السابقة من أنها وسيلة منطقية لتفسير مظاهر الخلق وليست بملاحظة واقعية"[2].

(ح) أن هذه النظرية مبتورة من أصلها:

فلم توضح لنا كيفية خروج الحياة من الجماد، وإذا كان قد حدث فـــى المـــاضى فلماذا لا يحدث الآن مرة أخرى؟ ونرى خروج الحياة من الجمادات، إن المشكلة

(1) العقيدة فى ضوء العلم الحديث د. سعد الدين صالح جـــ١ صـــ ١٠٦-١٠٧.

(2) الإسلام يتحدى وحيد خان صـــ ٤٩.

من الصعوبة بمكان، ولذا نجدهم يهربون من هذه الحلقة الأساسية إلـــى الحلقـــة الثانية فيدعون بأنه قد ظهرت منذ زمن بعيد كائنات عضوية غاية فى البســـاطة من مواد غير حية بعملية تركيب طبيعية (١).

هذه هى أهم الانتقادات العامة التى وجهت لهذه النظرية، والتـــى يتضـــح مـــن خلالها فسادها، وتهافتها، وفى نفس الوقت تكشف بجلاء عـــن الأخطـــار التـــى تحدثها هذه النظرية على الأفراد والمجتمعات، من قضاء على القيم والأخـــلاق، فضلاً عن محاربتها للأديان، والعمل على هدم العقيدة الدينية.

(٢) نقد أسس نظرية التطور:

أ- تنازع البقاء:

يرتكز دعاة التطورية إلى هذا الأساس، ويجعلون منه دعامة قوية تدعم مدعاهم. إلا أنه لم يسلم من النقد.

يقول الشيخ حسين الجسر (٢) "وكذلك تنازع البقاء لا مانع من حصوله، وأنه ينتج عنه أن بعض الأنواع تبقى، وبعضها يهلك، والمرجع فى ذلك إلـــى الله تعـــالى

---

(١) انظر: مشكلات تحير العلم -سرجون آرثر طوسون صـــ ٩-١١ ترجمـــة زكريـــا فهمي-مراجعة د أنور عبد العليم نشر مكتبة الأنجلو المصرية سلسلة الألف كتاب العقيـــدة فى ضوء العلم. د/ سعد صالح جـ١ صـ ١١٢-١١٣.

(٢) هو الشيخ حسين بن محمد بن مصطفى الجسر ولد عام ١٢٦١هـ، وكان ذلـــك فـــى قرية الحدادين بمدينة طرابلس الشام وقد توفى عام ١٨٤٥. [انظر: الأعلام خـــير الديـــن الزركلى جـ٢ صـ ٢٥٨ دار العلم للملايين- بيروت. لبنان ط٦ نوفمبر ١٩٨٤ ،معجـــم المؤلفين عمر كحالة-تراجم مصنفى الكبت العربية م٢ جـ٤ صـ ٥٨ دار إحياء الـــتراث العربى بيروت الناشر- مكتبة المتنبى، المنجد فى اللغة والأعلام صـ ٢١٤ دار المشـ بيروت ط٢٥].

ونحن إلى الآن لم نزل نشاهد هذا الناموس بين الخلـــق حتـــى فـــى أصنـــاف البشر"[1].

ومعنى هذا أن تنازع البقاء ليس حجة لهم.

يقول بعض الباحثين "إن تنازع البقاء ليس صحيحاً على إطلاقه لوجود الموانـــع الطبيعية التى تهلك ما صادفت، وموانع من الإنسان أيضاً حيث يهلك الكثير مـن الحيوان، والنبات، ليستعملها فى حاجته ومعيشته، كما أن الفائز فى ميدان تنازع البقاء ليس لمن تميز بصفات جسدية أو عقلّية؛ لأن هذا التميز قد يكـــون ســـبباً للفوز، كما يكون سبباً للهلاك، فالعقل قد يؤدى بصاحبه إلى المـــوت، كمـــا أن الضعيف قد يتجنب مواطن الهلكة ويعتصم بقوة خارجية"[2].

وقصارى القول: إن هذا الأساس لا يصح جعله قانوناً يعتمدون عليه، فليس لـــه أى سند علمى، ودليل ذلك أن كثيراً من العلماء لم يعد يســـلم بـــأن الانتخـــاب الطبيعى هو نتيجة للصراع من أجل البقاء، فقد أثبتت التجربة خطـــأ "داروين" وأتباعه وتبين "أن زوال بعض الأفراد داخل النوع لا يحدث بسبب الاصطفاء إلا بقدر ضئيل جداً ، بل يبدو أن هذا الزوال يحدث بالمصادفة؛ إذ ليس فى عمـــل الطبيعة فى هذا المضمار من الاختيار أكثر مما فى كارثة اصطدام قطـارين، أو ثورة بركان، أو هبوب إعصار، ومن جهة أخرى فإن مـــوت بعـض الأفـراد الضعفاء لا يسير بالنوع دائماً نحو حالة أفضل بل لا يظهر أثر ذلـــك إلا فـــى الإبقاء على وضع فيزيولوجى متوسط. فليس فى الاصطفاء رقى كما ظن ذلـــك "داروين" [3].

---

(1) الرسالة الحميدية. الشيخ حسين الجسر صــ ٢٥٢.

(2) الإسلام وفلسفة العلم. د. أحمد رمضان صــ ٤٤٨.

(3) خلاصة الميتافيزيقا د. محمود يعقوبـــى جـــ٢ صـــ ١٨٦دار الكتـــاب الحديـث ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.

(ب) نقد تكون التباينات أو تغير الأفراد:

هذا هو الأصل الثانى الذى أقيمت عليه هذه النظرية، وقد لاقى هو الآخر نقـــداً عنيفاً.

و خلاصته أن التمايز بين الكائنات لازمة حتمية لتحقيق الحياة. فمن المعلـوم أن الله تعالى جعل هذا التباين فى المخلوقات، حتى تتمايز إذ لو كان الجميع علـــى هيئة واحدة لنتج عن ذلك اختلال نظام العالم وربما كان فى ذلك نهايته "فلـــولا هذا الناموس لكان الرجل لا يعلم ابنه، ولا زوجه، ولاهما يعلمانه وفى ذلك مـــن فساد المعاملات وضياع الحقوق ما لا يخفى، وليس هذا الناموس خاصـــاً فـــى النبات والحيوان، ولا فى الفروع مع الأصول فحسب بل هـــو عـــام فـــى كـل الموجودات فلا يرى شيئاً يشابه آخر تمام المشابهة، ولو حصل كامل التحـــرى من الصانع للأسباب المفضية إلى تماما المشابهة؛ بل لابد من تباين هناك، ولـــو كان خفياً جداً إلا أنه يظهر عند تدقيق النظر"[1].

(ج) نقد الوراثة:

لقد جاءت الأبحاث العلمية لتكون حجة على النظرية التطورية فانتقال الصفـــات الوراثية من الأصل إلى الفرع عن طريق "الجينـــات" تتعـــارض مـــع نظريـــة "داروين" فالقول:بأن وراثة الصفات المكتسبة عامل أساسى من عوامل التطـــور يكذبه الواقع المشاهد، ومن الواضح أنهم لم يكونوا على دراية بأى شـــئ عـــن وحدات الوراثة، فنظرية الوراثة التى يعتمد عليها التطوريون ليست قانوناً بـــها لناموس التطور، كما أنها ليست سنداً، ولا تحليلاً له لأنها تقوم علـــى مشـــاهدة الملاحظات الخارجية، والنظريات القوية لا يصح أن تستند إلى مثل هذه الأمور؛ بل يجب أن تستند على أساس علمى متين، لا يعتريه شك، ولا يوجه إليه نقد.

---

(1) الرسالة الحميدية صـــ ٢٥٢-٢٥٣.

يقول بعض الباحثين : "إن الجينات جزء من خلال خلايا الوراثة غير أن خلايا الوراثة لا تشترك فى التكوين العام للجسم، ولكنها منعزلة، ولا تسهم فى أى وجه من وجوه النشاط الأقل أهمية التى تقوم بها الكائنات الحية، أن هذه الخلايا تحفظ الشبه الكامل للنوع"[1].

ومعنى هذا أن وجود التشابه بين الإنسان وبعض أنواع القرود لا يدل على انحدار من أصل حيوانى.

"فالإنسان حيوان من رتبة الطليعة، وتكوينه يشبه فصائل السيمبا، ولكن هذا الشبه الهيكلى ليس بالضرورة برهاناً على أننا من نسل أسلاف سيميائية من القرود، أو أن تلك القرود هى ذرية منحطة للإنسان"[2].

ومما يؤكد على أن هذا الأساس أعنى قانون الوراثة هو حجة عليهم ما نشاهده فى البلاد الشرقية، من انتشار عادة الختان فيها فلم يولد واحد منهم مختوناً إلا إعجازاً[3].

والخلاصة أن العوامل المكتسبة ليست صفات وراثية، ولم يثبت أن الصفات المكتسبة تنقل بالوراثة، فالعادات المكتسبة فردية. توجد بوجود صاحبها، وتتقدم بانعدامه أما الزعم بأنها تورث فهذا على خلاف ما تقول به الأبحاث العلمية.

(د) نقد الانتخاب الطبيعى:

الانتخاب الطبيعى هو"عملية فرز التغيرات والتحولات الحادثة فى الأحياء، والمحافظة على التحولات المفيدة دون الضارة"[4].

---

(1) العلم يدعو للإيمان. ترجمة محمود الفلكى صـ ١٤٨.

(2) نفس المصدر صـ ١٤٦.

(3) انظر: الرد على الدهريين. جمال الأفغانى صـ ٤٤-٤٥.

(4) داروين ونظرية التطور.شمس الدين أق بلوت صـ ٧٦.

وقد ارتكز عليه داروين وأتباعه جاعلين منه حجة لهم، والواقع خلاف ذلك. فقد زعمت هذه النظرية أن انقسام الكائنات الحية إلى هذه الأقسام ينتج عن طريق عملية الانتخاب الطبيعى وهو قول باطل، بل أنه أقرب أن يكون " ادعاء يصلح لنسف النظرية وليس لإثباتها. أليس من حقنا أن نسأل كيف يتسنى لهذا المفهوم الخالى من الحياة والشعور، والذى يطلق عليه الانتخاب أن يبقى على الصالح من الإحياء، ويزيل الطالح فيكون هو صاحب الكلمة النافذة على أقدار الأحياء ليس فى الإمكان إيجاد أى مرتكز صحيح لمثل هذا الإدعاء"[1].

فما يقول به دعاة التطورية ليس صحيحاً على الإطلاق. "ولنفرض المستحيل..... لنفرض أن الطفرات تعمل بالشكل الذى يقول به التطوريون فإن معنى هذا أنه لا يسعنا إلا إعطاء أجازة قسرية للانتخاب الطبيعى لمئات الملايين من السنين لكى تتحقق نظرية التطور، ولكن بالرغم من كل المحاولات فإنه لم يعثر بعد على أى حل أو إمكانية لإعطاء الانتخاب الطبيعى مثل هذه العطلة أو الأجازة، أى أن مفهوم الانتخاب الطبيعى الذى اعتبر الأساس لنظرية التطور أصبح مفهوماً قاتلاً لنفس النظرية"[2] .

وبالجملة فالقول بالانتخاب الطبيعى باطل ويكفى تدليلاً على ذلك لواقع المشاهد. فبنظرة سريعة نجد أن الكون كله يمتلئ بالصالح والطالح من مختلف الكائنات. فالانتخاب لا يصلح أن يكون تعليلاً لنشوء الأنواع فهو أقرب أن يكون فرضاً ليس له ما يدعمه. فكل الأبحاث العلمية تقف ضد هذه النظرية.

فعملية الانتخاب الطبيعى " لا تؤثر إلا داخل النوع الواحد، وأنه لا يفعل فعله فى اتجاه معين بل العكس من ذلك. أنه يعمل بالمصادفة؛ فى حين أن الشواهد

([1]) نفس المصدر صـ ١٨.

([2]) المصدر السابق صـ ٧٩، وانظر موقف العقل والعلم والعالم جـ٢ صـ ٣٠، نظرية التطور عند مفكرى الإسلام. محفوظ عزام صـ ٢٣٨-٢٣٩.

المتحجرة تفرض علينا فكرة نشأت ذات اتجاه محدد...أن هذه الملاحظة كافية لانهيار فرضية "داروين" التى تفترض حدوث تغيرات صغيرة باستمرار"[1].

٣-نقد الأدلة العلمية للتطور:

(أ) نقد أدلة علم التشريح:

استند دعاة النظرية التطورية إلى أدلة هذا العلم، وجعلوا من وجود بعض التشابه بين تركيب الإنسان، وبعض الحيوانات حجة يؤيدون بها زعمهم في انحدار الإنسان فى أصل حيوانى وهذا خطأ واضح.

فمن الممكن أن تفسر ظاهرة التشابه هذه "بأن هذه المخلوقات قد خلق كل منها خلقاً مستقلاً، وإننا لا ننفى الشبه بين بعض الأشكال، والتكوينات، بل هذا التشابه يدل على وحدة الخالق، ودقة صنعه"[2].

فتشابه أجنة الحيوان ليس دليلاً على ما تزعمه هذه النظرية "فقد يدل التشابه على وحدة النمط، لكن المسألة المطروحة هى معرفة ما إذا كانت وحدة النمط تستلزم قرابة جسمية؛ إلا أنه ثبت أن الأمر ليس كذلك فى كثير من الحالات، التى اعتمدها التحوليون، مثال ذلك وجود تشاكل بين الأطراف العليا، والأطراف السفلى لدى الفقريات، فعظم الفخذ مشاكل لعظم العضد، ورسغ اليد لرسغ الرجل، واليد للرجل، لكن لا واحد من هذه التشاكلات تفسرها القرابة ووحدة الأصل، وأغلب التشاكلات التى يعتمدها التحوليون هى من صنع الوهم عندما يتخذونها حجة على وجود المراحل الانتقالية التى تتوسط الأول والأشكال الحالية التى عليها الحيوانات"[3].

---

(1) خلاصة الميتافيزياء. د.محمود يعقوبى جـ٢ صـ ١٨٦.

(2) الإسلام وفلسفة العلم.د. أحمد رمضان صـ ٤٦٠.

(3) خلاصة الميتافيزياء جـ٢ صـ ١٧٦.

وعلى هذا فالتشابه لا يدل على الانحدار، وإذا كـــان الإنســـان يشـــبه بعـــض الحيوانات فى بعض الأمور فهذا التشابه فرضية الخالق تعالى فالإنسان يختلــف فى جميع الصفات والمزايا عن سائر الكائنات الأرضية الأخرى فـــهو خليفــة الخالق على الأرض ولو قبلنا ذلك فإننا نستطيع أن نضيف العصفور قد انحـــدر من النسر، والكلب انحدر منه الحمار لأن لكل منها أربعة أرجل[1].

وقصارى القول: إن أدلة علم التشريح تقف حجة على دعاة نظرية التطور. مـــع أنهم أفرطوا فى استعمالها ظناً منهم أن تؤيد مدعاهم، وهذا غير صحيح بل هـــو خطأ فادح أوقعوا فيه أنفسهم.

(ب) نقد أدلة علم الأجنة:

أما فيما يتعلق بنقد أدلة علم الأجنة فهى حجة عليهم أيضاً. حيث أثبتت الأبحـاث العلمية وجود خلاف بين الجينات لدى الإنسان والحيوان، ودليل ذلـــك "كمـــال التكوين مما يدل على أن هناك بذوراً لتلك الاختلافات فى المراحـــل الأولـــى، وعلى ذلك نستطيع القول: إنه لا ينشأ من بويضة الإنسان وأجنته إلا الإنســـان، ولا ينشأ من بويضة الحيوان إلا حيوان"[2].

"إن التشابه الذى يظهر فى الأشكال الجينية لا يعنى إعادة الصور السالفة، بل هو مجرد نتيجة للشروط التى يخضع لها نمو "الجنين" ثم إن التطابق بيـــن تطـــور الفرد، وتطور النوع ليس أمراً واقعاً فى أغلب الأحيان، فالعضو الذى يفـــترض اكتسابه فى أواخر تطور النوع يظهر فى اغلب الأحيان فى أوائل نمو الجنيـــن وهو حال تكوين الحويصلة البصرية لدى الفقريات"[3].

---

(1) انظر: الله يتجلى فى عصر العلم صـــ ١٣٣-١٣٤، نظرية التطور د.محفوظ عـــزام صـــ ٢٢٨-٢٢٩.

(2) الإنسان كما يصوره القرآن. رسالة دكتوراه.د. صلاح عبد العليم صـــ ١٣٨-١٣٩.

(3) خلاصة الميتافيزياء. د. محمد يعقوبى جـــ٢ صـــ ١٧٧.

وقصارى القول: إن أدلة علم الأجنة لا تصلح أن تكون حجة لدعاة التطور، بل على العكس من ذلك فهى تفتقد الناحية العملية، فأقل ما توصف به أنها أدلة مكذوبة، ومزورة باعتراف رواد النظرية التطورية.

(جـ) نقد أدلة علم الحفريات:

لقد وجه النقد إلى أدلة هذا العلم من وجوه عديدة:

١-نقصان هذا العلم. فقد أكدت الأبحاث أن هذا العلم ناقص ولا يستطيع أحد أن يدعى أنه "قد اكتمل التنقيب فى جميع طبقات الأرض، وتحت الجبال والبحار فلم يجد شيئاً جديداً...وعلى فرض ثبات مفردات هذا العلم فإن وجود الكائنات الأولى البدائية أولاً؛ ثم الأرض ليس دليلاً على تطور الكائنات الراقية من الكائنات الأدنى"[1].

٢- إن هذا الأساس قائم على فرض التشابه وواقع الأمر هذا الفرض "لا يشفى غليلاً، ولا يكفى لاستخلاص النتائج التى تذهب إليها نظرية النشوء والارتقاء بل إنه يقوم على افتراضات"[2].

٣- إن جملة ما يعترض به على أدلة هذا العلم أن الجولوجيا لا ترتب دليلاً على عملية التدرج ، وهذا باعتراف التطوريين بين أنفسهم [3] .

هذه أهم الانتقادات التى وجهت للأسس التى قامت عليها النظرية، وهى نظرية باطلة تلهث وراء دليل، وتحاول إثبات نفسها فتختلق الحقائق، وتزور فى العلوم، ويكفى تأكيداً على ذلك أن افتقادهم للأدلة جعلهم يلجأون للتضليل والتزوير ،

---

(1) توحيد الخالق. عبد المجيد الزندانى جـ٣ صـ ٩٢. المكتبة العصرية بيروت ط١ ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

(2) الإسلام والاتجاهات العلمية المعاصرة.د.يحيى هاشم صـ ٤٣.

(3) نظرية التطور. د/ محفوظ عزام صـ ٢٣١.

وصدق الله تعالى حيث قال ﴿ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ [1] .

وقال تعالى ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ [2]

(1) سورة طه الآية ١٢٤.

ي(2) سورة الزخرف الآيتان ٣٦-٣٧.

الفصل الثالث

الإسلام وفلسفة العلم

المبحث الأول : دور فلسفة العلم في إثبات عقيدة الألوهية .

المبحث الثاني : دور فلسفة العلم في إثبات النبوة .

المبحث الأول

دور فلسفة العلم في إثبات عقيدة الألوهية

تمهيد:

مما لا شك فيه أن وجود الله تعالى، حقيقة واقعة ، فقد دل عليها النقل والعقل وأقرها أصحاب الفطر النقية، والعقول السليمة، فمن أمعن النظر فى هذا العالم وما حواه من أجناس مختلفة، من سماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، وجبال راسيات شامخات، وغير ذلك من المخلوقات التى تشهد بوجود إله قادر أوجد هذه الأشياء، ولئن خفت هذه الآيات على بعض العقول فذلك لضعفها.

وهذه الأدلة واضحة لكل ذى لب سليم، عدا أصحاب الهوى وأتباع الشيطان الذين يلحدون فى آياته ويجادلون فى وجوده بالباطل.

وقبل الحديث عن شبه المنكرين لوجود الله تعالى أقول بأن هذه الطائفة التى أنكرت وجوده تعالى ما هى إلا شر ذمة قليلة آثرت الضلال على الهدى والظلام على النور ووجدت فى كل عصر، وسميت بأسماء متعددة فقد سموا بالماديين لإيمانهم بالمادة وحدها، وقدسوها ونعتوها بصفات الله تعالى ورأوا فيها قدرة على الخلق والإيجاد، "وأثر عنهم لا إله والحياة مادة"(١).

كما سموا كذلك بالحسيين لإيمانهم بالمحسوس المرئى فقط، وما عداه فلا وجود له ولهذا أنكروا ما وراء الطبيعة. "فالفكر الإنسانى لا يدرك سوى الظواهر المحسوسة، وما بينها من علاقات وقوانين "(٢).

وسموا كذلك بالطبيعيين لإيمانهم بالطبيعة وحدها، ورفضهم خضوعها لأى قوة خارجة عنها وأثر عنهم "إن كل شئ محصور فى الطبيعة وأن كل ما يتخيل وراءها

---

(١) الشيوعية منشأ ومسلكاً د. دندل جبر صـ ١٨٩. مكتبة المنار ١٤٠٥ هـ -١٩٨٥م ط٣.
(٢) الفكر المادى الحديث وموقف الإسلام منه د.محمود عثمان صـ ٨٣ الدار الإسلامية للطباعة والنشر.

وهم فى وهم، وأن الإنسان ما هو إلا ثمرة القوى الطبيعية، وأن طبيعته المعنوية ما هى إلا مظهر من مظاهر طبيعته المادية "(١).

وسموا كذلك بالملحدين لكونهم لحدوا فى آياته أى عدلوا عن الحق وأعرضوا عنه، وأنكروا وجوده وقالوا بأن "المادة تستطيع أن تصنع الروح وهى تستطيع أن تصنع الله وأن تكون هى الله (٢).

وقبل هذا كله أطلق القرآن عليهم اسم الدهريين لقولهم بأن الدهر هو المحى والمميت قال تعالى: ﴿وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر﴾(٣) .

وإذا كانت كثرة الأسماء تدل على عظمة المسمى وشرفه كما هو الحال بالنسبة لله تعالى وصفاته؛ فإن الأمر هنا على خلاف ذلك، فكثرة مسمياتهم تدل على قلة شأنهم، وحقارة منزلتهم، وضيق أفقهم لحصرهم الموجود فى المشاهد المحسوس، وإنكارهم ما هو أوضح من الشمس فى وسط النار، هذا وقد وجدت هذه الطائفة عبر العصور المختلفة وبأسماء كثيرة كما سبق ذكره، لكن يجمعها قاسم مشترك وهو إنكار العالم الغيبى بما فيه، وعلى الرغم من إنكارهم لوجوده تعالى، فإننا لا نجد دليلاً واحد يثبتون به قضيتهم، وإنما ساقوا جملة من الشبه نشأت لديهم لضيق أفقهم، وظنوا فيها سنداً قوياً لما يدعون، ولكن كيف هذا؟ وما ذكروه من قبيل الأوهام والضلالات التى لا أساس لها من الصحة. فقد رفضوا كل الأدلة التى تدل على وجوده ويريدون "أن يضعوا الله فى المختبر تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً..

---

(١) على أطلال المذهب المادى محمد فريد وجدى جـ١ صـ ١٧ ط دائرة المعارف القرن العشرين بمصر ١٩٢١.

(٢) الفلسفة الفرنسية من ديكارت ألى سارتر. جان فال صـ ٥٧ ترجمة فؤاد كامل -مراجعة د/ فؤاد زكريا. دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ١٩٦٨.

(٣) سورة الجاثية الآية ٢٤.

كما يضعون شيئاً مادياً، إنهم يريدون أن يشاهدوا الله بالمجهر.. ويريدون الإله شيئاً مادياً مجسداً مثلهم"(1).

---

(1) العقيدة فى ضوء العلم الحديث د. سعد الدين صالح جـ1 صـ 162 دار الصفا للطباعة ط2 1407 - 1991.

المبحث الأول - شبه المنكرين لوجود الله تعالى والرد عليها له.

١- شبهة المصادفة:

إن المتأمل فى حال العالم يجد أنه اشتمل على نظام دقيق، وإتقان بديع يشـهدان بعظمة الخالق ووجوده، ففى هذا العالم ترتبط الأسـباب فيـه بالمسـببات وتتقـدم المقدمات النتائج الأمر الذى يعطى اعتقاداً جازماً بوجود صانع مهيمن علـى هـذا العالم بما فيه.

ومع هذا فقد وجدت شرذمة قليلة أنكرت وجود الله تعـالى بدعـوى أن وجـود الكون على هيئته هذه لم يكن من تدبير إله وإنما من صنع الصدفة(١).

وواقع الأمر أن هذه النزعة وجدت قديماً فهى ليست نزعة حديثة، أو معاصرة، فقد وجد هذا الاتجاه لدى تلك الطائفة التى عرفت بالدهرية(٢) وأنكرت وجـود الله تعالى بحجة أن العالم لم يزل موجوداً بنفسه ولا صانع له ولا مدبر ووجـد هـذا

---

(١) الصدفة: مصطلح يستعمله كثير من الناس على أساس غير علمى، فقد شاع استخدامها بأنها تعنى التقابل القائم بين شيئين، والصحيح أنها كلمة تعنى انعدام السبب الفاعل والسبب الغائى، وهذا يستلزم غيبة النظام، وغيابة العناية والقصد فهى تعنى الاعتباط والفوضى، وكل ما يترتب على هذا المعنى من لوزام منطقية أو واقعية. (انظر: العقيدة والفكر الإسلامى د. محمد هشام سلطان صـ٨٦ مكتبة رحاب ١٤٠٨هـ /١٩٨٨م القرآن والكون د. محمد عبد الله الشرقاوى صـ٤٩ دار الجبل بيروت ١٤١١هـ-١٩٩١م ط٣).

(٢) الدهرية: نسبة إلى الدهر وهم فرقة من الزنادقة أو الملاحدة يجحدون الصانع المدبر العالم القادر، ويزعمون أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه لا بصانع وينكرون البعث والنبوة والحساب ولا يعرفون الخير ولا الشر وإنما اللذة والمنفعة (انظر : الفصل فى الملل والأهواء والنحل. ابن حزم جـ١ صـ ٤٧-٧٨. تحقيق د. محمد إبراهيم، د. عبد الرحمن عميره ط دار الجبل بيروت ط٢ ١٩٩٦).

الاتجاه لدى بعض فلاسفة اليونان أمثال ديمقريطس الأغريقى[١] الذى زعم أن الحياة وجدت اتفاقا، دون احتياج لعلة مؤثرة فجميع ما فى الكون نتيجة للصدفة العمياء[٢].

وإذا كان هذا قول القدماء فإن ما قاله المحدثون لا يختلف عنه، فقد ذهب كثـــير منهم إلى أن وجود العالم بهيئته هذه. بمحض الصدفة فها هو الفيلسوف الإنجلـــيزى براتراند رسل(٣) يقول:

"إن الكون الذى نشاهده الآن إنما وجد بمحض الصدفة"(٤).

هكذا اتفاقا تسير ظواهره وتعمل قوانينه، ويلخص رسل تاريخ البشرية كلها فـــى القول بالصدفة قائلاً:

---

(١)ديمقريطس الأغريقى هو فيلسوف يونانى ولد فى تراقيا عام- ٤٦ق.م تقريباً وتوفى عام ٣٧٠ ق.م سافر كثيراً وأخبر أنه زار مصر وقضى بها خمس سنوات وقد أنشأ مدرسة أبدير عام ٤٢٠ق.م وله مؤلفات منها فى جهنم، فى الأفلاك، فى طبيعة السماء وغيرها (انظر : موسوعة أعلام الفلاسفة. إعداد رونى إيلى الفا وزميله جـ صـــ٤٥٥-٤٥٦ دار الكتب العلمية بيزوت ط١ ١٤١٢/١٩٩٢).

(٢)تاريخ الفلسفة اليونانية يوسف كرم صـــ٤٠ نشر مكتبة النهضة المصرية ط٤، انظر نقد المذهب التجريبى محمد محمد طاهر صـــ ١٢٤ منشورات دار ومكتبة الهلال بيروت.

(٣) رسل هو: فيلسوف رياضى ومنطقى وعالم اجتماع إنجليزي ولد عام ١٢٨٩هـــ ، ١٨٧٢م وتوفى عام ١٣٩٠هـــ، ١٩٧٠ تلقى تعليماً خاصاً وحصل على منحة لدراسة الرياضيات فى كلية ترينتى بجامعة كامبريدج وكان من الطلاب المتميزين وقد ترك مؤلفات كثيرة منها أسس الرياضيات، الدين والعلم، فلسفتى كيف تطورت، وغيرها (انظر موسوعة أعلام الفلسفة العرب والأجانب جـــ١ صـــ ٤٨٢-٤٨٤).

(٤) فلسفتى كيف تطورت لرسل. صـــ٢ ترجمة عبد الرشيد الصادق مراجعة د/ زكى نجيب مكتبة الأنجلو المصرية ط ١٩٦٠.

"ليس وراء نشأة الإنسان غاية أو تدبير إن نشأته وحياتـــه وآمالـــه، ومخاوفـــه وعواطفه وعقائده ليست إلا نتيجة لاجتماع جسمه عن طريق المصادفة"(١).

وهاهو الفيلسوف الألماني هيكل(٢) يقول:

إن الموجود الضروري الوحيد هو المادة، وأن الحياة ترجع إلى أصـــل واحـــد، وهو المونيزا – التي تركبت اتفاقاً من مركبات عضوية من الأزوت، والهيدروجين، والأوكسجين، والكربون ثم تطورت على التوالي حتى تكونـــت جميـــع الكائنـــات الحية(٣).

ومن خلال ما سبق عرضه يتضح لنا ما لهذه الشبه من مكانة في نفوس هؤلاء، فقد دانوا بها ودافعوا عنها وتشبثوا بها زاعمين أن هذا الكون لا يحتاج إلى موجـــد يوجده، بل وجد بصورته هذه بالصدفة والاتفاق دون تقدير ولا تدبـــير، ولا أثـــر للاختيار فيه .

وهكذا استقر رأي هؤلاء الملاحدة على الإيمان المطلق بهذه المقولة فأي حـــدث في الكون إنما هو من باب المصادفة ، ونتيجة لها "وأن الكون سواء أكان له معنـــى أم لم يكن، كان على أي حال سيظهر إلى حيز الوجود ويجري مجاره حتـــى لـــو

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم. تأليف نخبة من العلماء الأمريكيين صـــ ٥٧ ترجمة د/ الدمرداش عبد المجيد مراجعة د/ محمد جمال الفندي. دار القلم ببيروت.

(٢) هيكل هو: أرنست هيكل ولد عام ١٨٤٠هـــ ومات عام ١٩١٩ فيلسوف واحدي وهو أستاذ علم الحيوان وله عدة مؤلفات منها الدين والتطور، تاريخ الخلق الطبيعي وغيرهما (انظر الإسلام والاتجاهات العلمية المعاصرة د. يحيى هاشم صـــ ٢١٠ ط دار المعارف) .

(٣)انظر: فصل المقال في فلسفة النشوء والارتقاء . أرنست هيكل صـــ ٢٩ نقله إلى العربية حسن حسين مطبعة الشباب ١٣٤٢ – ١٩٢٤، تاريخ الفلسفة الحديثة يوسف كرم صـــ ٤٠ ط دار المعارف ط٥.

كانت الظروف الثابتة والأولية تحول دون تطور الحياة والوعى، فالحيـــاة جــاءت اتفاقاً، وهى طارئة على آلية الكون"(١) "وأجمل انتظام فى العالم أشبه بكتلة نفايــات مجموعة صدفة"(٢).

هذه هى شبه المصادفة كما عرض لها أصحابها، وهى شبه واهية يكذبها الواقع، ويرفضها المنهج العلمى الصحيح، كما يشهد على بطلانها شهادة العقلاء.

وفيما يلى عرض لبيان فسادها من خلال الأدلة العقلية ، والعلمية والنقلية:-

الرد على الشبهه:

لقد ساق العلماء جملة من الأدلة المختلفة التى تؤكد بطلان هذه الصدفة.

(أ) الأدلة العقلية :-

١- تناقض المصادفة:

إن القول بالصدفة خرافة يرفضها أصحاب العقول الســـليمة، والفطـــر النقيـــة لاستحالة حدوث المصنوعات ذات القصد والعناية، والإبداع دون وجود محدث لها، فإن من شهد بناءً جزم بأن له بانيا. فالقول: بالصدفة باطل، لأن الصدفة لا وجـــود لها ولا يمكن لها أن تخلق شيئاً من العدم إلى الوجود ، وكل ما يمكن نسبته إليها هو حركة التلاقى بين الموجودات ، وهذه الحركة قد تحدث مرة بيـــن آلاف المـــرات فالصدفة خرافة ولا أساس لها، ولا يتمسك به إلا من أضله الله تعالى، وختم علـــى قلبه بالكفر والضلال.

---

(١) العلم فى منظوره الجديد- روبرت م. أغروس وآخر صـــ٦٦. ترجمة د. كمال خلايلى سلسلة عالم المعرفة العدد ١٣٤ جمادى الآخرة ١٤٠٩-١٩٨٩م

(٢) الفلسفة فى العصر المأساوى الأغريقى- فريدريك نيتشه صـــ ١١٠ -تعريب د/ سهيل القشن تقديم ميثال موكو-المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ط٢ ١٤٠٣هـــ-١٩٨٣م.

٢-دليل العناية والغائية:

لقد جعل العلماء من عناية الله تعالى بالكون دليلاً واضحاً علـــى فســاد القــول بالصدفة، فالكون المادى يسوده النظام، ويسيطر عليه الإحكام، وليســت الفوضـــى وتحكمه القوانين، وليست المصادفة أو التخبط .

وهذا الدليل شائع ومنتشر، بين فلاسفة الإسلام، متكلمين، وإشراقيين، ومشــائين، فهم جميعا يستدلون به على وجود الله تعالى، وفى نفس الوقت يستبعدون به فكـــرة المصادفة والعبث فى هذا الكون وموجوداته وقد عرض له الإمام الأشعرى(١) كما استدل به إخوان الصفا(٢) وكذلك ابن رشد(٣) وغيره.

فها هو الكندى يقول " فإن فى نظم هذا العالم وترتيبه وفعـــل بعــض لبعــض، وتسخير بعض لبعض، واتفاق هيئته على الأمر الأصلح فى كون كل كائن، وفســاد فاسده، وثبات كل ثابت، وزوال كل زائل لأعظم أدله على أتقن تدبير، ومـــع كــل تدبير مدبر، وعلى أحكم حكمه ومع كل حكمة حكيم"(٤)

فهذا الدليل يبطل الصدفة بما لا يدع مجالاً لأدنى شك، ولهذا نجد كثـــيراً مـــن الفلاسفة المعاصرين- يستدل به ليثبت وجوده تعالى فها هو برجسون(٥) يذهب إلى

---

(١)انظر: اللمع فى الرد على أهل الزيغ . للأشعرى ص١٨-٢٠

(٢)انظر: رسائل أخوان الصفا وخلان ألوفا ط ص٣٣٣ . تقديم. طه حسين وأحمد زكى باشا- تصحيح خير الدين الزركلى-مصر المطبعة العربية ١٩٢٨ .

(٣)انظر: الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة- لابن رشد تحقيق د/ محمود قاسم ص١٤٨- ١٥١ مكتبة الأنجلو المصرية.

(٤)رسائل الكندى الفلسفية. تحقيق د/محمد عبد الهادى أبو ريده صـــ٢١٥ . دار الفكر العربى ١٩٥٠م .

(٥)برحسون: ولد فى باريس عام ١٨٥٩ من أبوين فرنسيين يهوديين وكان طالباً نجيباً وقد نال جوائز كثيرة وكان ذائع الصيت ترك مؤلفات كثيرة منها الضحك، المادة والذاكره، الحلم وغيرها=

أن الكون كله من الذرة إلى المجرة ينبض كالجسد الواحد يحيا حياه واحدة يظهر فيها بوضوح، مدى الترابط والتعاون الأمر الذى يخالق فى نفوسنا ذلك الإلهام المباشر لوجوده تعالى(١).

وعلى هذا يمكن القول : إن الإنسان إذا ما صادف أسبابا مبعثرة فى الطبيعة يقف أحياناً عندها، فإذا تابع السير فيما وراءها وأمعن النظر فيها أمكن من الوصول إلى مدى العناية الإلهية والتسليم بوجوده

فكل شيء وجد بدقة محكمة لا مجال للمصادفة فيها؛ لأنها تخبط وعشواء وهذا خلاف ما عليه الواقع.

وأخيراً فإن هذا الدليل هو الذى أشار الله تعالى إليه فى أكثر من موضع منها قوله تعالى:

﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت﴾[٢].

٣- دليل النظام

وهو برهان واضح على فساد القول بالصدفة وهو يقوم على مقدمتين الأولى حسية والأخرى عقيلة.

= (انظر: قصة الفلسفة ول ديورانت ص٥٥٥-٥٥٦، موسوعة أعلام الفلسفة العرب والأجانب جـ ١ صـ ٢١٤-٢١٦).

(١)انظر: قصة الإيمان للشيخ نديم الجسر ص١٩٥-١٩٦. منشورات دار الخلود لبنان ط٣ ١٣٨٩م-١٩٦٩م .

(٢)سورة الغاشية الآيات ١٧-٢٠ .

"فأما الأولى، فهى أن هناك نظاماً بديعاً يسود كل أرجاء الكون من الذرة إلى المجرة، وهو أمر تتكفل بإثباته المشاهدة والملاحظة... وإما الثانية،فهى أن العقل بعد ما لاحظ النظام وما يقوم علية من المحاسبة، والتقدير والهداية والقصد والتوازن.... وحكم بأن هذا يمتنع صدوره بمحض الصدفة والاتفاق، بل لا ينبع إلا من فاعل قادر عليه ذى إرادة وحكمة وقصد"[1].

والمطالع لكتب المتكلمين يجد أن هذا الدليل قد جذب انتباههم، فقد استدل به الباقلانى(٢) كما أخذ به الإمام الغزالى وها هو يقول:"فليس يخفى على من معه أدنى مسكة من عقل، إذا تأمل بأدنى فكرة مضمون هذه الآيات،وأدار نظره على عجائب خلق الله، فى الأرض والسماوات، وبدائع فطرة الحيوان والنبات، إن هذا الأمر العجيب والترتيب المحكم لا يستغنى عن صانع يدبره، وفاعل يحكمه، ويقدره، بل تكاد فطرة النفوس تشهد بكونها مقهورة تحت تسخيره ومصرفة بمقتضى تدبيره"(٣).

فنظام العالم وترتيبه على هذا النحو يرفض فكرة المصادفة. ويجعل القائلين بها يقعون فى مأزق واضح لما هو معروف عنها أنها تعنى العشوائية وعدم الدقة والنظام.

---

(١)جهود الشيخ حسين الجسر الكلامية فى الإلهيات رسالة ماجستير إعداد الباحث فتحى عبد الرحمن عطية ص١٢٤- كليه أصول الدين بطنطا ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

(٢)انظر: التمهيد للباقلانى صـ٤٤-والإنصاف للباقلانى صـ٣٠-٣١ تحقيق وتعليق الإمام محمد زاهد الكوثرى. مؤسسة الخانجى للطباعة ط٢ ١٩٦٣م.

(٣)إحياء علوم الدين الغزالى جـ ١صـ ١٩٠.

ومع هذا فإذا كان هذا الدليل يستدل به على بطلان الصدفة، فأرى أنـــه يصلـــح للاستدلال به على فساد القول بقدم العلم كما يمكن الاستدلال به على فرض القـــول بالحدوث.

فهو لا يختص بفرض دون الآخر، وهذا أهم ما يميز هذا البرهان عن برهـــان الحدوث الذى يقوم على حدوث المادة(١).

وفى رأيى أن هذا الدليل يكشف لنا عن عظيم قدرة الله تعالى فى خلقه ولهذا أعطاه القرآن الكريم قدراً كبيراً من الاهتمام.

قال تعالى﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب﴾ [٢].

٤- فإن القول بالصدفة قد يصح بالنسبة للإنسان، ولكن لله تعالى فلا يوجد ما يسمى بالصدفة فما من شئ صغير ولا كبير فى هذا الكون إلى وجد بقصد وتدبـــير ولغاية وهدف وإلا لفسد الكون بما فيه فانظر:

"هل هذا الترتيب المحكم والتكوين المنظم والأسباب الموجودة للكائنات والعلـــل الحافظة لها والعوامل الدافعة لترقيتها والنواميس العاملة لتكميلها كل هذه المجموعة الضخمة من السباب والعلل والنواميس فى كون يزخر بالأحياء ويفيض بالكائنـــات

([١])انظر: الله خالق الكون أ-جعفر الهادى ص١٥٣ دار الاضواء بيروت ط٢ ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .

([٢])سورة ق الآيات ٦-٨ .

قائمة على مجرد المصادفة والاتفاق ومجردة من روح يدبرها ويهيمن على أطوارها (١) إن الواقع المشاهد يشهد بخلاف ذلك تماماً.

(ب) أدلة العلم التجريبي على بطلان الصدفة:

لقد أثبت العلم الحديث بما لا يدع مجالاً لأدنى شك، أن هذا العالم تكون بمحض إدارة قوة عاقلة. تامة التصرف وهو مسخر تحت سلطانها. يشهد لذلك أوضاعه وأحجامه. وحركاته وطبائعه ولإثبات هذه الحقيقة نراهم ساقوا حملة أدله من أهمها ما يلي:

١- الأنظمة المعقدة الموجودة فى هذا العالم:

لقد جعل العلماء من الصورة غير العادية من التعقيد الموجود فى هذا الكون دليلا واضحا على فساد القول بالصدفة " فالتعقيد الهائل فى ظاهرة الحياة والانسجام الهائل، ووضع كل شيء فى محله. إنما يدل دلالة واضحة على علم وإدارة وقدرة وراءها موجد أوجدها على هذا النحو"(٢).

فقد أثبتت العلوم الكيمائية أن التعقيد الهائل الموجود فى أبسط الأشياء يجعل من المستحيل جمعه فجأة بدون تدخل قوة خارجه.

إن الخلية الحية هى نظام معقد وجميل كعالم المجرات والنجوم، وقد استمرت الآلة الدقيقة للخلية الدءوب خلال أربعة مليارات من السنين، وتتحول أجزاء العظام بمثل فعل السحر إلى أجهزة خلوية، فكرية الدم البيضاء هى ورقة سبانخ الأمس،كيف تقوم الخلية بهذا العمل؟ الجواب هو أنه يوجد فى داخلها متاهة أو شبكة من الممرات وبنية معقدة وبنية هندسية متقنة تحافظان على تكوينها، وتحولات الجزيئات وتخزنان الطاقة، وإذا استطعنا أن ندخل إلى الخلية فسوف نرى الكثير من الأقسام الجزئية مؤلفة من جزئيات البروتين، وأن بعضها فى حالة نشاط محموم، بينما البعض الأخر فى حالة انتظار" (٣).

فمثل هذا لا يمكن، بل يستحيل حدوثه بالصدفة، والأولى أن نجعله دليلا على وجود الله تعالى.

---

(١) الإسلام دين الهداية والإصلاح. تحليل دقيق لمبادئ الدين الإسلامى محمد فريد وجدى صـ ١٠. راجعه وصححه محمد زهرى النجار. دار الجيل بيروت ط١ ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

(٢) الله جل جلاله- سعيد حوى ص٤٣ مكتبة وهبه.

(٣) الكون. د/ كارل ساعان- ترجمة نافع أيوب - مراجعة محمد كامل عارف ص٥٢-٥٣ - سلسلة عالم المعرفة العدد ١٧٨-ربيع الأول ١٤١٤هـ-١٩٩٣م مطابع السياسة الكوتية.

أن بروتويلازم الخلية قد بلغ فى تركيبة درجة من التعقيد، حيرت جميع العلمـــاء، وتعتبر البروتينات أشد عناصره تعقيداً (١).

فهذا الكون ملىء بمظاهر الروعة المعقدة التى تحتاج إلى مدبـــر لـــها ولا يمكن ردها إلى الصدفة.

٢ – لتوازن المحكم الموجود فى كل شىء:

فلقد أثبتت جميع الدراسات العلمية بما لا يدع مجالاً للشك أن هـــذا العـــالم يسير وفق توازن محكم لا مثيل له

" فهذه الكواكب السابحة فى الفضاء على مدارات منتظمة تشـــعر بجاذبـــها المتبادل وجريها إلى غايتها، وانتهائها إلى نهايتها بأنها مقودة، بنظام دقيق ينبـــىء عن قصد حكيم، وتدبير سديد أريد به قيامها على هذا الترتيب البديع لإنتاج أعراض يعيده من معمارية الكون وتحليته بكل الإبداعات الممكنة"(٢).

فالأرض مثلاً هى "أهم عالم عرفناه إذ توجد فيها أحوال لا توجد فى شـــىء من هذا الكون الواسع، وهى فى ضخامتها لا تساوى ذره من هذا الكون العظيـــم، ولو أن حجمها كان أقل أو أكثر مما هى عليه، لآن لاستحالت الحياة فوقـــها، فلـــو أنها كانت فى حجم القمر مثلا بأن كان قطرها ربع قطرها الموجود فعـــلاً لكـــانت جاذبيتها سدس جاذبيتها الحالية، ونتيجة لذلك لا يمكن أن تمسك الماء والهواء مـــن حولها كما هو الحال فى القمر...... لضعف قوة الجاذبية وانخفاض الجاذبية فـــى الأرض إلى مستوى جاذبية القمر سيترتب عليها اشتداد البرودة ليلاً حتى يتجمد مـــا فيها ، واشتداد الحرارة نهاراً حتى يحترق كل ما عليها..... ومن ثم أطلـــق أحـــد العلماء على هذه العملية لقب " عجلة التوازن العظيمة"(٣).

كل هذا يؤكد أن هذا العالم يسير وفق قوانين ثابتة وأسس لازمة لوجـــوده، ففروع العلم تثبت ذلك.

وغير خفى أن هذا يتنافى مع القول بالصدفة لما هو معروف عنها، بأنـــها فعل عشوائى لا يجرى على نظام، كما أنها لا تدعو إليه؛ فالصدفة يستحيل عليها أن تؤدى إلى تكوين أحد جزئيات البروتين فكيف بعالم تحكمـــه القوانيـــن والأنظمـــة المعقدة، .

---

(١)انظر:القرآن يتحدى. أحمد عز الدين عبد الله صـــ٢٥٢-٢٥٣دار صادر بيروت ط٢ ١٤٢٢هـــ-٢٠٠١م

(٢)على أطلال المذهب المادى محمد فريد وجدى جـــ١ صـــ١٠١ .

(٣)الإسلام يتحدى وحيد خان صـــ٦٢ .

٣-مظاهر الروعة فى العالم تنفى القول بالصدفة.

فلقد أثبت العلم الحديث أن مظاهر الروعة التى تحيط بكل شيء فى هذا الكون لهى من أوضح الأدلة على فساد هذا القول، والمتأمل فى هذا الكون الدارس لما ينتشر فى جنباته من إنسان وحيوان، ومواد وأجرام استطاع أن يقف على مظاهر الروعة فيها.

فلو رفعنا أعيننا مثلاً نحو السماء "فلا بد أن يستولى علينا العجب من كثرة ما نشاهد فيها من النجوم والكواكب ، السابحة فيها، والتى تتبع نظاماً دقيقاً لا تحيد عنه قيد أنملة مهما مرت بها الليالى، وتعاقبت عليها الفصول، والأعوام والقرون إنها تدور فى أفلاكها بنظام يمكننا من التنبؤ بما يحدث من الكسوف والخسوف قبل وقوعه بقرون عديدة فهل يظن أحد بعد ذلك أن هذه الكواكب والنجوم قد لا تكون أكثر من تجمعات عشوائية من المادة تتخبط على غير هدى فى الفضاء" (١).

وقد عرض السير "أوثر طوسون" عن مظاهر الروعة فى العالم من حولنا جاعلاً منها دليلاً واضحاً على بطلان القوة بالصدفة وقد عرض لها على النحو التالى:-

أ-مظاهر الروعة فى وفرة القوة فى العالم.
ب- مظاهر الروعة فى تعقيد الأشياء وتشابكها.
ج-مظاهر الروعة فى دقة ونظام الطبيعة.
د-مظاهر الروعة فيما يتعلق بشخصياتنا.
هـ-الوضوح فى نظام الكون.
و-مظاهر الروعة فى الخصائص الأساسية للكائنات الحية.
ز-مظاهر الروعة فى التطور(٢).

٤-فقدان الصدفة للصدق من الناحية العملية :

ذلك؛ لأن الصدفة قد تحدث مره وتتخلف ملايين المرات، وقد تزيد أو تنقص "فقانون المصادفة يزداد وينقص بنسبة معكوسة مع عدد الإمكانات المتكافئة

---

(١) الله يتحلى فى عصر العلم، صـ ١٤٧-١٤٨،وانظر : الإسلام يتحدى صـ٦٣ لمعرفة المزيد من مظاهر الروعة فى هذا العالم.

(٢) انظر: العلم أسراره وخفاياه- تحرير هارلوشايلى وآخرون ترجمة د/ محمد صابر وآخرون جـ١ صـ ١٤-١٧ ط مكتبة غريب ١٩٧١م.

فكلما قل عدد الأشياء المتزاحمة ازداد حظ المصادفة من النجاح وكلما كثر عددها قل حظ المصادفة بنسبة واحد ضد اثنين" (١).

" وبناء عليه فإن فرصة خروج عشر قصاصات من الورق، كتب عليها الأعداد من واحد إلى عشرة من حافظة مغلقة بنفس الترتيب، إنما تجيء بنسبة واحد إلى عشرة بلايين من المحاولات ، وإذا كان الممكن المتزاحم هنا محصوراً في العدد عشرة فما بالنا إذا اتسعت الممكنات المتزاحمة(٢).

فقانون الصدفة قانون فاسد لصدقه نظرياً أما عملياً فهو أمر يستحيل حدوثه فخروج القصاصات مرتبة من الحافظة قد يحدث مرة، وقد لا يحدث مطلقاً.

٥- استمرار وجود العالم وتماسكه.

فالناظر فى هذا العالم يجد أنه موجود على نظام معين وتوازن خاص، واستمر فى وجوده وهذا خلاف ما عليه الصدفة لأنها "لو وجدت لنا أمراً فإنها لا تستطيع أن تسيره فى إطار نظام معين يأخذ شكل التقنين، وإن أوجدته فإنها لا تستطيع إعطاءه حق الاستمرارية فى الوجود(٣).

ومعنى هذا إن المشكلة ليست فى الإيجاد بل فى استمرار هذا الموجود وهذا يجعلنا نتساءل مع الأستاذ العقاد " لماذا تماسك نظام هذا الكون واستمر وجوده بعد أن وجد مصادفة واتفاقا، ولم يسرع إليه الخلل وتتجم فيه الفوضى قبل أن ينتظم على نحو من الإنحاء، وما الذى قدره وأمضاه وجعله مفصلاً أعلى الخلل والفوضى وهما مثله ونظيره فى كل احتمال"(٤).

ثم لو أن الكون خلق مصادفة كما يدعى الملاحدة وتوصلت الصدفة إلى خلق رجل مثلاً " فهل يعقل أن الصدف تكون كائناً أخر مماثلاً له تماما فى الشكل الظاهرى، ومبايناً له فى التركيب الداخلى ، وهو المرأة بقصد عمارة الأرض بالناس وإدامة النسل فيها"(٥).

---

(١)قصة الإيمان .الشيخ نديم الجسر صـ٢٩٣ .

(٢)الإيمان والتطور العملى . د/ محمد عبد الستار نصار صـ٣٤١- بحث بحولته كلية الشريعة والدراسات الإسلامية .جامعة قطر.

(٣)العقيدة والفكر الإسلامى د/ محمد هشام ص٧ مكتبة رحاب ط٢ ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م .

(٤)الله- كتاب نشأه العقيدة الألهية - عباس العقاد ص١٤٩ .مكتبة الأسرة مهرجان القراءة للجميع ضيف ١٩٩٨م .

(٥) قضايا فلسفية- جمال الدين بوقلى حسن ص٦٣٥ المؤسسة الوطنية للكتاب ط٤ .

إن الذين يدافعون عن الصدفة، إنما يتمسكون بأوهام وضلالات ليس لها أى أساس. " فنظام الطبيعة وترقيتها والتوافق الغريب بين العلل الغائية، والفائدة الواضحة والقصد البين لكل جزء، ولكل عضو كل هذه تكشف فى أنصع لغة عن علة عاقلة، أو صانع عاقل، إن السماوات والأرض لتجتمع فى شهادة واحدة وجوقة الطبيعة ترتل بكامنها أنشودة فى مدح خالقها"(١) .

هذه هى الأدلة التى ساقها العلماء لبيان فساد الصدفة، ومع كثرتها وتنوعها توضح ضعف هذا القول وتهافت قائليه ، لاسيما وأن الطبيعة كتاب مفتوح تشهد بفساده فضلاً عن أنهم لا يقولون به فى أقل الأشياء كالجهاز الآلى مثلاً فما بالنا بهذا الكون الفسيح.

(جـ) الأدلة النقلية على فساد القول بالصدفة.

لقد حوى القرآن الكريم كثيراً من الدلائل التى تضيف إلى الخلق والإبداع العناية والقصد فى الكون بما فيه

قال تعالى :﴿ إنا كل شىء خلقناه بقدر ﴾(٢).

وفيما يلى عرض للنماذج متعددة لأثار الله فى كونه لفت القرآن الكريم بها الأنظار إلى وجود الله تعالى . من هذه النماذج.

أ-إيجاد المخلوقات من العدم.

قال تعالى ﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون﴾(٣).

وقال تعالى ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾(٤).

ففى هذه النماذج بيان كاف إلى قدرة الله تعالى فهذه الحيوانات أشرف الأجسام الموجودة فى العالم السفلى بعد الإنسان لاختصاصها بالقوى الشريفة وتختلف فيما

---

(١) محاورات فى الدين الطبيعى -ديفيد هيوم ترجمة وقدم د/محمد فتحى الشنيطى صـ٦٤ ملتزم الطباعة والنشر. مكتبة القاهرة الحديثة ط١ مايو ١٩٦٥م.

(٢)سورة القمر الآية ٤٩ .

(٣)سورة النحل الآية ٨.

(٤)سورة المؤمنون الآيات ١٢-١٤ .

بينها وتؤدى عملها بانتظام وخلقها الله تعالى لمنافع كثيرة للإنسان فيها. المطعوم والمشروب والملبوس فكل هذا تم مصادفة لا يعقل هذا (١) .
ثم خلق الإنسان بهذه الهيئة والكيفية ومراحل تكوينه المختلفة.فكل عضو من أعضائه وكل جزء من أجزائه عجائب فطرة وغرائب حكمة باطنة وظاهرة تشهد بوجود موجد له وهو الله تعالى(٢).

ب- إيجاد هذه المخلوقات على نظام بديع.

لقد جعل القرآن من إيجاد هذه المخلوقات على النسق التى هى عليه دليل على وجود مبدع أبدعها وهو الله تعالى.

قال تعالى : ﴿تبارك الذى جعل فى السماء بروجاً وجعل فيها سراجا وقمراً منيرا وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا﴾ (٣).

فهذه السماء بما اشتملت عليه من الكواكب ومنازل لهذه الكواكب، بالإضافة إلى الشمس والقمر؛ فضلاً عن تعاقب الليل والنهار بصورة منظمة ملفتة للأنظار تؤكد وجود خالق لها على أسس محكمة ودقة لا مثيل لها. الأمر الذى يستوجب الإقرار بوجوده والشكر على هذه النعم العظيمة (٤).

جـ- العناية بهذه المخلوقات وتنظيم شئونها.

وذلك الأمر واضح فى آيات كثيرة منها قوله تعالى :

﴿أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون...﴾ (٥) ففى هذه الآيات يوضح الله تعالى أنه المتفضل على المخلوقات وذلك بالعناية بها والإشراف عليها ، ويتجلى ذلك

---

(١)أنظر: تفسير الرازى م ١٠ جـ١٩ صـ٢٣٩-٢٤٠.

(٢)أنظر: تفسير الكشاف جـ٣ صـ١٧٨ عند تفسيره للآيات ١٢-١٤ من سورة المؤمنون .

(٣) سورة الفرقان الآيتان ٦١ - ٦٢.

(٤) انظر: تفسير الزمخشرى .جـ ٣ صـ ٢٩٠ ، تفسير الرازى م. ١٢ . جـ٢٤ صـ ١٠٧-١٠٨.

(٥) سورة الواقعة الآيات ٦٣ – ٦٥.

بوضوح فى عملية الزراعة وذلك من خلال إنباته للنبات فى الأرض وحفظه وبقائه رحمة للناس (١).

هذه بعض النماذج القرآنية التى توضح فساد القول بالمصادفة وبطلانــها ، والتــى تؤثر بوجود القصد والعناية فى هذا العالم بما فيه.

٢- شبهة الطبيعة:

من بين الشبه التى تمسك بها الملحدون لإنكار وجود الله تعالى شبهة الطبيعة فالكون على صورته هذه ليس من صنع إله وإنما هو من الطبيعة فهى العلة الخالقة له.

وواقع الأمر أن هذه الشبه أيضاً ليست حديثة أو معاصرة وإنما هى شبه قديمة تمتد جذورها إلى الطبيعين الأوائل الذين ردوا أصل العالم للطبيعة على اختلاف بينــهم هل هو الماء أو الهواء أو النار أو التراب(٢)

كما وجدت أيضاً هذه المقالة لدى بعض الدهرية فقــالوا إن الخــالق لــهذا العــالم الطبائع الأربع، وهى الماء والنار والأرض والهواء فامتزجت هذه العناصر القديمة وتركب منها العالم(٣)

وعلى هذا الأساس ظهرت فلسفات إلحادية متعددة تنكر الخالق بدعوى أن الطبيعــة أوجدت نفسها من غير حاجة إلى تدخل إله.

ومن هذه الفلسفات فلسفة النشوء والارتقاء التى تدين بهذا الرأى وتدافع عنه.

إن الحياة نشأت فى أول الأمر من خمسة أو ستة أصول تامة الخلق ومنها تفــرع سائر الأحياء الموجودة والبائدة بفعل نواميس الطبيعة(١).

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير جـ ٤ صــ ٤٦١ ـ ٤٦٢.

(٢)انظر: تاريخ الفلسفة اليونانية- ولتر ستيس- صــ ٢٩-٣٦ ترجمة مجاهد عبد المنعم دار الثقافة للنشر والتوزيع ط٤ ١٩٨٤م، الطبيعة وما بعد الطبيعة يوسف كرم صــ ١٠-١١ دار المعارف ط٣.

(٣)انظر: التمهيد لقواعد التوحيد- للأمشى صــ٥١، أصول الدين-للبغدادى صــ٥٢-٥٣ بحر الكلام- للنسفى صــ ٨٩.

فالطبيعة "هى التى قد اصطفت من بين جماع الأفراد...طائفة معينة قد تصادف اتفاقاً أن توافرت فيها الشرائط اللازمة والاستعداد الضرورى للصورة والحياة... والطبيعة هى التى اختارات وميزت هذه الطائفة وجعلت من نسلها طائفة باقية جاءت فيها هذه الصفات أقوى من غيرها " (٢)

وعلى هذا الأساس فسرت هذه الفلسفة الوجود كله برده إلى الطبيعة وحدها بدعوى أن ما يتخيل وراءها وهم لا وجود له؛ فكل شئ محصور فى الطبيعة بل إن الإنسان ثمرة القوى الطبيعية وأن طبيعته المعنوية ليست إلا مظهراً من مظاهر طبيعته المادية(٣) .

والطبيعة عمل لا يتطلب صانعاً عاقلاً بل على العكس من ذلك فكل موجود بذاته ونظام الأشياء المزعوم فى الطبيعة ليس أكثر من إسقاط لميولنا الذاتية ومن الممكن تفسير كل شئ تفسيراً كافياً بقوى الجذب والتنافر فى المادة نفسها دون افتراض أى إله على هيئة طاغية روحى قوى يتحكم فى عبيده(٤) .

هذه هى شبهة الطبيعة كما عرض لها أصحابها، وكما هو واضح نلمح فيها مدى النزعة المادية التى يتمسكون بها.

وفيما يلى عرض لبيان بطلانها متبعين فى ذلك المنهج الذى اعتمدناه وهو بطلانها بالأدلة العقلية ثم الأدلة العلمية وأخيراً الأدلة النقلية.

الرد على الشبهة:

---

(١)فصل المقال فى فلسفة النشوء والارتقاء. أرنست هيكل صـ ١٤ نقله إلى العربية حسن حسين مطبعة الشباب ١٣٤٢هـ-١٩٢٤م.

(٢)نفس المصدر ٣٠-٣١.

(٣)انظر: على أطلال المذهب المادى. محمد فريد وجدى جـ١ صـ١٧.

(٤)انظر:الله فى الفسلفة الحديثة-جيمس كولينز صـ ٢١٩.ترجمة فؤاد كامل- دار قباء للطباعة ط٢ ١٩٩٨م.

أ-الأدلة العقلية.

لقد ساق علماء الكلام جملة من الأدلة التى تبطل هذه الشبهة ومن بين هذه الأدلة ما يلى:

١- **أن الطبيعة لا تصلح عله للعالم**:فالقول بأن الطبيعة هى العلة الفاعلة مجرد فرض لا أساس له من الصحة فهو لا يستند إلى دليل، فضلاً عن ذلك فقضية الخلق قضية عقدية، والعقائد لا تبنى على الفروض.

فالطبيعة لا تخلو أن تكون معنى معدوماً أو موجوداً، فإن كانت معدومة فليست بشىء ولا يصح أن ينسب إليها فعل شئ لأنه لو جاز ذلك جاز وجود الحوادث من كل معدوم وعن كل معدوم فما يقع عليه هذا الاسم فليس بذات ولا يختص ببعض الأحكام والصفات فلو كان فيه ما يحدث الأفعال أو تجب عنه لصح ذلك من كل معدوم وذلك باطل باتفاق. وإن كانت الطبيعة معنى موجوداً لم تخل تلك الطبيعة الموجبة عندهم لحدوث العالم من أن تكون قديمة أو محدثة فإن كانت قديمة وجب أن تكون الحوادث الكائنة عنها قديمة؛ لأن الطبيعة لم تزل موجودة ولا مانع من وجود الحوادث الموجبة عنها فيجب وجودها مع الطبيعة فى القدم وإن كان الطبع محدثاً فلا يخلو أن يكون حادثاً عن طبع أولا عن طبع فإن كان حادثاً عن طبع أوجبه وجب أن تكون تلك الطبيعة كائنة حادثة عن طبيعة أخرى. إلى ما لانهاية وهذا يحيل استحالة العالم لأنه متعلق بوجود ما لا غاية له وقد ثبت استحالة خروج ما لا غاية له فى الوجود، وإن كانت الطبيعة الموجبة لحدوث العالم حادثة لا عن طبيعة أو جبتها جاز أيضاً حدوث العالم لا عن طبيعة أوجبته وهذا يبطل قولهم بإثبات طبيعة حدوث العالم عنها(١)

وهذا الدليل يلزم عنه محالات كثيرة أهمها:

أ) القول بأن المعدم يمكن أن يحدث عنه الأفعال فيما إذا قالوا بأن الطبيعة معنى معدوم.

(١)انظر: تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل- للباقلانى صـ ٥٣-٥٦ تحقيق الشيخ عماد الدين أحمد حيدر-مؤسسة الكتب الثقافية.

ب)القول بقدم العالم. ج) القول باستحالة حدوث العالم.

د) القول بجواز حدوث العالم لا عن محدث(١)

(٢) الاختلاف المشاهد فى الطبيعة.

فالناظر فى الطبيعة بدون أدنى تأمل يستطيع أن يقف على أن هذا العالم لا يمكن أن تكون أحدثته تلك الطبيعة التى نشاهد فيها التناقض والاختلاف والتغاير وغير ذلك فنحن نشاهد "أشياء تتفاسد وتتناثر فى الشتاء مثل الأشجار والحشيش، والكلأ وبعضها لا يتفاسد كالأس والصنوبر والعرعر والبقول والزرع فلو كان ذلك من طبع وجب أن لا يختلف حكم النبات والزرع فلما اختلف دل أنه من تقدير صانع قدير، وكذلك رأينا الأشجار فى مكان واحد ثمارها وألوانها وطعمها مختلف والماء والهواء والأرض وحرارة النار واحدة فلو كان ذلك من طبع. يجب أن لا يختلف حكم الثمار والألوان فلما اختلف دل على أنه من تقدير صانع قدير" (٢)

وهكذا نجد العلماء يستدلون بحركة الاختلاف الموجودة فى العالم على القول بالطبيعة فلو كانت هى العلة الموجدة له لما حدث اختلاف وتمايز بين الأشياء بعضها والبعض الآخر.

٣- القول بالطبيعة يعتمد على الصدفة .

وقد أشار البحث إلى فساد هذا القول؛ لأن هذا النظام العجيب والترتيب الدقيق الذى حارت فيه العقول فكيف ينسب إلى الصدفة أو يرد إلى الطبيعة؟

وهذا السؤال الأخير هو الذى حير الملاحدة ولم يجدوا بدا من الإقرار بوجود خالق عظيم لهذه الطبيعة التى نشاهدها.

---

(١)الباقلانى وأراؤه الكلامية. رسالة دكتوراه- إعداد د/ محمد رمضان عبد الله صـ ٣٧٩. مطبعة الأمة بغداد ١٩٨٦م.

(٢)بحر الكلام. أبى المعين النسفى صـ ٨٩ دراسة وتعليق د/ ولى الدين محمد صالح مكتبة دار الفرفور ط٢ ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

فنظام الطبيعة وترتيبها العظيم، والقصد الواضح فيها لمن أوضح الأدلة على وجود صانع عاقل أوجدها الآن.

"فجميع الأشياء الطبيعية تساق فى الكون إلى غاية وخير، وليس يكون شيء منها جزافاً ولا اتفاقاً إلا فى الندرة بل لها ترتيب حكمي وليس فيها شيء معطل لا فائدة منه" (١)

بل كل ما فيها يجرى بحكمة مراده، ولغاية مقصودة مما ينافى كون الطبيعة علة لهذا العالم بما فيه.

ب-أدلة العلم التجريبي :

١- حاجة الطبيعة إلى تفسير.

دلت الأبحاث العلمية الحديثة أن نسبة الخلق إلى الطبيعة قول عاجز فتعليل الحوادث بالأسباب والقوانين الطبيعية لا يكفى فى تفسير نشأة الكون واستمرار وجوده؛ فالأسباب والقوانين الطبيعية نفسها فى حاجة إلى تفسير.

يقول بعض الباحثين: "إن الطبيعة حقيقة من حقائق الكون وليست تفسيراً له ، ...والحقيقة أن ادعاء الإنسان بعد كشفه لنظام الطبيعة أنه قد كشف تفسير الكون ليس سوى خدعة لنفسه فإنه قد وضع بهذا الإدعاء حلقة من وسط السلسلة مكان الحلقة الأخيرة"(٢) .

إن أصحاب المذهب الطبيعى والذين يرفضون الإيمان بوجود قوة خالقه لهذه الطبيعة، ويدعون أنهم يتمشون مع العلم هم الذين أقروا بأن الطبيعة نفسها بحاجة إلى تفسير فأى تناقض هذا.

---

(١)النجاة-لابن سينا صـ١٣٨ نقحه وقدم له د/ ماجد فخرى-منشورات دار الآفاق الجديدة. بيروت ط١ ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

(٢)الإسلام يتحدى وحيد خان صـ ٣١-٣٢ . ترجمة ظفر الإسلام خان .المختار - الإسلامى للطباعة ط٣ ١٩٧٣م.

"إن النتيجة الطبيعية لوقوف العلم المادى عند تفسير الظواهر دون تعليلها يؤدى إلى إفساح المجال أمام العقل لتلمس علة مقبولة خارجة عن دائرة الطبيعـة موضـوع البحث ، وإدراك هذه العلة إنما يكون بوسائل غير التى تدرك بها المسائل الماديـة فى دراسة العلوم الكونية؛ لأن المجالين مختلفان فالبحث فى كيان الإنسان الداخلـى لا يخضع لما تخضع له عناصر الطبيعة"(١) .

وبالتالى القول بأن الطبيعة هى العلة الخالقة قول ساقط ليس له أى أساس علمـى أو عقلى يعتمد عليه، ويكفى تدليلاً على فساد شهادة العلوم التجريبية ببطلانه.

٢- انتظام القوانين الطبيعية ودقتها.

لقد استطاع العلماء من خلال الأبحاث التى قاموا بإجرائها على الطبيعة بمظاهرهـا المختلفة إلى الانتهاء عن نفى صفة الخلق عن الطبيعة معتمدين فى ذلك على انتظام القوانين الخاصة بها.

فالطبيعة تخضع لجملة من القوانين التى تسير عليها وفق نظـام لا يختلـف فـهى تخضع لنظام ثابت لا يقبل الاستثناء أو الاحتمال أو التقلب مع الهوى .... كما أن هذا النظام عام بمعنى أن كل ظاهرة طبيعية تخضع لقانون محـدد وأن هنـاك طائفة من الأسباب تقابلها طائفة من النتائج(٢) .

"إننا نعيش فى دنيا مثيرة للاهتمام فكثيرة جداً الأشياء المتنوعة ، فتسترعى انتباهنا فثمة نباتات وحيوانات وصخور وآلات وأشياء أخرى كثيرة وكلها تخضـع لنظـام

---

(١)الإيمان والتطور العلمى . د. محمد عبد الستار نصار صـ ٣٣٤ بحث ضمن أبحاث حوليه كلية الشريعة الإسلامية.جامعة قطر.

(٢)انظر: المنطق الحديث ومناهج البحث د. محمود قاسم صـ ٦٢. نشر الأنجلو المصرية ط٢ ١٩٥٣.

دقيق فنحن نعيش فى عالم فى غاية الدقة يخضع لجميع أسس التعليل فنظام الكــون أعظم النظم دقة"(١) .

ولا يمكن رد هذه النظم إلى الطبيعة لعجزها وحاجتها إلى تفسير ، كمـــا لا يمكــن ردها إلى المصادفة لما هو معروف عنها بأنها تخبط محض ، وعلى هذا فالطبيعــة التى نعيش فيها ونشاهدها تستلزم عقلاً مدبراً يقوم على أمرها فهى لا تســتطيع أن تسير وفق قوانين ثابتة وأنظمة دقيقة من تلقاء نفسها ولذا فالعلوم الحديثة تعود مــرة أخرى لتؤكد على أن الطبيعة تقر "بوجود عقل يوجه الكون بأكمله وجميع النواميس وجميع خواص المادة إلى غاية ونحن نطلق على هذا العلم اسم الله"(٢) .

فالقوانين فى العالم الطبيعى تعبر عن هذا الميل تجاه خالقها وهو الله تعالى (٣).

٣- عملية الخلق التى تجمع بين النطفتين.

فقد أكد كثير من العلماء المنصفين أن هذه العملية تتم على نحو معين ، وبطريقــة خاصة لا يمكن لقوة محسوسة أن تتدخل فيها، ولا تستطيع الطبيعة أن توجدها فهى عملية فذة تدل على قدرة مطلقة وصنعة محكمة وتؤدى عملها فى ظلام لا مثيل لــه الأمر الذى ينهض دليلاً على وجود قوة خارجة تتصف بصفات خاصة.

فقد جمعت "بين الحيوان المنوى وبين البويضة التى لا تكاد تبين، والتى تستقر فــى دهليز طويل وعريض ومظلم أشبه ما يكون بشارع عريض وفيه حبة بندق تســعى إليها جموع من النمل المتناهى فى صغر حجمه !! فكيف يتــم ذلــك؟ وهــل فــى البويضة منارة تبدد ظلمات الليل لتهتدى إليها السفن التى تشق عباب البحــر! أم أن رؤوس الحيوانات المنوية مزودة بمصابيح أمامية وخلفية كما فى السيارات أم ماذا؟

---

(١) انظر: العلم فى حياتنا. أ. أوريون وأخرون جــ٢ صــ ٥١٤. ترجمة د. أحمد حماد حسين. مراجعة د. عبد الحليم منتصر . نشر مكتبة النهضة المصرية ط٢ ١٩٦٢ ، العلم أسراره وخفاياه جــ١ صــ ١٦ .

(٢)العلم فى متطوره الجديد . روبرت م. أغروس وآخر صــ ٦٨-٦٩.

(٣)التطور الخالق. هنرى برجسون . ترجمة د. محمود قاسم. صــ ٢٤٩ مراجعة د. نجيب بلدى. الجمهورية العربية المتحدة وزارة الثقافة والإرشاد الإدارة العامة للثقافة.

إنه الخلق الفذ والقدرة الإلهية"(١). لا الطبيعة التى تملك من أمرها شيئاً فكيف بأمر غيرها .

٤- مبدأ الحتمية.

دلت الأبحاث الحديثة أن كل حادثة فى الكون فإنما هى ناتجة عن علة أدت إليها على سبيل الضرورة والحتم ؛ فكل سبب حتماً له مسبب نتج عنه .

ومعنى هذا "أن لكل نتيجة مقدمة ، ولكل ظاهرة سبب وهذه حقيقة ثابتة وأزلية لا يختلف فيها اثنان فأية ظاهرة كونية مادية كانت هذه الظاهرة أو معنوية لا توجد بذاتها بل لا بد من توافر شروط أو مقدمات أو أسباب حتى نرى الظاهرة أو نحس بها ، والظاهرة لكى توجد لا بد لها من حدوث سلسلة من الأسباب المترابطة بحيث يكون كل سبب منها نتيجة لسابقه أو مقدمة أو سبباً للاحقة ؛إذن لا بد من بداية لهذه السلسلة السببية حتى تنتهى أخرتها بالنتيجة أو الظاهرة المتوقعة ؛ أى لا بد من وجود سبب أول حتى تتتابع بقية الأسباب"(٢)

وعلى هذا فإن كل الظواهر والعمليات التى تحدث فى الطبيعة فى أى لحظة من اللحظات مشروطة بشروط وتخضع لقوانين ثابتة مما يعنى أن الطبيعة لا تصلح أن تكون هى الخالقة فكل شئ فى الوجود يرد إلى العلة والمعلول ، وكل حدث متى توافرت شروطه وقع لا محالة(٣) .

---

(١)الإعجاز الإلهى فى خلق الإنسان د. محمد نبيل النشوانى صـ ٢٤. دار القلم دمشق ط١ ١٤٢٢هـ - 2001 م.

(٢)القرآن والسلوك الإنسانى. محمد بهائى سليم صـ ٣٤٨. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧م.

(٣) انظر المعجم الفلسفى. مجمع اللغة العربية صـ ٦٧. الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية. ١٩٨٣م ، الموسوعة الفلسفية د/ عبد المنعم الحفنى صـ ١٦٧. مكتبة مدبولى. القاهرة ط١ ، الحتمية فى المنطق الحديث د/ محمد حسينى صـ ٢٩٧ - ٢٩٨ ط آل بسيونى للكمبيوتر ط ١٤٢٣ هـ - 2002 م.

وقصارى القول : إن هذا النظام الموجود بها يحتم وجود الله تعالى ؛ فهو الذى نسند إليه خلق الحياة والطبيعة بظواهر مختلفة وقوانينها المتعددة ، فلهذه الطبيعة نظـــام عام يسودها وقوانين تحكمها ونسيطر عليها.

هذه بعض الأدلة العلمية التى استدل بها العلماء على فساد هذه الشبهة. وواقع الأمر أن المتصفح للكتب العلمية يجد مجموعة أخرى من الأدلة منها التباين الموجود فـــى الكائنات والجمال الذى تظفر به الطبيعة(١)

جـ- الأدلة النقلية على فساد الشبهة:

تعددت الأدلة النقلية التى توضح فساد هذه الشبهة ومنها قول الله تعالى حكاية عـــن إبراهيم وولده إسحاق عليها السلام.

١- ﴿وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين﴾ (٢)

فهاتان الآيتان توضحان أمراً مهماً ينفى فعل الطبيعة وهو أن الـــبر يلـــد الفـــاجر والفاجر يلد البر.

يقول صاحب الكشاف عند تفسير هذه الآية: "وفيه تنبيه على أن الخبيث والطيـب لا يجرى أمرهما على العرق والعنصر ، فقد يلد البر الفاجر والفاجر البر، وهذا ممـــا يهدم أمر الطبائع والعناصر، وعلى أن الظلم فى أعقابهما لم يعد بعيب ولا نقيصـــة وأن المرء يعاب بسوء فعله ويعاتب على ما اقترفت يداه لا على ما وجد من أصلـــه وفرعه"(٣) .

---

(١)انظر: العلم فى حياتنا أ- أوريون وآخرون . جـ٢ صـ ١٥٤ – ١٥٥ ؛ الجواب الإلهى أو الإسلام أمام العلم والفلسفة . نديم الجسر صـ ١٤٨ .152 – مطبعة مصر ط٢ ١٣٧٦ هـ- ١٩٥٧م، العلم فى منظور الجديد صـ ٦٨ – ٧٨؛ حتى نفهم الإسلام. فريد هوف . نقله إلى العربية صلاح الصاوى صـ ١٦٠ – ١٦٤ .الدار المتحدة للنشر ط ١٩٨٠م.

(٢)سورة الصافات الآيتان ١١٢- 113 .

(٣)تفسير الكشاف – للزمخشرى جـ٤ صـ ٥٩.

٢- قال تعالى: ﴿أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون﴾ (١).

فهذه الآية ترد على الطبيعيين بأسلوب واضح وذلك من خلال لفت الأنظار إلى الاختلاف فى رزق المعاش فى الحياة الدنيا ؛ فهذا التباين الموجود يؤكد على أن المتولى لقسمة الرحمة وتفاوت الأرزاق بين الناس لا يصلح أن تكون الطبيعة فلا "يتولاها إلا الله بباهر قدرته وبالغ حكمته" (٢) خصوصاً وأننا نشاهد أمراً عجباً وهو غنى الأحمق وفقر صاحب العقل الراجح وهذا ليس راجعاً لقلة سعى صاحب العقل الرشيد أو لضيق أفقه . مما يدل على أن الأمر يرجع لقوة خارجة تعلم ما ينفع العباد ومالا ينفعهم.

هذه هى بعض الأدلة النقلية التى توضح فساد القول بالطبيعة لعجزها فالطبيعة عاجزة عن أن تدبر أمرها فكيف لها أن تدبر أمر غيرها هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فالطبيعة صماء عمياء ، ومعنى هذا أنها لا تصلح أن تكون علة لنفسها ومن باب أولى لا تكون علة لغيرها. إن نظامها الواضح لبرهان ساطع على أنها مصنوعة بأمر الله تعالى وما أروع قول القائل: "إن السماوات والأرض لتجتمع فى شهادة واحدة وجوف الطبيعة ترتل بكامنها أنشودة فى مدح خالقها" (٣)

٣- شبهة الشر

مشكلة الشر مشكلة قديمة جداً كما أنها من المشكلات التى تطرح نفسها على العقل الإنسانى فى كل عصر، لذا فقد عرضت لها جميع الرسالات السماوية والمذاهب الفلسفية واختلفت حولها الآراء وتعددت فيها وجهات النظر مع أنها فى واقع الأمر قضية إيمانية فى المقام الأول ، ولو نظر إليها على هذا الأساس ما حدث حولها هذا الاختلاف وما اتخذها المنكرون لوجود الله تعالى أساساً يركزون عليه.

---

(١)سورة الزخرف الآية ٧٠.

(٢)تفسير الكشاف جـ٤ صـ ٢٤٨.

(٣)محاورات فى الدين الطبيعى. هيوم . صـ ٦٤. ترجمة د/ محمد فتحى الشنيطى ملتزم الطبع والنشر مكتبة القاهرة الحديثة. ط ١٩٥٦.

فشبهة الشر قديمة واجهت العقل الإنسانى منذ "أن عرف التفرقة بين الخير والشر ، وعرف أنهما صفتان لا يتصف بهما كائن واحد" (١).

"ولا نظن أن عصراً من العصور يأتى غداً دون أن تعرض فيه هذه المشكلة علـــى وجه من الوجوه وأن يدور فيه السؤال والجواب على نحو قديم جديد" (٢).

فهذه الشبهة قديمة وقد وجهها الملحدون إلى دليل العناية زاعمين عدم وجوده تعالى لعدم عنايته بالعالم.

فالمتأمل فى العالم يجد ألواناً كثيرة من الشرور والآلام التى تصيب الناس مما يعنى خلوه من سمات القصد والتدبير مما يدل على قيامه بنفسه دون قوة خارجة عنه.

وقد وجدت هذه الشبهة لدى الطبيعيين الذين أنكروا أن تكون أحداث الطبيعـــة قـــد حدثت عن قصد وتسير لغاية وتعمل لحكمة ، وآيـــة ذلـــك العاهـــات الموجـــودة ، والتشويهات المبثوثة فى بعض أنواع الطبيعة فلو كانت هناك عناية لما ظهرت هذه الصورة الشريرة كالمطر الذى ينتج عنه إغراق البيوت والحقول ، وغير ذلك مـــن ألوان الشرور التى اتخذها البعض ذريعة إلى جحود الخالق والتدبير(٣).

وإذا كانت هذه النزعة وجدت قديماً عند الطبيعين فقد وجدت أيضاً عند طائفة تسمى المنانية "فأنكرت ما أنكرته المعطلة من المصائب والمكاره التـــى تصيـــب النـــاس فكلاهما يقول :إذا كان للعالم خلاق رءوف رحيم فلم تحـــدث فيـــه هـــذه الأمـــور المكروهة؟ (٤).

---

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه: أ. عباس العقاد صـــ ٨ طبعة خاصة تصدرها دار نهضة مصر ضمن مهرجان القراءة للجميع صيف ١٩٩٩.

(٢) عقائد المفكرين فى القرن العشرين أ - العقاد صـــ ٧٩ نشر دار الكتاب العربى ط٣ ١٩٧١.

(٣) انظر: الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير للجاحظ صـــ ٦٠-٦١ ، مكتبة الكليات الأزهرية ط ١٩٨٧م ١٩٨٨، السماع الطبيعى لابن سينا الفن الأول من الطبيعيات تحقيق سعيد زايد صـــ ٦٨-٦٩ الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٣م.

(٤) انظر: الدلائل والاعتبار للجاحظ صـــ٦٢.

وهذا الاتجاه هو ما تمسكت به بعض الاتجاهات الفلسفية الحديثة كنظرية التحليل النفسى التى أنكرت وجود الله تعالى وعنايته بالكون لوجود الشر فيه.

فوجود الشر يستبعد فكرة إله ...... وحقيقة الشر تتنافى مع عناية الله فليس للإله علم بالكون ، والكون لا يحمل أى شبه بالإله يمكن أن يكتشفه العقل الإنسانى ويستخدمه كأساس برهان عقلى على وجود الإله (١).

إن وجود الشر فى العالم يستبعد فكرة إله والقدرة على العناية بالعالم وحيث إن الأمر كذلك فلا قدرة له ولا إرادة.

الرد على الشبهة

أ-الأدلة العقلية

يمكن بيان فساد هذه الشبهة بالأدلة العقلية من خلال بيان الحكم الموجود فى الشرور وهى على النحو التالى:

١- إن الشر هو تمام الخير

فقد ذكر "ابن سينا" فى رسالته المسماة بالرسالة العرشية حقائق التوحيد وإثبات النبوة الحكمة من وجود الشر فى العالم ليتحقق الخير فيقول:

"وأن هذه الشرور الحاصلة فى بعض الموجودات، وإن كان حصولها على سبيل الوجوب واللزوم، لكنها غير خالية عن حكمة تامة – بها يكون قوام العالم ولولا تلك الحكمة لما وجدت هذه الشرور لأن الخيرات هى مبادئ الشرور فعند استيفاء الخيرات أو انتهائها ربما ظهرت الشرور وربما خفيت"(٢).

---

(١) انظر: الله فى الفلسفة الحديثة . جيمس كولينز . ترجمة فؤاد كامل صـ ٦٦-٦٧دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ط٢ ١٩٩٨م.

(٢) الرسالة العرشية فى حقائق التوحيد وإثبات النبوة – لابن سينا صـ ٣٨-٣٩ تحقيق وتقديم د/إبراهيم هلال. بدون طبعة.

ومعنى هذا أن الشر هو تمام الخير الذى يتحقق بوجوده وينعدم بانعدامه فلا معنى للحب بغير الكره ، ولا معنى للتفوق بغير الفشل، وكذا لا معنى للأمانة بغير الخيانة وهكذا فالآلام والشرور التى نراها فى العالم لها قيمتها .

٢- إن وجود الشر فى العالم أمر عارض فضلاً عن كونه ليس شراً مطلقاً فالمتأمل فى العالم يجد أن المقصود فيه قصداً أولياً هو الخير، بخلاف الشر فهو ليس مقصوداً بالذات ، وإن قصد بالعرض لتحقيق خير كثير مقصود لذاته يقول ابن سينا: الأمور الممكنة فى الوجود منها أمور يجوز أن يتعرى وجودها عن الشر ، والخلل والفساد أصلاً ، ومنها أمور لا يمكن أن تكون فاضلة فضيلتها إلا وتكون بحيث يعرض منها شر ما............ وذلك مثل خلق النار فإن النار لا تفضل فضيلتها ، ولا تكتمل معونتها فى تكميل الوجود ، إلا أن تكون بحيث تؤذى وتؤلم ما يتفق لها مصادمته من أجسام حيوانية .... فالشر داخل بالعرض" (١) .

فالأصل هو الخير لكنه يظهر ويتراءى لنا من خلال عروض الشر له .

٣- إن الشرور يجب إضافتها إلى الإنسان ، فما يحدث من الآلام ترجع لطبيعة الإنسان ، لا لقصور فى العناية بالكون من قبل الله تعالى يقول ابن سينا.

"إن الشرور يجب إضافتها إلى الأشخاص والأزمان والطباع وأنه متى حصل نقص فى آحاد نوع ما كان ذلك النقص، عائداً إلى ضعف فى القابل وقصور فى المستعد، وإلا فالفيض عام من غير بخل به ، ولا منع عنه" (٢).

وبناء على هذا لا يصح إنكار إلوهيته أو نفى عنايته بالكون لوجود الشر فى العالم.

ب-أدلة العلم التجريبى :

لقد ساق العلماء جملة من الأدلة العلمية ، وذلك من خلال بعض الظواهر التى نشاهدها فى العالم، وجعلوا منها أدلة علمية تؤكد على أهمية الشر فى العالم، وأن وجوده لا يعنى إنكار وجود الله تعالى ، أو عدم عنايته بالعالم.

---

(١) انظر: الإشارات والتنبيهات -لابن سينا القسم الثالث صـ ٢٩٩-٣٠٥.

(٢) الرسالة العرشية فى حقائق التوحيد - لابن سينا صـ٣٩.

١- وجود الموت

فقد أكدت الأبحاث العلمية على أهمية الموت، فلولاه لاستحالت الحياة على خلاف ما يتشدق به المنكرون لوجود الله تعالى ؛ من أن الموت شر يدل على عدم عنايته بالعالم . فالموت له أهمية من عدة نواح منها كما يقول بعض العلماء: "لو أن ذبابتين توالدتا هما وأولادهما دون موت ، فإنه بعد خمس سنوات تشكل طبقة من الذباب حول الكرة الأرضية ارتفاعها ٥سم، وهو جنس واحد من المخلوقات ؛ فكيف إذا كانت المخلوقات كلها تتوالد ولا تموت؟" (١).

من خلال هذا تتضح الحكمة من الموت ومن وجود أسبابه التى ينتج عنها هذا من ناحية ومن ناحية أخرى معلوم أن الإنسان عندما بلغ سن الشيخوخة فى هذه المرحلة "تهرم خلايا الجسم وأنسجته بشكل ظاهر، وتتصادم أجهزته ، وتضعف كفاءتها الوظيفية ، وتقصر عن الوفاء بمتطلبات المرء ، والتكيف مع البيئة وأنشطتها" (٢).

مما ينتج عنه عدم الرغبة فى الحياة، والشعور باليأس وفقدان الأمل، حتى إنه يتمنى أن يجد خلاصاً له من هذا الشعور ، فالموت ليس شراً كما يظن البعض ، وإن بدا فى ظاهرة ذلك وإنما هو خير.

٢- الزلازل والبراكين والشهب الخارقة

ظاهرة من الظواهر الدالة على قدرته تعالى ووجوده ، ينظر البعض إليها على أنها ، شر ويعتقد بذلك اعتقاداً جازماً، لكن الأمر على خلاف ذلك ، وهذا ما أكدته الأبحاث العلمية، فقد أثبتت أن الأمر خلاف ما يظنه الناس بالنسبة لهذه الظواهر فقد يظن البعض "أن البرق ليس أكثر من وسيلة من وسائل التدمير، ولكن التفريغ الكهربى الناتج عن البرق، يؤدى إلى تكوين أكاسيد النتروجين ، التى يهبط بها المطر ، أو الثلج إلى التربة، ويستفيد منها النبات ، وتقدر كمية النيتروجين التى تحصل عليها التربة، بهذه الطريقة ، فى صورة نيترات بما يقرب من خمسة أرطال

---

(١) الله – سعيد حوى صـ ٦٥-٦٦ نشر مكتبة وهبة.

(٢) الموسوعة النفسية الجنسية د. عبد المنعم الحفنى صـ ٣٧٦. مكتبة مدبولى ط٣ ٢٠٠٠م.

للفدان الواحد سنوياً، وهو ما يعادل ثلاثين رطلاً من نيترات الصوديوم، وهذه كمية تكفى لبدء نمو النباتات".(١)

إن العلم الحديث يثبت بما لا يدع مجالاً للشك أهمية وجود الشر فى العالم بل إنـــه يجعل من وجوده دليلاً على وجود الله تعالى وعنايته بالكون ، إن بعض الأمور قـد تحدث ويظن البعض فى حدوثها شراً ؛ إلا أن الواقع العلمى يشهد بخلاف ذلـــك ، فالبرق والرعد ظاهرها العذاب ، ولكن النظرة العلمية تكشف عن مدى الخير الـذى ينتج عنهما ، وبالجملة إن الشرور الواقعة عندما نتأملها جيداً ، وندقق النظر فيـــها نعلم أنها خير، وخير كثير.

٣- الرضاعة

بعض النساء ترفض إرضاع وليدها لا سيما فى المجتمعات الملحدة، فهى ترى فيها شراً لا مثيل له.

فمن ناحية ترى أن ذلك إهداراً لآدميتها وتشبيهاً لها بالبقرة وأن طفلها هو الذى يقوم بحلبها ، ومن ناحية أخرى ترى أن ذلك يقضى على جمالها ورشاقتها (٢).

والواقع خلاف ذلك فقد أكدت الأبحاث العلمية علـــى عـــدة حقـــائق تتعلـــق بـــهذا الموضوع.

أ- وجود خير للطرفين من عملية الرضاعة

هذا ما أكدته الأبحاث العلمية ، فقد أثبت العلم الحديث "أن لبـــن الأم يقـــاوم شـــلل الأطفال ؛ حيث يوجد فى لبن الأم مادة مضادة لعدوى شلل لا ننكر أن الأبحاث لـــم يتعرفوا بعد على كنه هذه المادة وتركيبها ، ولكن لديهم من الأدلة العلمية ما يؤيـــد هذه النتيجة العلمية المفيدة" (٣).

---

(١) - الله يتجلى فى عصر العلم . ص ٢٤ .

(٢) انظر: الموسوعة النفسية الجنسية د.عبد المنعم الحفنى صـــ ٢٩٩ - ٣٠٠، الإسلام والوقاية من الأمراض د. عز الدين فراج صـــ ٢٠ دار الرائد العربى بيروت ط٢ ١٤٠٤ هـــ - ١٩٨٤م.

(٣) الإسلام والوقاية من الأمراض د. عز الدين فراج صـــ ٢٠-٢١.

ب- أثبتت التجارب العلمية أن الأطفال الذين يرضعون من أثداء أمهاتهم أنضج وأكثر استقراراً من غيرهم. لأن لبن الأم " أكثر كمالاً، ويوفر المناعة للطفل كما يقدم الهرمون الناقص ، ويمنع من أن يتلف المخ نتيجة قلة الإفراز الدرقي" (١).

جـ- العلاقة الإيجابية بين الطرفين

فضلاً عن هذا توفر للأم وقتها ، وجهدها ، وتحفظ لها وليدها ، لا سيما وأن نسبة الدهن فى لبن الأم أقل "فنسبة الدهن فى لبن الجاموسة والنعاج ضعف نسبته فى لبن الأمهات"(٢).

كل هذا يؤكد أن الشر الموجود فى العالم ، فى الغالب لا يكون شراً وإنما أراده الله لحكمة يعلمها وغاية قصدها.

" فأحياناً يكون عقوبة لذنب من الذنوب، وأحياناً وسيلة مناسبة لبلوغ هدف معين، أى لمنع شر أعظم ، أو للحصول على خير أعظم، كذلك تكون العقوبة سبيلا للإصلاح والترهيب ، والشر غالباً ما يكون سبباً لإظهار الخير" (٣).

٤- وجود الشر يرجع لمخالفة السنن الكونية

كثير من الشرور التى تحدث فى العالم ليست ناتجة عن قصور فى العناية، الإلهية ، وإنما ترجع فى الغالب إلى مخالفة القوانين الإلهية، والسنن الكونية ، وهذا ما شهدت به الأبحاث العلمية مثلاً.

أ- مرض الإيدز

مرض الإيدز المعروف بمرض نقص المناعة، ينشأ عن فيروس يهاجم الجهاز المناعى فى الإنسان ، ولا يستطيع أن يقاومه الجهاز مما ينتج عن ذلك عدة أمراض أخرى خطيرة تنتهى بالقضاء على حياته، وقد أكدت الأبحاث العلمية ، أن هذا المرض يظهر لمخالفة الفطرة.

---

(١) الموسوعة النفسية د. عبد المنعم الحفنى صـ ٢٩٨.

(٢) الإسلام والوقاية من الأمراض د. عز الدين فراج صـ ٢٢.

(٣) دراسات فى الفلسفة الحديثة د. محمود حمدى زقزوق صـ١٤٣.الفكر العربى ط٣ ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

ولا يخفى على عاقل أنه يرجع إلى الاختلاط ، والجنس المحرم ، كالزنا الجماعى ، واللواط ، و السحاق(١).

ب- شرب الخمر

يشاع بين شاربى الخمر أن لها فوائد عظيمة للجسم، وواقع الأمر خلاف ذلك فــهى توقع الضرر بالجسم، وتؤثر عليه وينتج عنها أمراض خطيرة كمرض القلــب أو الكلى وغيرهما لهذا أوصت الأبحاث العلمية بضرورة البعد عنه كوسيلة غذائية .
فقد أثبتت هذه الأبحاث أن مدمنى الخمور والكحوليات هم أكــثر النــاس إصابــة بالأمراض المختلفة وذلك "كالزكام ، والأنفلونزا ، والالتهاب الرئــوى والــنزلات الصدرية" (٢).

جـ- تصلب الشرايين

من بين الأمراض الخطيرة والتى تعد شراً عظيماً هذا المرض فقد يــترتب عليــه موت الإنسان، ومع شريته إلا أن الأبحاث العلمية أكدت على أن سببه يرجع إلــى الإفراط فى الطعام بصورة مفرطة.
فتصلب الشرايين فى البشر ينجم عن تجاوزات أو اختلالات غذائية (٣)
وهذا يخالف السنن الإلهية قال تعالى :

﴿ ... وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾ (٤)

جـ-الأدلة النقلية

لقد حوى القرآن الكريم كثيراً من الأدلة التى توضح وجود الله تعالى ، وأن وجــود الشر لا يعنى عدم وجوده ، ولا يمنع من عنايته بالكون.

---

(١) انظر: فى رحاب القرآن إعداد حسين حسن سلامة صـ١٧٥. الهيئة المصرية العامة للكتاب مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٩م.

(٢) نفس المصدر صـ ٧٠.

(٣) انظر: ثورة فى الطب: كيلمرى . ماكى . ترجمة د. أحمد مستجير صـ ٣٨-٤٠ مهرجان القراءة للجميع صيف ١٩٩٠.

(٤) سورة الأعراف الآية ٣١.

١- قال تعالى: ﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ [١]

فسياق الآية يوضح أن النفس لا تميل إلى القتال وتكرهه ، وتظن فيه شـراً وإنما كان الأمر كذلك. لأن فيه إخراج المال، ومفارقة الوطـن، والأهـل ، والتعـرض بالجسد للشجاج والجراح ، وقطع الأطراف وذهاب النفس؛ فكـان كراهتـهم لذلـك .... لكن إذا عرف الثواب هان في جنبه ما قساه من المشقات .... فـلا نعيم أفضل من الحياة الدائمة في دار الخلد والكرامة في مقعد صدق (٢).

٢- قال تعالى : ﴿ أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر ، وكان وراءهـم ملك يأخذ كل سفينة غصبا﴾ (٣)

فالواضح من سياق الآية أن عملية الإعابة فيها خير حيـث النجـاة مـن الملـك الغاصب، بينما الأمر يبدو من تصور العقل على أنه شر.

"فإذا تمت الموازنة بين ما يبدو من القصص القرآني، وبين تصور العقـل؛ أمكـن القول بأن فعل الإعابة كانت له بواعث؛ منها باعث الإنجاء من الغصب، وبـاعث المحافظة على مال المساكين وهو منهج أخلاقي في أعلى إمكانياته" (٤).

يقول الزمخشري "قيل كانت لعشرة أخوه خمسة منهم زمني ، وخمسة يعملون فـي البحر ...... فأردت أن أعيبها خوفاً من الغصب وحفظاً لمال المساكين" (٥).

" وهذه الآية تكشف لنا عن وجهين في مسألة واحدة وأن أحدهما كان ينظـر إلـى الأمور من خلال تجارب الحياة ، وأمور الطبيعة ، بينما الثاني كانت تقوده أمـور غيبية ، وتحكمه قوانين عالية توازن بين متطلبات الحياة، وبين قـدرة الله بحيـث يخضع في النهاية لأوامر عليا صادرة عن خالق حكيم" (٦).

---

(١) سورة البقرة الآية ٢١٦.

(٢) انظر: تفسير القرطبي جـ١صـ ٨٤٧ عند تفسير الآية ٢١٦ من سورة البقرة.

(٣) سورة الكهف الآية ٧٩.

(٤) منهج السلف في إثبات وجود الله د . محمد الحسيني صـ ١٥٣.

(٥) انظر: تفسير الكشاف للزمخشري جـ٢ صـ ٧٤٠ عند تفسيره للآية ٧٩ من سورة الكهف.

(٦) منهج السلف د. محمد الحسيني الغزالي صـ ١٥٣.

٤- شبهة حصر الموجود في المحسوس .

من بين الشبه التى أثارها المنكرون لوجود الله تعالى حصر الموجود المحسوس فقط وما عداه فلا وجود له. لأنه ضرب من اللهو والعبث على حد زعمهم.

فالعقل الإنساني لا يمكن أن يتصور "وجود شئ ليس بجسم ولا مادة ولا صورة جسم ولا مادة معقولة فى صورة معقولة ، ولا له قسمة فى الكم ولا فى الكيف فعله منه وليس متصلاً به" (١)

وواقع الأمر أن هذه النزعة قديمة قدم الفلسفة نفسها وتشكلت معها منذ البدايات الأولى لها. فالإيمان بالمحسوس مذهب فى الفلسفة العلمية أقيم فى سبيلها ومن أجلها. ويمكن تتبع أثار هذا المذهب مع الفلاسفة الذين نادوا بالحواس سبيلاً للمعرفة الحقة منذ السوفسطائيين الذين قصروا المعرفة على الحواس وأنكروا أى معرفة أخرى تقع خارج نطاق الحس (٢) ثم انتقلت هذه النزعة إلى البيئة العربية ووجدت لدى الدهرية الذين آمنوا بالمحسوس فقط وقالوا: "لا عالم سوى ما هو فيه من مطعم شهى ، ومنظر بهى ، ولا عالم وراء هذا المحسوس" (٣) كما وجدت هذه النزعة لدى السمينة والبراهمة وقالوا: "لا طريق لمعرفة الأشياء إلا بالحس" (٤)

---

(١) الرسالة الحميدية فى حقيقة الديانة الإسلامية وحقيقة الشريعة المحمدية. للشيخ حسين الجسر صـ ٢١٩ ط٣ ١٩٨٥م.

(٢) انظر: قصة الحضارة . ول ديوراتب م٤ جـ ٧ صـ ٢١١-٢١٧ ترجمة محمد بدران. الهيئة المصرية العامة للكتاب . مهرجان القراءة للجميع صيف ٢٠٠١ ، موسوعة الفلسفة د/ عبد الرحمن بدوى جـ١ صـ ٥٨٦-٥٨٨، نشأة الفكر الفلسفى عند اليونان د/ سامى النشار صـ ٢٣٣ - 234 منشأة المعارف الإسكندرية.

(٣) الملل والنحل – للشهر ستانى جـ٢ صـ ٣٠٥.

(٤) التمهيد للامشى صـ ٤٣.

والمتأمل في هذه التيارات يجد أنها اعتمدت على أن المادة وحدها هي الجوهــر الحقيقي الذي يفسر به جميع ظواهر الحياة ، وجميع أحوال النفــس ؛ كمـا أنــها ترفض وجود الله تعالى لكونه ليس مادياً.

وعلى هذا الأساس ظهرت فلسفات مادية الحاديــة فظــهرت البراجماتيــة[١] والوضعية المنطقية [٢] وغيرهما من أصحاب النزعات المادية الذين دانــوا بــهذه العقيدة فها هو وليم جيمس [٣] يقول:

لقد ارتضيت فيما يتعلق بالمعرفة المذهب التجريبي ، وآمنت بنظرية عملية وهي أنه يجب علينا أن نسير في تجاربنا ، ونمضي في تفكيرنا حول هذه التجارب ؛ لأن أفكارنا وآراءنا لا تتطور وتتدرج نحو الكمال إلا بهذا السبيل ، فكل معرفة تأتي من غير هذا الطريق خطأ عظيم ، وعندي أن تاريخ الفلسفة يشهد بذلك[٤]

---

[١]البراجماتية: هي تلك الفلسفة التي تقوم على اعتبار الفكرة لا وجود لها إلا بمقدار ما تحققه من منفعة عملية في الواقع لذا فلفظ براجماتي لا يعني إلا قاعدة إرجاع كل تفكير وكل الاعتبارات التأملية إلى نتائجها للمعنى النهائي والاختبار على ضوء التجربة لأن الطريقة البراجماتية فـي مجملها محاولة لتفسير كل فكرة بتتبع واقتفاء أثر نتائجها العملية.
(انظر: قاموس جون ديوي للتربية صــ ٤٥-٤٦ . جمع رالف .ن. وين ترجمة وتقديم د/محمـد علي العريان. مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٤م ، البراجماتية – وليم جيمس صــــ ٩٣-٩٤. ترجمة د/ محمد العريان د/ زكي نجيب محمود – نشر دار النهضة العربية ١٩٦٥).

[٢]الوضعية المنطقية اتجاه فلسفي معاصر يقوم على أساس التجربة ، وينظر إليــها علــى أنــها المصدر الوحيد للمعرفة ، وليس للعقل من عمل إلا مجرد تنسيق معطياتـــها وتنظيمــها ثــم تحولت هذه الفلسفة إلى دراسة تحليلية للغة العلم لتحقيق وحدة مشتركة بين فروع العلم علــى اختلاف أنواعها وتعددها. (انظر: معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية. أحمد زكــي بــدوي صــ ٢٢١. مكتبة لبنان بيروت ، دراسات في الفلسفة المعاصرة د/ زكريا إبراهيــم جـــ١ صــ ٢٦٧ - 268 نشر مكتبة مصر للطباعة).

[٣]فيلسوف أمريكي عاش ما بين ١٨٤٢ -١٩١٠ كان أبوه هنري جيمس قسيساً بروتستانيا ويعد جيمس الأب الروحي للبراجماتية [انظر: تاريخ الفلسفة الحديثة. يوسف كرم ص ٤١٦-٤١٧.

[٤]انظر: العقل والدين . وليم جيمس صــ ١٦ - 17 ترجمة د/ محمود حب الله دار إحياء الكتب العربية ١٩٤٩.

وما ذكرته البراجماتية وتمسكت به لا يختلف عما عليه الوضعية المنطقية وأنصارها ويتجلى ذلك بوضوح عندما زعمت هذه الفلسفة أن المعرفة بشيء ما لا يتم إلا من خلال إدراكه إدراكاً مباشراً.

فها هو رسل يقول:

"من الواضح أن الإحساسات هي مصدر معرفتنا بالعالم بما في ذلك أبداننا ، وقد يبدو من الطبيعي أن الإحساس في ذاته معرفة ....ومما لا ينكر بطبيعة الحال أننا نحصل المعرفة عن طريق الإحساس"[1] .

وعلى هذا الأساس اعتمدت الوضعية المنطقية الحس مصدر للمعرفة ورفضت ما عداه فرفضت القضايا الميتافيزيقية لكونها خارجة عن نطاق الحس. فهي عبارات جوفاء خالية من المعنى. هذه هي شبهة حصر الإيمان في المحسوس فقط كما عرض لها أصحابها.

وفيما يلي بيان لبطلانها متبعين في ذلك المنهج الذي طبق على الشبه السابقة.

الرد على الشبهة:-

أ- الأدلة العقلية.

لقد ساق العلماء جملة من الأدلة العقلية التي تثبت وجود عالم أخر غير العالم المنظور ومن بينها ما يلي:-

١-الدليل الفطري:

إن الدارس لأحوال الأمم والشعوب منذ خلق الله الخلق إلى يومنا هذا يستطيع أن يقف على وجود قاسم مشترك بينها وهو الإيمان بقوة يتوجهون إليها لا تدركها حواسهم مدفوعين بذلك بدافع لا شعوري وهو الفطرة.

---

(1)فلسفتي كيف تطورت . رسل صـ ١٦٤.

فقضية الإيمان بخالق للإنسان والكون والحياة قضية راسخة فى الفطرة الإنسانية عميقة الجذور عمق الشعور بالذات البشرية ؛ يلجأ إليها الإنسان عند افتقاره إلى الملجأ والملاذ ، وكما يشعر المرء بعمق غرائزه الأبوية وحب البقاء وحب التملك فى كيانه ويشعر بالقلق والاضطراب فى حياته إن لم يشبعها بالطريقة السليمة فكذلك شعوره بالاضطراب والقلق إن لم تشبع غريزة التدين فيه بإشباع الأشواق الروحية وتوجيهها الوجهة السليمة للمعبود الحق وهو الله تعالى[1] .

٢-الدليل الأخلاقى.

ومؤداه أن العقل السليم يقر بوجود الله كفكرة أخلاقية ترسخ فى النفوس الخير والصدق والرحمة وغير ذلك من الأخلاق والقيم النبيلة ، وهذا البرهان من أوضح البراهين على وجود الله تعالى.

"إننا نجد فى قرارة نفوسنا شعوراً قوياً لا سبيل إلى إنكاره ، يأمرنا بالخير وينهانا عن الشر ، ويؤنبنا ويعذبنا عند ارتكاب الذنوب والآثام فمن أين أتانا هذا الشعور ؟......... إنه ليس أتياً من الإحساس والتجربة ، لأن الحواس لا تنقل لنا إلا صور الأشياء ، وليس فى الأشياء شئ يسمى تأنيباً وتعذيباً للضمير ، وليس آتيا من العقل النظرى ؛ لأن العقل إنما ينحصر عمله فى الإدراك الحسى وتحويله إلى إدراك عقلى"[2] .

إن هذه القوة التى يطلق عليها اسم الضمير يؤمن بها الناس ولا يستطيعون إنكارها يعرفونها بآثارها وتشهد على وجود خلاف المحسوس.

٣- تعدد طرق المعرفة.

---

(1)انظر: مباحث فى التفسير الموضوعى. د/ مصطفى مسلم ص ١٥ دار القلم . دمشق ١٤١٠هـ - 1989 م.

(2)قصة الإيمان . للشيخ نديم الجسر ص ١٦٩ 170 -دار الخلود بيروت لبنان ط٣ ١٣٨٩ هـ ١٩٦٩م. ،انظر: الفلسفة الحديثة عرض ونقد د/ أحمد رمضان ص ٣٣٥ - 336 مكتبة الإيمان بالمنصورة.

فقد ذكر العلماء أن للمعرفة طرقاً أخرى غير الحواس وهى:-

الحواس السليمة. العقول النقية . الأخبار الصادقة [1] وبهذا يكون الاعتماد على الحواس دون ما عداه منهج قاصر ؛ لأن الوقوف على حقائق الأمور يكون عن الحواس وغيرها ، بل قد يتوصل إلى المعرفة عن طريق الميتافيزيقا أكثر من التجربة.

٤- وأخيراً فإن الاعتقاد بوجود عالم غير محسوس أمر ضرورى لا بد منه وذلك لعدة أمور:-

أ- أنها فوق طور العقل.

ب- أنها مرحلة ضرورية مكملة للعلوم الجزئية.

جـ- أن مهمتها الكبرى أن تكون واسطة بين الحياة العقلية والحياة العملية ، بين الواقع المتحقق بالفعل، وما يؤمل الإنسان أن يحققه بين العقل والعاطفة وفوق هذا فهى توفيق بين مختلف الآراء والمذاهب[2] .

هذه هى بعض الأدلة العقلية التى تؤكد على فساد هذه الشبهة وبطلان القول بها.

ب- أدلة العلم التجريبي على فساد الشبهة:

١-إن هذه الدعوة تتصادم مع العلم.

إن القول بأن الإيمان ينحصر فى المحسوس دعوى فاسدة يكذبها الواقع وتتنافى مع المنهج العلمى الذى يتمسكون به حيث إن عدم الإدراك لا ينافى عدم الوجود ، وعدم تصوره لا يعنى إنكاره ، فكثير من الأشياء لا يعرفها العقل ومع هذا لا يمكن إنكارها.

---

(1)التمهيد . للامشى صـ - 4142.

(2)انظر: المدخل إلى الفلسفة أزفلدكوليه صـ ٢٩٠ ترجمة أبو العلا عفيفى . مطبعة لجنة التأليف والنشر ط٢ ١٩٤٢.

فهى "أشياء موجودة فى نفس الأمر لقيام الدليل على وجودها[١] "

"فالبكتريا كائنات حية صغيرة جداً فهى لا ترى بالعين المجردة ، وإنمــا تـــرى بالمجهر والفيروسات مخلوقات أصغر من البكتريا بكثير فهى لا تـــرى بالمجـــهر العادى ، وإنما ترى بالمجهر الإلكترونى ، وهذه الكائنات لها دور مهم فـــى حيــاة البشر ، وفى حياة الحيوان والنبات والإنسان لم يكن يراها ولا يشعر بوجودها قبــل اختراع المجاهر على اختلاف أنواعها فهل لم يكن لهذه الكائنات وجود قبل اختراع هذه الآلات لمجرد أن الإنسان لم يكن يراها" [٢].

وبناءً على هذا فإن حصر الموجود فى المحسوس فقط مجرد فـــرض افترضـــه الملحدون ؛ إلا أنه غير مبنى على البراهين العلمية لكونه يتعارض مع مـــا أثبتتـــه العلوم ، فضلاً عن تعارضه مع الواقع المشاهد.

٢- التنويم المغناطيسى.

دلت الأبحاث العلمية الحديثة على أن الموجود لا ينحصر فى المحسوس فقـــط ؛ كما أن المعرفة غير قاصرة على الحواس وحدها وذلك قياساً على عملية التنويــــم المغناطيسى تلك العملية التى "تعرض لنا أمثلة كثيرة لا نصادفها فى ظاهرة الشعور على البعد لإثبات الاتصال بوسيلة غـــير وســيلة الذبذبـــات واســـتخدام الأجســـام الصنوبرية لأن النائم يتلقى عن منومه صوراً لا يتأتى تعليلها بالإشعاع أو ما شابهه مثل التيارات المادية ، وكثيراً ما تكون الوسائل المغناطيسية قائمة علـــى تخيــل لا وجود له فى عالم الحس ، ولكنه ينتقل إلى ذهن النائم لأن المنـــوم لقنـــه أو أمـــره بتلقينه وتصديقه ، وهو يرى ما فى خيال المنوم ، ولا يرى ما فى خيال غيره" [٣] .

---

(١)الرسالة الحميدية . للشيخ حسين الجسر صـــ ٢٢١.

(٢)الله سبحانه وتعالى. صلاح الدين عبد المجيد صـــ ٣٦. مطبعة الجمـــــهور الموصـــل ط٢ / ١٩٨٢م.

(٣)الفكر المهادى الحديث د. محمود عثمان صـــ ٥١٠.

إن عملية التنويم المغناطيسى صارت اليوم حقيقة ثابتة لا يمكن إنكارها ، وهـذه العملية صارت إبداعاً من حيث أن المنوم يصل إلى وسيلة علاجية ســهلة بطــرق أخرى غير الحواس.

فالتنويم المغناطيسى معلومة أولية للملاحظة العملية وفى استطاعة من وهبـــوا هذه القوة أن يستشفوا أفكار الأشـــخاص الآخريــن الســرية دون أن يســتخدموا أعضاءهم الجسدية وتتم هذه العملية من خلال تعطيل حواس الشـــخص الخــاضع للمنوم عدا حاسة السمع [1] .

وعلى هذا يجب علينا الإيمان بوجود أشياء لا تدركها الحواس ، كذا الإيمان بحـــواس أخرى لم تثبت حتى الآن.

٣-وجود قوى أخرى داخل الإنسان يدرك بها.

من بين الأدلة العملية التى استدل بها العلماء على وجود ما وراء الحس هى تلك القوى الكامنة فى الإنسان والتى من الممكن أن يحصل من ورائها علـــوم كثـيرة ومعارف متعددة فعلى سبيل المثال يرى العلماء:

"أن العقل وحده لا يستطيع إيجاد العلم ، ولكنه عامل لا مفر منه فـــىالابتـداع والعلم بدوره يقوى العقل فقد جلب للإنسانية موقفاً عقلياً جديداً علاوة على الوصول إلى الحقيقة بواسطة الملاحظة والتجريب والتفكير المنطقى فالحقيقة المستمدة مـــن العلم تختلف تماماً عن تلك المستمدة من الإيمان فالأخيرة أكــثر عمقــاً ولا يمكــن التشكيك فيها بالمجادلات .... إن الاكتشافات الكبيرة ليست نتاج العقل فقط فـإن العباقرة يملكون إلى جانب قوتهم على الملاحظة والفهم صفات أخرى مثل البصيرة والخيال المبتدع" [2] . فيقفون على حقائق الأشياء والعلاقات بين بعضها والبعــض الآخر . وهكذا فإن معرفة الإنسان للعالم اللامحسوس قد يصل إليها الإنسان عـــن

---

(1) انظر: الإنسان ذلك المجهول. الكيس كاريل . ١٤٧. تعريب . شفيق أســعد فريــد مكتبــة-المعارف- بيروت ط٣ ١٩٨٤ ، عجائب التنويم صــ ٤-٥.
(2) الإنسان ذلك المجهول . الكسيس كاربل صــ ١٤٥.

طرق أخرى غير حواسه لا سيما ، وأنها موجودة فيها ويستطيع إدراكها بالتأمل الدقيق والإيمان الصحيح.

٤- حركة الجاذبية.

فلقد أثبتت البحوث الفيزيائية والدراسات الفلكية التى استمرت طويلاً لأحوال الأجرام السماوية أن ظواهر الكون كله بدأ من أصغر ذرة وصولاً إلى أكبر نجم تتتابع فى نظام معقد ومحكم وجميع ما فيه فى حركة تجاذب مستمرة ، وهذه القوة تؤثر فى جميع الكرات السماوية لا شك فى ذلك، كما أنها "توجد بالحقيقة فى جميع المادة ، وفى أصغر أجزاء المادة ، وهكذا فإن الجاذبية هى النابضة الكبيرة الذى يحرك جميع الطبيعة" (١) .

وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على وجود قوة مهيمنة على هذا العالم أوحت إليه بهذا النظام وعلى هذه الهيئة. فالكون كله بما فيه يخضع لقانون الجاذبية .

٥- **وأخيراً** فإن حصر الموجودات فى المحسوسات فقط خطأ علمى فادح لأنه يترتب عليه جعل الوجود كله أشياء مفردة قائمة بذاتها يشار إليها بهذا .

جـ- الأدلة النقلية.

لقد ذكر الله تعالى فى الكتاب الكريم آيات متعددة توضح عدم حصر الموجود فى المحسوس من بينها قوله تعالى:

١-﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ (٢)

فالقرآن لم يبين لنا حقيقة الروح؛ لأن هذا سر من الأسرار التى اختصها الله بعلمه وتولى معرفتها.

---

(١)الرسائل الفلسفية. فولتير صـ ٨٨. ترجمة عادل زعيتر . دار المعارف ١٩٩٥م.

(٢)سورة الإسراء الآية ٨٥.

فالقرآن لم يبين لنا حقيقة الروح؛ لأن هذا سر من الأسرار التـــى اختصـــها الله بعلمه وتولى معرفتها.

٢- قال تعالى: ﴿ أوليس الذى خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴾ [١] .

فهذه الآية توضح أن هذا الكون الذى أمكننا الله إدراكه بما شاء لنا مـــن إدراك ليس هو الكون الوحيد الذى خلقه الله تعالى بل إن قدرة الخالق العظيم لا حدود لـــها ، وهو سبحانه قادر على خلق غيره من الأكوان[٢] .

هذه هى بعض الأدلة النقلية التى توضح وجود غير المحسوس ، وبها يتبيـــن أن عدم المشاهدة للشىء لا تنفى وجوده أو على الأقل إمكانية وجوده خصوصاً إذا كان هذا الأمر قد أخبر عنه الصادق المعصوم صلى الله عليه وسلم وقد يستدل على هذا الشىء بآثاره أو بطرق أخرى من طرق المعرفة.

---

(١) سورة يس الآية ٨١.

(٢) انظر: القرآن والسلوك الإنسانى محمد بهائى سليم صـــ ٣٥١ ، إلزام القرآن للماديين والملبين . د/ سيد أحمد المسير صـــ ٣٦-٣٧.

المبحث الثاني

دور فلسفة العلم في إثبات النبوة

قضية النبوة في الفلسفة الحديثة :

احتلت مشكلة النبوة في الاتجاهات الفلسفية الحديثة قدراً كبيراً من الاهتمام فبين مؤيد لها مؤمن بها ومدافع عنها، وبين معارض لها منكر لوجودها مدعٍ أن الإيمان بها عقيدة يتمسك بها السذج والبسطاء الذين ارتضوا الوصاية لغيرهم عليهم .

وواقع الأمر أن المتأمل فيما اعتمدوا عليه في إنكارهم يجد أنه لا يختلف كثيراً عما تمسك به المنكرون قديماً في هذه المسألة .

فقد أنكرت الفلسفات المادية كالداروينية ، والماركسية ، وأصحاب التحليل النفسي وغيرهم النبوة بحجة كفاية العقل لها، أو لعدم خضوعها للمنهج العلمي الصحيح على حد زعمهم .

يقول "أرنست هيكل" موضحاً موقف التطوريين من النبوة والمعجزة.

" ولما ظهر كتاب نظام العالم عام ١٩٦٧ قوض أركان خرافة العقل التي سادت على العقول ، وصدع أركان أساطير موسى التي في التوراة ، واجتاح كل هذه البدع ، وزعزع العقائد من أساسها "(١) .

ويتحدث رائد مدرسة التحليل النفسي عن النبوة قائلاً :-

" إن عالم الغيب لم يأتنا بشيء جديد بل الأمر بالعكس ؛ إذ نلتقي فيه بجملة الإرهاصات والأعاجيب ، والنبوءات والتخيلات التي انحدرت إلينا منذ عهد طويل إننا فرغنا منها؛ لأنها نتاج خيال جامح أو احتيال معرض "(٢).

---

(١) فصل المقال فى فلسفة النشوء والارتقاء أرنست هيكل صـ٦ – ٧ .

(٢) محاضرات في التحليل النفسي فرويد صـ٢٩ – ٣٠ ترجمة عزت راجح. محمد فتحى. نشر مكتبة مصر للطباعة.

أما الفلسفة الماركسية فقد أنكرت النبوة لثقتها المطلقة في العقل وقدرة المرء من خلاله التمييز بين الصالح والطالح ، هذا بالإضافة إلى قصرهم المعرفة على المحسوس فقط .

ويؤكد ذلك ما يردده أحد دعاتها في العالم العربي فيزعم " أن النبوة درجة من درجات الخيال الناشئ عن فاعلية المخيلة الإنسانية يتصل بها النبي بالملك ... فالنبوة حالة من حالات الفعالية الخلاقة للمخيلة الإنسانية ، وليست ظاهرة مفارقة للواقع وقوانينه المادية والفارق بين النبي وبين الشاعر والصوفي هو فقط في الدرجة درجة قوة المخيلة وليس في الكيف والنوع "(١) .

ويؤكد على هذا الكلام غيره من المعتنقين لها المؤمنين بها والعاملين على نشرها في عالمنا الإسلامي فيقول :

" قد تكون النبوة ضرورية لعامة الناس الذين لم يتعودوا على ممارسة النظر وإعمال العقل ، ولكنها ليست ضرورية للخاصة الذين تعودوا على النظر وعلى إعمال العقل وقد ينشأ هذا التعود إما بالطبيعة وإما بالاكتساب وإما بكليهما معاً ، وهو ما أكده الفلاسفة أيضاً ، ومع ذلك يمكن للعامة بحسها الشعبي وبصيرتها التلقائية أن تدرك حقائق النبوة خاصة العملية منها ......، وإذا كان العقل في غنى عن الرسل فقد كان بإمكان الله اضطرار العقول إلى معرفته دون معرفته من حاجة إلى اللف والدوران، وتأسيس الوحي على العقل ، وجعل من يقدح في العقل يقدح في النقل ، وإذا كان العقل هو الأساس ففيم النقل ؟ وما الفائدة من الرسل إذا كان في العقل مندوحة ؟ إذا كان العقل يحسن ويقبح فما فائدة الوحي ؟ أليس القول باكتفاء العقل استبداداً بالرأي ولكنه ثقة بالعقل وإعلان لاستقلاله

---

(١) التفسير الماركسي للإسلام د/ محمد عمارة صـ٥٥، الشروق ط٢ ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

وهو ما ترمى إليه النبوة "[1] ، هذا بالإضافة إلـــى اعتبـــار الشـــرائع مضـــادة للعقول[2] .

وهناك من يرفض النبوة لرفضه المعجزات ، معتمداً في ذلك على أنها نوع مـن الأساطير أو الخرافات التي قوضها العلم وحطم أركانها وأبان أنه لا وجود لها .

" فالنبوة كالمعجزة في كونها مخالفة للعلم الحديث ... فالذين ينكرون المعجـزات ينكرون النبوات أيضاً "[3].

" فقد ادعى "ولستون " أن المعجزات التي ورد ذكرها في العهد الجديد كـــانت في معظم الأحيان متناقضة باطلة وغير معقولة وغير جديرة بمعلم يحمل رسالة إلهية"[4].

وكتب "هيوم" في كتابة المسمى بحث في المعجزات الذي نشره عـــام ١٧٤٨ أن المعجز°ة بمعنى كونها حادثاً خارقاً للطبيعة من الأمور التي لا يمكن إثباتها قطعاً "[6]

وبجانب هذه الاتجاهات ظهر في الأفق اتجاه آخر وهو أصحاب الديانة الطبيعية التي تريد للدين " أن يبقى حراً من جميع العادات والتقاليد ويبني على الطبيعـــة الإنسانية وحدها "[7] .

---

(١) من العقيد إلى الثورة جـ٣ النبوة. صـ٥٠ – ٥١ مكتبة مدبولى.

(٢) نفس المصدر صـ٥٠ – ٥١ ، انظر دراسات إسلامية د. حسن حنفي صـ٣٠٢ نشر مكتبة الأنجلو المصرية ط١ ١٩٨١م.

(٣) مختصر القول الفصل. الشيخ مصطفى صبرى صـ٢٧.

(٤) في مواجهة الإلحاد المعاصرة د/ يحيي هاشم صـ٥٠ .

(٦) انظر المصدر السابق صـ٥٠ .

(٧) عصر الإلحاد . محمد تقي الأمين الندوي صـ٦٤ .ترجمة د/ مقتضى حسن ياسين– مراجعة د/ عبد الحليم عويس دار الصحوة للنشر والتوزيع.

وقد أقامت مذهبها على اعتبار أن في العقل مندوحة عن الوحي ، وبالتالي فــلا حاجة للنبوة أو الرسالة وهذا ما رددته الطوائف المنكرة قديماً كما سبق وأشــار البحث إلى ذلك .

وقد ترتب على ظهور هذه الديانة أن تكون في الغرب نظرة جديدة ترفض كــل أشكال الوصايا " وتقنع بما يسمى الطبيعة، وتستغنى عما فوق الطبيعــة كأنــها تقول نشكرك اللهم على نعمتك، ولكننا بغير حاجة إليها "[1].

وقد أقامت هذه الديانة رفضها للنبوة اعتماداً على رفضها للوحي فــهى تريــد " فلسفة عن الله بلا وحي "[2].

ولهذا حرصت على أن تبعد " الفلسفة من كل تأثير للوحي فيــها ، كمــا أنــها عاملت الوحي بوصفه معادياً للتعقل والفلسفة عداءً جوهرياً "[3].

"إن كمال الله يقتضي بوجود طريق للخلاص مثير لجميع الناس ، أما رســالات الوحي أو الديانات الخاصة فهي بالضرورة جزئية وتفصيلية والله لا يفعل ذلك ، وإن ما هو ضروري يجب أن يكون الله قد غرسه في عقل الإنسان الطبيعــي ، وجعله مثيراً في جميع العصور وفي جميع الأمكنة "[4] وينقل بعــض العلمــاء شرحاً لهذا الكلام على لسان أحد دعاة هذه الديانة فيقول:-

" إن أحسن الأديان هو أقدمها ، وقد اكتسب أول إنسان عمله وتقــواه مــن الله تعالى مباشرة ، وحينما ترك الناس الدين الطبيعي الذي أودع في طبائعهم مــع العقل فقد ضلوا ، ويكفي الناس أن يحتكموا إلى القــانون الطبيعــي ، والديــن

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة. يوسف كرم صـــ ٦.

(٢) الله في الفلسفة الحديثة . جيمس كولينز صـــ٤٢ .

(٣) نفس المصدر صـــ٤٤ .

(٤) في مواجهة الإلحاد المعاصر د/ يحيي هاشم صـــ٤٨ .

الطبيعي ، ويمكن الاستغناء عن غيره من الأديان مثل اليهودية والنصرانية والإسلام "[1] .

فهذه الديانة ترفض النبوة وتنكرها وتنكر جميع الحقائق المتعلقة بها كالوحي والمعجزة ويؤكد ذلك أنه كان يوجد بعض المفكرين الأحرار أو الإباحيين ملحدين، أصلاً بيد أن معظمهم كانوا ممن يمكن أن نطلق عليهم اليوم اسم التأليهيين أو رجال الدين الطبيعي؛ أعني أنهم يؤمنون بآله وبالقانون الأخلاقي الرواقي في معظم الأحيان ، ولكنهم لم يكونوا يؤمنون بالمسيح أو بالكنيسة "[2].

هذه هي الاتجاهات الحديثة وموقفها من النبوة فمن يرفضها لرفض العقل لها لاشتمالها على مستقبحات فضلاً عن كفاية العقل لها ، وقد سبق دفع هذه الشبه.

وهناك من رفضها بزعم خروجها عن المنهج العلمي، فهي لا تخضع للتجربة وإنما هي نتاج خيال لذا فهي لا تقع تحت الحس ، وقد سبق بيان بطلان هذا القول وفساده .

وهناك من رفضها لرفضه المعجزة والطعن فيها من نواحٍ عديدة كالطعن في إمكان وقوعها ، أو إنكار دلالة المعجزة على صدق الرسول ، أو الطعن في إمكان العلم بها .

وسيأتي الرد على منكري المعجزة في المبحث الخاص بها .

ويتبقى أصحاب الديانة الطبيعية التي أنكرت النبوة لرفضها الوحي وهذا ما سنعرض له في الصفحات التالية، ولكن لابد من الإشارة إلى أن هذه الردود التي يرد بها على اتباع الديانة الطبيعية ستكون من خلال النقاط التالية .

١- التعريف بالوحي　　　　　　٢-طرق الوحى والأدلة عليه

---

(١) عصر الإلحاد . محمد تقي الندوي صـ٦٤ - ٦٥ .

(٢) الله في الفلسفة الحديثة صـ٧٠ - ٧١ ، وانظر نيتشه د/ مصطفى غالب ص٦٤ - ٧٢ منشورات ومكتبة الهلال ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

٣-إمكان الوحي من الناحية العقلية ٤-إمكان الوحي من الناحية العلمية

٥-إمكان الوحي من الناحية الشرعية ٦-دليل وقوعه

هذا وإذا كانت هذه الردود يرد بها على أصحاب الديانة الطبيعية فإنها تصلح أيضاً أن تكون ردوداً على أصحاب الاتجاهات الأخرى.

الوحي

موضوع الوحي من أهم الموضوعات العقدية فهو أساس الدين ، وأصل النبوة ووسيلة الاتصال بين الخالق عز وجل وبين المخلوق ، فعن طريقه تعرف الأصول والأحكام والحدود والمعاملات ، وغير ذلك من الموضوعات التي شرعها الله تعالى لعباده على لسان رسله بواسطة الوحي ، ولإثبات حقيقة الوحي لابد من الوقوف على عدة نقاط هي :

تعريفه : في اللغة يطلق الوحي في اللغة على معان متعددة منها الإلهام : قال تعالى ﴿ **وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ...** ﴾[1] .

الإشارة : قال تعالى : ﴿ ... **فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا** ﴾[2] .

الرؤيا الصادقة: قال تعالى: ﴿ ... **إني أرى في المنام أن أذبحك فانظر ماذا ترى ...** ﴾[3] .

كما يراد به الموحي به : قال تعالى ﴿ **إن هو إلا وحي يوحى** ﴾[4] .

كما يراد به الأمر قال تعالى : ﴿ **وإذ أوحيت إلى الحوارين أن آمنوا بي وبرسولي** ﴾[5] .

هذه بعض معاني الوحي في اللغة وواقع الأمر أن من يتأملها يجد أنها تشير إلى معان أخرى كثيرة، فتشير إلى الإعلام في الخفاء ، وتشيراً أيضاً إلى السرعة

---

(1) سورة النحل الآية ٦٨ .
(2) سورة مريم الآية ١١ .
(3) سورة الصافات الآية ١٠٢ .
(4) سورة النجم الآية ٤ .
(5) سورة المائدة الآية ١١١ .

كما تشير إلى الصوت والكتابة ، والأمر والإشارة عن طريق اليد[1]

هذه هي معاني الوحي في اللغة ، وعلى تعددها فهناك معنى جامع بينها وهو أن الوحي في اللغة يراد به الإعلام الخفي السريع بمن يوجه إليه بحيث يخفي على غيره[2] .

وقد يكون بالرسالة أو الكتابة أو الإشارة أو الصوت أو الإلهام الغريزي .

الوحي في الاصطلاح :

عرف الوحي في الاصطلاح بأنه " الإعلام بالشرع ، وقد يطلق ويراد به اسم المفعول منه أي الموحى ، وهو كلام الله المنزل على النبي (ﷺ) " [3].

وقيل هو " إعلام الله تعالى لنبي من أنبيائه ، بحكم شرعي ونحوه .... أو هو عرفان يجده الشخص مع نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله تعالى بواسطة أو بغير بواسطة "[4] .

فالوحي بناء على ما سبق هو ما يوحي الله تعالى به إلى نبي من أنبيائه بطريقة غير مألوفة للبشر ، وبهذا التعريف الاصطلاحي يتحدد المراد من وحي النبوة.

طرق الوحي والأدلة عليه:

للوحي طرق ثلاثة على نحو ما جاء في الآية الكريمة . قال تعالى : **﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليم حكيم﴾** [5] .

---

(1) انظر : لسان العرب لابن منظور جـ١٥. صـ٢٤٠ - ٢٤١ طبعة جديدة دار إحياء التراث العربي – بيروت لبنان مؤسسة التاريخ الإسلامي ط٣ / ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م ، القاموس المحيط للفيروز آباري صـ١٧٥٨ ، معجم ألفاظ القرآن. للراغب الأصفهاني ٥٨٦ - ٥٨٨ .

(2) الوحي المحمدي – محمد رشيد رضا صـ٢٩. ط مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

(3) فتح الباري بشرح صحيح البخاري جـ١ صـ١٤-١٥ دار الريان للتراث المكتبة السلفية

(4) رسالة التوحيد . الشيخ محمد عبده صـ١٠٩ وانظر الوحي المحمدي . محمد رشيد رضا صـ٣٠ ، مناهل العرفان للزرقاني جـ١ صـ٦٣.

(5) سورة الشورى الآية ٥١ .

فهذه الآية تدل على أن تكليم الله للبشر يتم بطريقة من هذه الطرق الثلاثة يقول الزمخشري عند تفسيره لهذه الآية :-

وما صح لأحد من البشر أن يكلمه الله إلا على ثلاثة أوجه : إما على طريقة الوحي، وإما على أن يسمعه كلام الذي يخلقه في بعض الأجرام من غير أن يبصر السامع من يكلمه لأنه في ذاته غير مرئي، وإما على أن يرسل إليه رسولا من الملائكة فيوحي الملك إليه كما كلم الأنبياء غير موسى ، وقيل وحيا كما أوحي إلى الرسل بواسطة الملائكة [1].

وفيما يلي عرض لهذه الطرق بشيء من التفصيل

١- الكلام وحيا

ومعناه وصول وحي الله تعالى إلى النبي من غير واسطة فالوحي هنا يأتي بمعنى الإلقاء والقذف في القلب أو المنام وهو على أقسام ثلاثة:

أ- الإلهام . كما في قوله تعالى : ﴿ **وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه....** ﴾ [2].

ب- القذف في القلب وذلك مثل إيحاء الزبور إلى داود عليه السلام في صدره .

ج- الرؤيا الصادقة في المنام وذلك مثل ما حدث لإبراهيم عليه السلام مع ولده إسماعيل [3] .

﴿ **فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك** .... ﴾ [4].

والرؤيا الصادقة كانت بداية الوحي للرسول (ﷺ) عن عائشة رضي الله عنها قالت :أول ما بدئ به رسول الله (ﷺ) من الوحي الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ..... [5] .

---

(1) انظر: تفسير الكشاف للزمخشري عن تفسير لهذه الآية جـ٤ . صـ٢٣٣ .
(2) سورة القصص الآية ٧ .
(3) انظر تفسير الرازي م١٤ جـ٢٧ صـ١٨٧ عند تفسيره للآية ٥١ من سورة الشورى.
(4) سورة الصافات الآية ١٠٢.
(5) صحيح البخاري للإمام البخاري كتاب بدء الوحي جـ١ صـ٥٩ ، وانظر مدارج السالكين . لابن القيم جـ١ صـ٥٠-٥١ دار الفكر

٢- الكلام من وراء حجاب

وفيه يكلم الله تعالى نبيه مباشرة دون واسطة فيسمع النبي كـــلام ربـــه دون أن يدركه بالبصر .

وقد أخبرنا الله عن وقوع هذا النوع من الوحي في مواضع كثيرة منها وقوعـــه لآدم عليه السلام ، وذلك عندما خاطبه " حيـــن نفـــخ فيـــه الـــروح ، وأعلمـــه بالضرورة معرفة ربه ، وأنه هو الذي خلقه وخاطبه وعلمه في الحال الأســـماء كلها علما ضروريا غير مكتسب "[1].

قال تعالى: **﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكـــة فقـــال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ﴾** [2] .

وبهذه الطريقة كلم الله تعالى سيدنا محمد ليلة الإسراء والمعراج قال تعالى: **﴿ ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى ما كـــذب الفؤاد ما رأى ﴾**[3] .

والمعنى : أوحى إلى محمد (ﷺ) ما أوحاه إلى جبريل أي كلمه الله أنه وحي أو خلق فيه علما ضروريا أو أوحى إلى جبريل ما أوحى إلى محمد دليله الذي بـــه يعرف أنه وحي[4].

٣- الكلام بواسطة الملك

وهذا هو القسم الثالث ، ويكون بواسطة أمين السماء سيدنا جبريل عليه الســـلام فهو الموكل بالوحي إلى الأنبياء ، وهذا النوع هو أوضح الأنواع جميعـــا ففيـــه يأمر الله الملك بما يأمره به فيهبط على الرسول فيلقنه على نحو ما أمر ، ومـــن هذا النوع نزول القرآن على سيدنا محمد (ﷺ)

---

(1) أصول الدين للبغدادي صـــ١٥٦ .
(2) سورة البقرة الآية ٣١ .
(3) سورة النجم الآيات ٧-١٠ .
(4) انظر: تفسير الرازي م٢٤ . جـــ٢٨ صـــ٢٨٩ ، وانظر تفسير ابـــن كثـــير جـــ٤ صـــ٣٨٧ .

قال تعالى : ﴿ **قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن اتبع إلا ما يوحي إلى .... ﴾** [1].

وقال تعالى: ﴿ **نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين ﴾** [2].

وهذا النوع يأتي على صور مختلفة :

أ- أن يرى النبي الملك على صورته الحقيقية التي خلق عليها وذلك ما حدث للرسول (ﷺ) في غار حراء .

عن عائشة قالت: (أول ما بدئ به الرسول (ﷺ) من الوحي الرؤيا الصالحة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه وهو التعبد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك، وقال اقرأ قال ما أنا بقارئ قال : فأخذني فغطنى الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : إقرأ فقلت ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطنى الثالثة ثم أرسلني فقال:﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم ﴾**[3] فرجع الرسول(ﷺ)يرجف فؤاده..)[4]

---

(1) سورة يونس الآية ١٥.

(2) سورة الشعراء الآيات ١٩٣ – ١٩٥ .

(3) سورة العلق الآيات ١ – ٣ .

(4) الحديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه كتاب بدء الوحي جـ١ صـ٥٩ حديث رقم ٣ ، والإمام مسلم في صحيحه بشرح النووي ك الإيمان باب بدء الوحي إلى رسول الله (ﷺ) م١ جـ٢ صـ١٩٥ حديث رقم ١٥٢ .

وفي صحيح مسلم لما سئلت عائشة عن قولة ﴿ ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾[1] .

قالت : (إنما ذلك جبريل عليه السلام كان يأتيه في صورة الرجال وأنه أتاه في هذه المرة في صورته التي هي صورته فسد أفق السماء)[2] .

ب- أن يأتي الملك النبي على صورة رجل يراه النبي هو ومن حوله ، ولا عجب في ذلك ، فالملائكة قادرون على ذلك فقد ثبت ظهورها في صور مختلفة "وتقوى على أفعال شاقة . هم عباد مكرمون يواظبون على الطاعة والعبادة " [3]

وقد ثبت أن جبريل كان يأتي النبي على صورة دحية الكلبي .

ففي الحديث (خرج النبي (ﷺ) فمر بمجالس بينه وبين بني قريظة ، فقال هل مر بكم من أحد ؟ قالوا مر علينا دحية الكلبي على بغلة شهباء تحته قطيفة ديباج فقال النبي (ﷺ) ليس ذلك بدحية ، ولكنه جبريل عليه السلام أرسل إلى بني قريظة ليزلزلهم ويقذف الرعب في قلوبهم ...... الحديث)[4] .

جـ - أن يأتيه خفية لا في صورته الأصلية ، ولا في صورة أحد من البشر ، و إنما يسمع النبي عند قدومه كلام ، ولا يسمعه غيره ويستغرق في لقائه " فيبدو في مظهر النائم أو الغائب ، وما هو على شيء من ذلك ، وإنما هو لقاء الملك ،

---

(1) سورة النجم الأيتان ٨ – ٩ .

(2) مسلم ، في صحيحه بشرح النووي . كتاب الإيمان باب معنى قول الله عز وجل "ولقد رآه نزلة أخرى" م٢ جـ٢ صـ٨ حديث ٢٩٠ المكتب الثقافي للنشر ط١ ٢٠٠١ .

(3) شرح المقاصد . جـ٢ . صـ١٤٦ .

(4) دلائل النبوة. للبيهقي جـ٤ صـ٩ . حققه وعلق عليه د/ عبد المعطي قلعجي . دار الريان للتراث ط١ ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨ .

وضرورة ذلك اللقاء أنه نوع من الانخلاع من البشرية إلــي الاســتغراق فــي الروحانية مع الملك "[1].

وفي هذه الحالة قد يحدث أن يسمع صوتا كصلصلة الجرس فيفهم ويتعلم منـــه ويعي ما يوحيه إليه .

عن عائشة رضي الله عنها أن الحارس بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله (ﷺ) فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله (ﷺ) أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيــت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل إلى الملك رجلا فيكلمني فأعي مــا يقــول قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليــوم الشــديد الــبرد فيفصم عنه ، وأن جبينه ليتفصد عرقا)[2] .

فهذه الحالة تعد من أصعب الصور التي يتلقى فيها الرسول الوحـــي حتــى أن الرسول كان يظهر وكأنه في حال الغائب أو النائم " ولأجل هذه الحالة في تنزل الوحي كان المشركون يرمون الأنبياء بالجنون ، ويقولون له رئي أو تابع مـــن الجن ، وإنما لبس عليهم بما شاهدوه من ظاهر تلك الأحوال "[3].

ويعلل ابن حجر شدة الوحي على الرسول(ﷺ) نتيجـــة لاختــلاف الطبيعيتيــن فالأولى روحانية والثانية بشرية[4] . ولذا قال الله تعالى ﴿ **قل سبحان ربـــي هل كنت إلا بشرا رسولا** ﴾ [5] .

" فبطرف يقبل الوحي ، وبطرف يؤدي الرسالة "[6] .

---

(1) النبوة والتنبؤ د/ طه حبيش صــ١٠٠ .
(2) صحيح البخاري كتاب بدء الوحي جــ١ صــ٥٩ حديث رقم (٢٢).
(3) مقدمة ابن خلدون صــ٦٦ .
(4) فتح الباري بشرح صحيح البخاري جــ١ صــ٢٨ ، وانظر دلائل النبوة د/ عبد الحليــم محمود صــ٦٣ . نشر مكتبة نهضة مصر .
(5) سورة الإسراء الآية ٩٣ .
(6) نهاية الأقدام للشهر ستاني صــ٤٦٥ ، وانظر : المدخل إلى السنة النبوية د/ عبد المهدي بن عبد القادر بن عبد المهدي ص٦٥ - ٧٠ دار الاعتصام ١٤١٩هــ / ١٩٩٨

فللوحي بناء على ما سبق طرق ثلاثة ، وقد وقعت جميعها للرسول (ﷺ) فقد كان أول ما بدئ به من الوحي الرؤيا الصادقة ، كما أنه شاهده على صورته الحقيقية في غار حراء ، وشاهده في صورة دحية الكلبي، وأحيانا سمع له صوتا كصلصلة الجرس وفوق هذا كله عرج به ليلة الإسراء .

هذه هي صورة الوحي وقد وقعت وقد شاهد البعض بعض هذه الصور ، الأمر الذي يتأكد معه صدق الوحي وإمكانية وقوعه.

إمكانية الوحي من الناحية العقلية

وحي الله تعالى إلى أنبيائه ممكن الوقوع لما هو مقرر في العقول من أن الله تعالى هو المتصرف في ملكه الخالق لكل شيء ، والمالك لكل شيء قال تعالى:﴿ **قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير** ﴾ (١).

فالوحي ممكن ، وكل ممكن جائز الوقوع ، وقد أخبر به النبي (ﷺ) فهو واقع لا محالة . ويتوقف إمكان وقوعه على أمرين هما : -

أ- استعداد نفس النبي لتلقي الوحي ب- وجود ملائكة تبلغ الوحي

ويتحدث ابن خلدون : عن الأمر الأول : مؤكدا من خلاله على إمكانية الوحي من الناحية العقلية فيقول " اعلم -أرشدنا الله وإياك- أنا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والإحكام وربط الأسباب بالمسببات ، واتصال الأكوان بالأكوان ، واستحالة بعض الموجدات إلى بعض في ذلك ولا تتناهى غاياته .... ، وانظر إلى الإنسان صاحب الفكر والرؤية ترتفع إليه من عالم القدرة الذي اجتمع فيه الحسن والإدراك ، ولم ينته إلى الروية والفكر بالفعل ، وكان ذلك أول أفق من الإنسان بعده وهذا غاية شهودنا ، ثم إنا نجد في العوالم على اختلافها آثارا متنوعة في عالم الحس آثار من حركات الأفلاك ، والعناصر في عالم التكوين، آثارا من حركة النمو والإدراك تشهد كلها بأن لها

---

(١) سورة آل عمران الآية ٢٦.

مؤثرا مباينا للأجسام فهو روحاني ويتصل بالمكونات لوجود اتصال هذا العالم في وجودها ، وذلك هو النفس المدركة والمحركة ولابد فوقها من وجود آخر يعطيها فوق الإدراك والحركة ويتصل بها ويكون ذاته إدراكا صرفا وتعقلا محضا ، وهو عالم الملائكة فوجب من ذلك أن يكون للنفس استعداد للانسلاخ من البشرية إلى الملكية ، ليصير بالفعل من جنس الملائكة وقتا من الأوقات في لمحة من اللمحات ، وذلك بعد أن تكمل ذاتها الروحانية بالفعل .... ويكون لها اتصال بالأفق الذي بعدها شأن الموجودات المرتبة "[1].

فالوحي بناء على ما سبق ممكن الوقوع من الناحية العقلية، ومما يساعد على تأكيد هذه الحقيقة اختلاف النفوس وتفاوتها ، فمن النفوس لا صلة لها بعالم الروحانيات ، ومن النفوس ما يمكنها الوصول إلى هذا العالم.

يقول ابن خلدون: "والنفوس البشرية على ثلاثة أصناف : صنف عاجز بالطبع عن الوصول إلى الإدراك الروحاني فينقطع بالحركة إلى الجهة السفلى نحو المدارك الحسية والخيالية ..... وصنف متوجه بتلك الحركة الفكرية نحو العقل الروحاني والإدراك الذي لا يفتقر إلى الآلات البدنية بما يجعل فيه من الاستعداد لذلك فيتسع نطاق إدراكه عن الأوليات التي هي نطاق الإدراك الأول البشري ويسرح في فضاء المشاهدات الباطنية وهي وجدان كلها لا نطاق لها من مبدئها ولا منتهاها وهذه مدارك العلماء الأولياء أهل العلوم اللدنية، والمعارف الربانية ... وصنف مفطور على الانسلاخ من البشرية جملة جسمانيتها وروحانيتها إلى الملائكة في الأفق الأعلى ليصير في لمحة من اللمحات ملكا بالفعل ، ويحصل له شهود الملأ الأعلى في أفقهم، وسماع الكلام النفسي والخطاب الإلهي في تلك اللمحة وهؤلاء الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم جعل الله لهم الانسلاخ من البشرية في تلك اللمحة ، وهي حالة الوحي فطرة فطرهم الله عليها "[2].

---

(1) مقدمة ابن خلدون صـ٦٨-٦٩ دار ابن خلدون بالإسكندرية.
(2) المصدر السابق صـ ٦٩-٧٠ .

من خلال هذا يتضح أن الوحي من الناحية العقلية ممكن ، ويتوقف إمكانه على استعداد نفس النبي لتلقي ما يوحي به إليه ، وقد اتضح أيضا إمكانية هذا.

أما بالنسبة للأمر الثاني : وهو وجود ملائكة مبلغة للوحي عن الله تعالى فهذا أيضا لا استحالة فيه خصوصا " بعدما عرفنا من أنفسنا وأرشدنا إليه العلم قديمه ، وحديثه عن اشتمال الوجود على ما هو ألطف من المادة وإن غيب عنا ، فلأي منع من أن يكون هذا الوجود اللطيف مشرقا لشيء من العلم الإلهي ، وأن يكون لنفوس الأنبياء إشراف عليه فإذا جاء به الخبر الصادق حملنا على الإذعان بصحته "[1].

" وإذا كان عنصر العقل في هذه الأكوان أكبر من أن يحصره رأس الإنسان وحده فانتقال المعرفة منه إلى عقل الإنسان جائز جدا أو جائز على الأقل كجواز الانتقال بين الأفكار على تباعد الأمكنة والعقول ، وإذا كان العقل الإنساني لا ينفي بالدليل المقنع وجود العقل الأبدي فليس له أن يجزم باستحالة شيء مما يستطيعه ذلك العقل الأبدي من العلم بالأبد كله أو من القدرة على الإيحاء به إلى من يشاء أو من القدرة على خوارق العادات؛ لأن الخوارق بالنسبة إليه كالعادات ، ولأن التغيير عنده كالإنشاء والإبداع ، إذ ليست قدرته تغيير ما حدث دون قدرته على الخلق لأول مرة في زمن بعيد أو من زمن قريب " [2].

وعلى هذا فالوحي من الأمور الممكنة عقلا ، فلا يمنع العقل وجود مخلوقات أخرى نورانية لحمل وحي الله تعالى إلى رسله وأنبيائه ليقوموا بتبليغه إلى الخلق ، وكونه غيبا فإن هذا ليس حجة للإنكار ، فكثير من الأمور غابت عنا ، فهذه أرواحنا تسري بين أجسادنا ، نقر بوجودها ونحن لا نراها ، فادعاء رفض الوحي لعدم مشاهدته غير صحيح؛ فكثير من حقائق الأشياء لم يعرفها العلم المادي ، ولن يعرفها مهما مر الزمان.

---

(1) رسالة التوحيد- للشيخ محمد عبده صـ ١١٢-١١٣.

(2) التفكير فريضة إسلامية . عباس العقاد صـ٨٩-٩٠ . الهيئة المصرية العامة للكتاب - مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٨ .

لهذا مدح الله المؤمنين . فقد علموا أن هناك أمورا تخرج عن حدود عقولــــهم ، فآمنوا بها ، وصدقوا بوجودها ، فقال تعالى :**﴿ ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هـــدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾**[1].

وقصارى القول أن جملة الغيبيات شيء يعلمه الله ، ولا يعلمه الإنسان ولكنها لا تناقض العقل ولا تلغيه ، فليست هي ضد العقل لو عرفها وانكشف له الغطـــــاء عنها . ولكنها فوق كل عقل الإنسان؛ لأنه محدود وعالم الغيـــب مطلـــق غـــير محدود .

إمكان الوحي من الناحية العلمية.

إذا كان الوحي ممكن من الناحية العقلية ، فإنه ممكن الوقوع من الناحية العلميـــة ، فقد دلت الأبحاث العلمية على ذلك . وقد ساق العلماء المحدثون أدلة متعـــددة لإثبات هذه المسألة ، ويمكن من خلال هذه الأدلة إثبات هذه الحقيقة .

" إن هناك وقائع كثيرة جدا تجري من حولنا في كل لحظة ، ونحن نعجز عـــن إدراكها أو سماعها ، أو الإحساس بواسطة أجهزتنا العصبية ، وقد استطاع العلم الحديث أن ييسر لنا إدراكها بفضل الأجهزة العلمية التي اخترعناهـــا ، وهـــذه الأجهزة تستطيع أن تدل على صوت ذباب طائر على بعد بضعة أميال وكأنـــه يطير عند أذنك ، ومن الأجهزة العلمية ما وصل التقدم فيه إلى حد أنها تســـجل صدام الأشعة الكونية في الفضاء . لقد اخترعنا آلات كثيرة أثبتت أنها تســـتطيع إدراك كثير جدا من الأحداث التي لا يمكننا سماعها بالطرق السمعية التقليدية " (٢).

وفيما يلي عرض لنماذج من الغيبيات التي يعترف بها الملحدون ، ومن خلالـــها يتضح لنا إمكانية الوحي من الناحية العلمية .

١-العقل الباطن:

أحد القوى الموجود بداخل الإنسان فهو قوة غيبية داخل الإنسان ، تقوم بشـــئونه فتدير جسمه ، وعن طريقها يمكن تفسير ظواهر متعددة ، كما أنها ذات صلــــة

---

(١) سورة البقرة الآيات ١ -٤ .

(٢) الإسلام يتحدى . وحيد خان صـــ١٠٧.

بعالم الغيب أي العالم الروحاني فهو لا يرى ولا يشاهد ، وأن عرف بآثاره يقول بعض الباحثين :

يرجح أن أكثر الظواهر الخاصة بتحضير الأرواح يمكن تفسيرها بفعل العقـــل الباطن الوسيط ، فإن تجارب حديثه تفتح أمامنا هذه الوجهة باحات عجيبة لنذكر منها التحقيقات التي عملها الدكتور (كروفورد) أستاذ الميكانيكا بالمجمع العلمـي الصناعي لمدينة " بلفور" هذا العالم الطبيعي الذي هو أجدر أن يعد خصما للعلوم الباطنية لا مشايعا لها يسلم بوجود قوى نفسية حالة فينا تحدث آثـارا لا يمكـن الشك فيها على الأشياء المادية ... فللعقل الباطن آثاره باعتباره قـــوة روحيـــة فجميع سلسلة الحوادث الخارقة للعادة يمكن أن يأتي مثلها ذلك العقل البـاطن إذا تخلص من الطبقات العميقة لذاتنا ، فالعقل الباطن يتجلى لنا بمظاهر تدل عليـــه ولا يمكن الشك فيها أن هذه الظواهر تمتد إلى أبعد ما يحيط به النظر فيكون مـا يناقض العلم ، فلا يمكن التصديق بالأصل المادي وحده؛ فإن العقل الباطن يلفت نظرنا إلى أمور أخرى لا ندركها(١).

٢-الإشراق والكشف :

هذا الدليل العلمي هو الآخر يثبت إمكان الوحي ، فقد جعل العلماء منه برهانـــا علميا على إمكانية الوحي ، فقد اتضح من خلالـــه " أن تجـارب الإشـراق أو الانكشاف ومعرفة الغيب لا تخص الحيوانات ، وإنما توجد في الإنسان بـــالقوة .... إن حدود الفرد في إطار الزمان والمكان هو مجرد افـــتراض ، فيســتطيع عامل الإشراق أن يجعلك تنام وتضحك أو تبكي ، كما يستطيع أن ينقـــل إليــك كلمات أو خواطر لست على علم بها ، أنها عملية لا تستعمل فيها آلة أو وسـائل ، ولا يشعر بها غير عامل الإشراق وصاحبه " (٢) وبناء على هذا لا يســتحيل وقوع العملية نفسها بين العبد وربه ، مع الفارق بين قدرة الرب وقدرة العبد .

---

(١) انظر: على أطلال المذهب المادي . محمد فريد وجدي جـ٣ صـ٩-١٢ .
(٢)الإسلام يتحدى . وحيد خان صـ١٠٨ .

فالعاقل بعد أن يطلع على مثل هذه الأمور ليس أمامه سوى الإيمان بالله تعالى ، وبالوحي الذي يرسله إلى من يصطفيه من عباده لتبليغ شرعه.

٣-مخترعات العصر:

المخترعات التي يذخر بها هذا العصر تؤيد إمكانية الوحي وأول هذه الآلات التليفون بأنواعه لمختلفة " فجميع الاتصالات السلكية التي وصل إليها العلم من جهة نقل الأخبار ، ويضاف إليها جميع أجهزة التجسس التي تلتقط الأخبار عن بعد و قرب "(١).

وثاني هذه الآلات الإذاعة والتليفزيون فهي الأخرى تنقل إلينا نوعا من الأخبار عن طريق الصوت والصورة ويمكن للقائمين علي أمرها التحكم في الإذاعة أو عدم الإذاعة.

" والإنسان يجلس وحيدا وبجانبه راديو مغلق في مكان بعيد فإنه لا يسمع شيئا مما يحدث في الوجود من الأصوات إلا أنه بفتحه للمذياع يبدأ يسمع من لندن تارة ، وتارة من الرباط ، وتارة من القاهرة " (٢).

وشبكة المعلومات المعروفة "بالإنترنت" يستطيع الإنسان من خلالها الوقوف على حقائق كثيرة مهما تباعدت المسافات ، واختلفت الجنسيات ، وتباينت الأزمنة .

إن الاختراعات التي وصل إليها العلم الحديث نوع من العلم الثابت المتيقن وجوده ، كلها تؤكد إمكانية الوحي. نعم هذه الاختراعات قد تبدو للبعض نوعا من الأعاجيب إلا أنها في عصرنا هذا تقرب لنا فهم عملية اتصال العبد بربه ، وذلك عن طريق الوحي .

---

(١) العقيدة والفكر الإسلامي . د . محمد هشام سلطان صـ١٠٢

(٢) المصدر السابق صـ١٠٣ .

٤-القوى الموجودة في الحيوانات:

من الأشياء التي تقرب للأذهان إمكانية الوحي ، تلك القوى الموجودة في الحيوانات ، فقد أثبت العلم كثير من الحقائق التي تساعدنا على إمكانية الوحي ، ومن هذه الحقائق ما يتوافر لدى بعض الحيوانات من أجهزة وما يوجد فيها من قوى .

" فالكلب مثلا يستطيع أن يشم ريح الحيوان الذي مر من الطريق ومن ثم استغلت الكلاب في البحث عن الجرائم والمجرمين ... فالقفل الذي كسره اللص يشمه الكلب المدرب ثم ينطلق مقتفيا أثر الرائحة المعينة التي وجدها عندها القفل المكسور، وفجأة تراه يمسك باللصوص من بين الألوف ... وقد أثبتت البحوث أيضا أن أبو النطيط العادي لديه قدرة خارقة على السماع حتى أنه يستطيع أن يسمع ويحس الحركة التي تحدث في نصف قطرة من ذرة الهيدروجين"(١).

وإذا كان الأمر على هذا النحو فما المانع إذا من وقوع الوحي إذا ما توفر استعداد في نفس النبي لتلقي الوحي ووجد الملك الذي يبلغ وحي الله إليه .

٥-التنويم المغناطيسي:

وهذا الدليل يعطينا تفسيرات متعددة تؤيد إمكانية الوحي وقد اطمأن العلماء إلى تجاربه وانتهوا من خلاله إلى ما يلي :-

" أن للإنسان عقلا باطنا أرقى من عقله المعتاد كثيرا أنه في حالة التنويم يرى ويسمع من بعد شاسع ويقرأ من وراء حجب ويخبر عما سيحدث مما لا يوجد في عالم الحس أقل علامة لحدوثه، فهناك روح مستقلة عن الجسم لا تنحل بانحلاله إلى غير ذلك مما لا نسلم جميع تفاصيله تقليدا وإن كنا نسلم هذا العلم وتجاربه وقراراته في الجملة"(٢).

هذه بعض النماذج التي يتعامل معها الماديون باسم العلم ، ويؤمنون بها مع أنهم لا يرونها .

---

(١) الإسلام يتحدى . وحيد خان صـ١٠٧ – ١٠٨ .

(٢) مناهل العرفان . للزرقاني جـ١ صـ٦٦ .

وعلى هذا نستطيع القول : إن الوحي ظاهرة كهذه الظواهر ، ويكفي لإمكان وجوده ما نشاهده من آثار واضحة في سلوك الناس ، وتقويم حياتهم وتبصيرهم بأمورهم للصلاح في الحال والفلاح في المآل ، وبهذا يتضح لنا خطأ إنكار الوحي لإمكانية وقوعه .

وبناء على ما سبق عرضه يتضح لنا أن إنكار النبوة بدعوى إنكار الوحي ، دعوة لا أساس لها من الصحة ولا سند لها يدعمها .

فدعوى إنكار الوحي بزعم أنه غيب لا يرى غير صحيح

فالغيب غير مستحيل والعلم به لا يدخل في باب الممنوعات(١)

أو غير المعقولات(٢) .

إمكان الوحي من الناحية الشرعية

إمكان الوحي من هذه الناحية له أدلة كثيرة في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة

قال تعالى ﴿ **ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك** ...... ﴾ [٣] .

قال تعالى ﴿ **ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده** ...... ﴾ [٤] .

قال تعالى ﴿ **نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين** ......﴾ [٥].

والى جانب هذه الآيات ، نجد كما آخر من الآيات التي أشارت إلى الوحي ، وإمكانية وقوعه[١] .

([١]) التفكير فريضة إسلامية . عباس العقاد صـ٨٩ .

([٢]) لمزيد من الأدلة حول هذا الموضوع انظر : الكتب التالية . الإسلام يتحدى ، وجيد خان صـ١٠٧ – ١٠٩ ، على أطلال المذهب المادي محمد فريد وجدي جـ٣ صـ٩ – ١٤ ، الإنسان ذلك المجهول صـ١٤٤ – ١٤٩ . مناهل العرفان جـ١ صـ٦٥ – ٧٣ – النبوة والتنبؤ صـ١١١ – ١١٣ .

([٣]) سورة آل عمران الآية ٤٤.

([٤]) سورة النحل الآية ٢.

([٥]) سورة الشعراء الآيتان ١٩٣ – ١٩٤

أما السنة فقد أفاضت هي الأخرى في الحديث عن هذا الموضوع ، عن عائشــة رضي الله عنها أن رسول الله (ﷺ) (كان عندها فسلم علينا رجل ونحن فــي البيت فقام رسول الله (ﷺ) فزعا فقمت في أثره فإذا بدحية الكلبي فقــال : هذا جبريل يأمرني أن أذهب إلى بني قريظة ، فقال : قــد وضعتــم السلاح لكننا لم نضع طلبنا المشركين حتى بلغنا حمراء الأســد .... الحديث)[2].

وقد أشار البحث إلى جملة أخرى من الأحاديث التى تؤكد إمكانية الوحــي مــن الناحية الشرعية [3].

وقوع الوحي

تحدث البحث فيما مضى عن إمكان الوحي من الناحية العقلية والعلمية والشرعية إلا أن هذا لا يعني وقوعه. " فالحاجة إلى الشيء لا يستلزم وقوعه " [4].

" وإنه من الحق الذي لا مرية فيه أن الإمكان غير الوقوع ، فالإمكان حكم عقلي والوقوع حدث تاريخي ، وإذا ما ثبت الإمكان العقلي فإن هذا السكوت نفســه لا يستلزم الوقوع بحال من الأحوال " [5].

إلا أن وقوع الوحي ثابت لا يمكن إنكاره. فوجود الأنبياء في أزمنة مختلفــة ، أمر يقره كل عاقل ، كما انه أمر ثابت لمن شاهدهم ، ومن لم يشــاهدهم مــن خلال الوقوف على سيرهم وأحوالهم أو معجزاتهم كالقرآن لنبينا محمد(ﷺ).

([1]) انظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم . محمد فؤاد عبد الباقي صـــ ٨٣٦-٨٣٧ ، ط دار الحديث، دراسات في العقيدة الإسلامية د.جابر فتوح بلطيح صـــ ١٧١ - ١٧٢ . ط ١٤١٤ هـــ ١٩٩٣م .

([2]) الحديث أخرجه: البيهقي فى كتابه دلائل النبوة جـ٤ صـ٨

([3]) انظر صـــ٤١ من البحث.

([4]) الوحي المحمدي . محمد رشيد رضا صـــ ٧٢.

([5]) النبوة والتنبؤ د. طه حبيش صـــ ١١٣.

" أما الدليل على وقوع الوحي لمن عاصر النبي ، فيما يحكي عن ربه ظـــاهر للشاهد الذي يرى حاله ، ويبصر ما أتاه الله من البينات ....وأما الغائب عن زمن البعثة فدليلها التواتر" [1].

وعلى هذا فدليل وقوع الوحي لمن عاصر الرسول المعجـــزة فإمـــا أن يكـــون شاهدها بعينه ، أو نقلت إليه عن طريق السمع . أما من لم يعاصره فدليله خـــبر التواتر المنقول عن جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب ويكفينا القـــرآن معجـــزة العصور الذي تفني الدهور ولا يفنى ، فهو أوضح برهان على إمكانية الوحـــي ووقوعه.

---

(1) رسالة التوحيد الشيخ محمد عبده صـــ ١١٦ ، وانظر عقيدة النبوة د. عبد السلام محمـــد صـــ ١١٠ - ١١١ ط الفاروق الحديثة للطباعة والنشر.

الفصل الرابع :

المنكرون للمعجزات

المبحث الأول (دوافع المنكرين للمعجزات)

المبحث الثاني (شبه المنكرين للمعجزات والرد عليها) .

دوافع المنكرين للمعجزات

تمهيد يتضمن الحديث عن العلاقة بين النبوة والمعجزات :

لقد جرت سنة الله تعالى أن يؤيد أنبياءه ورسله بــالمعجزات البـاهرة والآيـات الواضحة ، وان يسوق بين أيديهم من الخوارق ما يلفت الأنظار ، ويجذب الانتباه لكون النبوة أمراً عظيماً شأنه وفي نفس الوقت خطيراً يصعـب علـى العقـل تصوره ، فالنبي إنسان يعرفه الناس ويخالطهم ويخالطونه ثم فجأة يخرج عليـهم مدعياً انه واسطة بينهم وبين الله تعالى يبلغ إليهم شرعه ويلقي إليـهم بـأوامره ، ودعوة على هذه الجانب من الأهمية والخطورة من ثم كان لا بد لها من دليل على صدق مدعيها ، وهذا الدليل لا بد أن يكون دليلاً قويـاً خارقـاً للعـادة حتـى لا يعارض أو يؤتى بمثله.

يقول البغدادي: "النبي لابد له من إظهار معجزة تدل على صدقه فإذا أتى بها وبان لقومه وجه الإعجاز فيها لزم تصديقه وطاعته ، ولم يكن لهم مطالبتـه بمعجـزة أخرى "(١).

ويؤكد هذا القاضي عبد الجبار بقوله : " أنه تعالى إذا بعث إلينا رسولاً ليعرفنـا المصالح فلا بد من أن يدعى النبوة ، ويظهر عليه العلم المعجز الدال على صدقه ، عقيب دعواه للنبوة "(٢).

من خلال ما سبق نستطيع القول بوجود علاقة قوية بين النبوة والمعجزة لكونـها دليلاً قوياً على صدق النبوة . فهى الأصل لإثبات النبوة.

وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال . هل في المقدور نصب دليل آخر غـير المعجـزة على صدق النبي ؟

---

(١) أصول الدين للبغدادي . صـ ١٧٣ .

(٢) شرح الأصول الخمسة . صـ ٥٦٨ .

والجواب : يرى الجويني بأنه لا دليل على صدق مدعي النبوة غـــير المعجــزة لكونها خارقة للعادة وجاءت متعلقة بدعواه . وقد ذهب إلى هذا "الباقلاني" وجمــع كثير من أهل السنة والجماعة (١).

بينما يرى السعد وغيره أن المعجزة ليست هي الطريق الوحيد بل ضم إليها العلـم الضروري ، وخير من ثبت عصمته وقد ذهب إلى هذا أيضــاً الإمـــام " الشــهر ستاني " والإمام " الرازي " وغيرهم فالعلاقة وثيقة بين النبوة والمعجزة (٢).

دوافع الإنكار:

مما لاشك أن المنكرين للنبوات هم المنكرون للمعجزات سواء أكان في القديـــم أم فى الحديث لما هو معروف من أن المعجزة لا تنفك عن النبوة.

وأعني بلفظ قديماً ما سبق عصر النبوة الخاتمة ، وهي نبوة سيدنا محمـــــد (ﷺ)، وما أتى بعدها إلى عصر الثورة الصناعية كما أقصد بلفظ حديثاً عصـــر التقــدم التكنولوجي حتى وقتنا الحاضر(٣) .

- والمتأمل في شبه القدماء يجد أنها قد قامت علـــى أســـاس الاســـتبعاد العقلـــي لوقوعها على خلاف المعهود وخروجها عن الإطار المعلوم ، أما المحدثون فقـــد كانت شبههم اعتماداً على العلم الحديث ونظرياته وقوانينه التي تؤكد خروج هـــذه المعجزات عن نواميس الطبيعة .

إلا أن هذا لا يمنع من وجود عدة دوافع كانت في الغالب قاسماً مشـــتركاً بينـــهما لإنكار المعجزة وأهم هذه الدوافع هي:-

١-الإلحاد:

---

(١) انظر: الإرشاد للجويني صــ ١٣٤ ، الإنصاف للباقلاني . صــ ٦١ .

(٢)انظر: نهاية الإقدام صــ ٤٢١ - ٤٢٢ ، المطالب العليا . جــ ٨ صــ ١٠٣، شرح المقاصد جــ ٢ صــ ١٣٢-١٣٣.

(٣) انظر: عبد الكريم الخطيب وآراؤه الكلامية رسالة الماجستير . إعداد الباحث د/محمد حسيني موسى صــ ٣١٢ . كلية البنات عين شمس ١٤١٣هــ - ١٩٩٢م.

من المعلوم أن المؤمن يقر بكل ما جاءت به الرسل والرسالات السماوية ، كما أنه يعتقد بكل ما أخبرت به الشرائع؛ لأن الإيمان بها جزء من عقيدته ، أما الملحد فهو يكفر بالله وينكر وجود الخالق ويميل عن طريق أهل الإيمان والرشد إذا كان هذا حاله بالنسبة لله تعالى فهو للمعجزات أشد إنكاراً؛ لأن الملحد يرفض جميع البراهين التي يقيم عليها أهل الإيمان استدلالهم على وجود الله حتى يتحقق له الوصول إلى بغيته ، والعيش كما يريد بالتالي فهو يرفض وجود الله ويكذب بالنبوة والبعث وينكر خوارق العادات ويكرس حياته للدنيا كلها(١).

" يقول أحد العلماء : " والحاصل أن المعجزات لا ينكرها إلا المنكرون لوجود الله تعالى ومن الغرابة أن جمهورهم يتمسكون هنا بنظام العالم الذي أنكروه فيقولون : إنه نظام للعالم ناشئ من طبيعة الأشياء لا يمكن خلقه للمعجزات "(٢).

٢-الاستبعاد العقلي:

من بين الدوافع التي دفعت إلى إنكار المعجزات استبعاد العقل لها فقد أقاموا شبههم بناء على حكم العقل ورفضه للمعجزة لكونها جرت على خلاف العادة . مع أنها في واقع الأمر ممكنة ، وكل ممكن جائز الوقوع " وجميع الممكنات سهلة متساوية الإقدام في السهولة بالنسبة إلى قدرة الله تعالى "(٣).

---

(١) انظر: عبد الكريم الخطيب وآراؤه الكلامية رسالة ماجستير إعداد الباحث د/ محمد حسيني صـ٣١٢ كلية البنات عين شمس ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م .

(٢) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين الشيخ /مصطفى صبري. جـ٤. صـ٢٨ مكتبة الإيمان للطباعة والنشر ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م .

(٣) نفس المصدر . جـ ٤ . صـ٣٩ .

ومثال ذلك معجزة الإسراء والمعراج فقد أنكروها اعتماداً على حكم العقل نظـــراً للمسافة التي تقطعها العير في الذهاب والإياب وكان من نتيجة هـــذا الاســتبعاد ارتداد بعض الناس عن دين الله تعالى(١).

ففي معجزة الإسراء والمعراج " نجد أن الله تعالى يسر للإنسان من العلم النظـري والتطبيقي في عصر العلم هذا ما يؤيد هذه المعجزة فالتقدم العلمي التطبيقي مكـن من قطع المسافات بسرعة تذهب بشبهة أن الإسراء لم يكـــن بـــالبدن ، والتقـدم النظري الذي أيدت التجربة نتائجه ذهب بشبهة أن المعراج لم يكن إلا بـــالروح ، ويكفي للدلالة على صحة هذا ما حققه الإنسان من ســـرعة الانتقـــال بالنفاثـــات الأسرع من الصوت والأقمار الصناعية فسرعة الصوت كيلو متر في كل ثـــلاث ثوانٍ ... ولو اتخذ الإنسان في رحلته مركباً له سرعة القمر الصناعي في دورانــه حول الأرض التي تبلغ نحو ثمانية كيلو مترات في الثانية لقام برحلة الإسراء فـي دقائق معدودة دون العرش ولأمكن أن يعود إلى فراشه وفيه دفء(٢).

فأي استبعاد لوقوع المعجزة والعلم الحديث وقوانينه يشهدان بإمكانهما.

٣-الاستناد إلى قانون السببية:

من المعلوم أن السبب هو الأمر الداعي إلى الفعل ولأجله يفعل الفاعل(٣).

وقوام هذا القانون: هو الاعتصام بوجود علاقة بين السبب والمســـبب، ويعتمـد أصحابه إلى إنكار المعجزة ، وذلك لكونها جرت على خلاف الواقع ، وخرجـــت عن إطار قانون السببية القائم على وجود علاقة بين السبب والمســـبب ، فـــهم لا

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام . جـ١. صـ٣٦٨ - ٣٦٩ ، فقه السيرة الشيخ /محمد الغزالي صـ١٣٧ - ١٣٨ دار الريان للتراث .ط . ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م . ط١.

(٢) انظر: الإسلام وفلسفة العلم د/ أحمد رمضان صـ٦٠٣ - ٦٠٤ .

(٣) انظر: الهوامل والشوامل أبو حيان التوحيدي ومسكوية صـ٣٠ نشرة أحمد أمين، السيد صقر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الزخائر (٦٨)، الإسلام وفلسفة العلم د/ أحمد رمضان صـ١٧١ الدار الإسلامية للطباعة ط١ . ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م .

يصدقون أن يفيض الماء القليل عن حاجة الجيش الكبير، ولا يصدقون بأن يتفل في عين "قتادة" المصابة فتكون أصح من الأخرى ، كما أنهم لا يصدقون أن يصعد على جذع النخلة ليخطب بالناس فيسمعون أنينه ، كل هذا لقولهم بوجود علاقة بين السبب والمسبب ويقولون: إن الأسباب ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمسببات كارتباط الجنين بالحبل السري والمشيمة ، فإذا انفصل أحدهما سقط الجنين(١)

والحق أن إنكار المعجزة اعتماداً على هذا الدافع لا طائل من ورائه إلا إثارة الشبه لإنكار ما هو ثابت بالدليل القطعي ، وفي نفس الوقت " فإن إنكار المعجزة يتضمن إنكار النبوة فتشتد الحماقة وتتضاعف فيمن يؤمن بالأنبياء وينكر معجزتهم، لأن نبوتهم تبدأ من الإيحاء إليهم الذي إن لم تكن معجزة لعدم اقترانها بالتحدي فهو معجزة من حيث إنه خارق للعادة ، وأن منكر المعجزة ينكرها لخرقها للعادة"(٢).

٤-الاستناد إلى مستكشفات العلم الحديث:

من بين الدوافع التي دفعت المنكرين إلى إنكار المعجزات ، وقوعها من غير التوصل إليها عن طريق الوسائل العلمية " فيستصغرونها لحصولها بإذن الله مباشرة من غير توصل إليها بالوسائل العلمية غير الخارجة عن الوسائل الطبيعية ، وفي هذا ميزة المعجزة التي يصغر بجانب إصغارها أعظم المكتشفات العلمية "(٣).

---

(١) انظر: الغزاليات في السمعيات د/ محمد الغزالي صـ٣٣٠ .ط١. ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

(٢) مختصر موقف العقل المسمى القول الفصل. الشيخ/ مصطفى صبري صـ٣٥ دار السلام للطباعة ط٧ ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م .

(٣) موقف العلم والعالم من رب العالمين الشيخ/ مصطفى صبري .جـ٤. صـ٢٩ . مكتبة الإيمان ١٩٥٠م .

وراحوا ينكرونها تحت دعوى أن العلم لا يؤمن بها لخروجها عن قوانينـــه وبالتـــالي "فإنها إنكار لقوانين الطبيعة كما أنها قدح في العقل وقدح في الطبيعة "(١).

فهم لا يصدقون أن يشير النبي (ﷺ) بأصبعه فينشق القمر مع أن ظاهرة انشـــقاق القمر بالذات ليست مستحيلة في العلم، وإن كان مستحيلاً أن يصنعـــها إنســـان ، فالعلم قد شاهد انشقاق القمر ١٨٨٩(٢) .

ولا يصدقون أن يلقى بإبراهيم في النار ويخرج دون أن يصاب بأذى ، وقس على ذلك سائر المعجزات فهم ينكرونها تحت دعوى إنكار العلم لها لعـــدم خضوعـــها للبحث العلمي وخروجها عن الإطار المعروف :" إن المعجزات بمعنـــى كونـــها حادثاً خارقاً للطبيعة من الأمور التي لا يمكن إثباتها قطعاً ، وإنه من المســـتحيل على من يقبل الفيزياء أن يثبت وقوع حادث معين بشكل خارق للطبيعة مـــا لـــم يفترض أن له معرفة كاملة بأعمال الطبيعة بحيث يتمكن من أن ينفي عن المعجزة كل علة طبيعية "(٣) .

وبالتالي فإن المعجزة بناء على لغة العلم ووسائله الحديثة أمر لا طائل من محاولة إثباته أو الإيمان بوقوعه .

فها هو أحد ألسنتهم يتحدث عن نفسه مبيناً رفضه لكل ما يخرج عن قوانين العلـــم فيقول: وقد لبث كاتب هذه الصفحات أمداً من حياته طويلاً يسلك نفسه في زمـــرة المؤمنين بالعلم الجديد وحده ، مستغنياً عن كل موروث وقديم ...... ويواصـــل حديثه قائلاً : وعندي أن القديم لغو لا يجدي على أصحابه ولا على الناس شـيئاً ،

---

(١) من العقيدة إلى الثورة د/ حسن حنفي .جـ٤. صـ٧٧ مكتبة مدبولي، انظر: الإسـلام في عصر العلم د/ الغمراوي صـ١٠٦.

(٢) انظر: الإسلام وفلسفة العلم . د/ أحمد رمضان صـ٦٠٢ - ٦٠٣.

(٣) في مواجهة الإلحاد المعاصر وعقائد العلم . د/يحيى هاشم صـ ٥٠ . مجمع البحـوث الإسلامية - مطابع الأزهر. ١٤٠٠-١٩٨٠ .

وعندي أن الأمة تأخذ بنصيب من المدينة يكثر أو يقل بمقدار ما تأخذ بنصيب من العلم ومنهجه (١).

٥- القفزات الهائلة في بحوث الهندسة الوراثية:

لقد أدت النجاحات العلمية الهائلة التى قام بها علماء الهندسة الوراثية إلى إنكـــار المعجزات " فقد أصابوا بما اسماه بعض العلماء بالهوس العلمي ، أو لوثة تمجيـد العلم وتقديسه ، وإعلاء شأن نتائجه فوق المعتقدات وفوق ثوابت الأخلاقيات والقيم ، ولم يعد يشغلهم إلا أن تستمر مسيرتهم مع معطيات العلم في كل ميادين الحيـــاة "(٢).

وقد قامت هذه الأبحاث أو القفزات على أساس الاتحاد؛ أى إدخال جزء خـــاص بكائن حي إلى كائن حي آخر ، فهى تعتمد على البحث الجينـــي فـــي الجينـــات ومحاولة التعرف عليها واللعب بكل جزء من أجزائها ما أمكن ذلك (٣).

ليتحقق الوقوف على كثير من آليات الحياة " فمثلاً نضع أطفال الأنابيب ونغـــير تركيبنا الوراثي ونخترع أعضاء صناعية لأجسادنا ، ونحول عقولنـــا ، ونطيـــل اعمارنا ، و ربما نكتشف أننا نستطيع تخليق الحياة نفسها، إن الثورة البيولوجيـــة

(١) انظر: وجهة نظر د/ذكي نجيب محمود . صـــ ٥ . مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٧ ، المنطق الوضعي . د/ذكي محمود. جـــ١ . صـــ ٢ . مكتبة الأنجلو . ط ٦ . ١٩٨١ .

(٢) الآثار الدينية والأخلاقية لبحوث الهندسة الوراثية . نخبة من العلماء . القســم الأول . صـــ ٣ . مطابع الأهرام التجارية ١٤٢٠ هـــ ١٩٩٩ م . سلسة قضايا إسلامية الصادرة عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

(٣) انظر: الهندسة الوراثية للجميع . وليم بيتز . ترجمة د/ احمد مســتجير . صـــ ١٠ الهيئة المصرية للكتاب ١٩٩٦ م ، وانظر الهندسة الوراثية. الأمل والألم. عبـــد الباســط الجمل. صـــ٨٣ – ٨٤. الهيئة المصرية العامة للكتاب. مهرجان القراءة١٩٩٨ .

لن تغير ذواتنا الفسيولوجية فقط وإنما نستطيع تغير طريقة تفكيرنا في أنفسنا، وفي الآخرين " (١).

هذه هي أهم الدوافع التى دفعت المنكرين لإنكار المعجزة قديماً وحديثاً واذا كـــان القدماء قد أنكروها لخروجها عن سنن الكون وقوانينه فهى مستبعدة عقلاً . فـــإن هذا ما اعتمد عليه المحدثون وان أضافوا إليـــه تمســكهم بمستكشــفات العلــم ، والنجاحات الباهرة في أبحاث الهندسة الوراثية ، وهذا يعني وجود قاسم مشـــترك بينهما . وإذا كانت هذه هي الدوافع فما هي شبههم التىٰ اعتمدوا عليها ؟

هذا ما نعرض له في المبحث التالى إن شاء الله تعالى .

([1]) الهندسة الوراثية والاخلاق . د/ ناهد البقصمي صـــ ٦٥ . سلســـلة عـــالم المعرفـــة .عدد١٧٤ يونيو ١٩٩٣ .

المبحث الثانى

شبه المنكرين والرد عليهم

١- المنكرون قديماً:

لقد أثار بعض المنكرين للنبوة والرسالة شبهاً كثيرة حول المعجزة والقدح فيها والتشكيك في إمكان وقوعها، وما يترتب عليها ، بينما اعترف آخرون بوجود خارق إلا انهم أنكروا دلالته على صدق الرسول ، بينما وجد صنف ثالث أنكر العلم بالمعجزة .

أ- الشبه على إمكان وقوع المعجزة .

(١) امتناع المعجزة

لقد احتج بعض منكري المعجزة بشبهة مؤداها : إن المعجزة ممتنعة؛ لأن تجويز خوارق للعادة سفسطة إذ لو جازت لجاز أن ينقلب الجبل ذهباً ، والبحر دهناً ودماً والمدعي للنبوة شخص آخر ظهرت المعجزة على يده إلى غير ذلك من المجالات (١) التي تحكم العادة بعدم وقوعها لخروجها عن قوانين الطبيعة. وهذه الشبهة وجدت لدى القدماء كما وجدت في العصور الوسطى . كما حدث ووجدت عند ابن الراوندي و أبو بكر الرازي. فالأول أنكر المعجزة بدعوى أنها غير مقبولة جملة وتفصيلاً لكونها مخاريق وان الذين جاءوا بها سحرة ومحترفون، أما الثاني: فيرى أنها ما هي إلا ضرب من الأقاصيص الدينية.

وإذا كانت هذه الشبهة وجدت لدى القدماء ووجدت في العصور الوسطى ، فقد امتد أثرها ووجد لها من يقول بها في العصور الحديثة على نحو ما سيتضح فيما بعد (٢).

الرد على الشبهة

---

(١) انظر: شرح المواقف . جـ٣ . صـ ١٨٥ ، شرح المقاصد . جـ٢ . صـ ١٣١ .

(٢) انظر : في الفلسفة الإسلامية . د/ إبراهيم مدكور . جـ١ . صـ ٨٢-٨٧ .

١- إن المعجزة ليست مستحيلة ، كما أنه لا يترتب على وقوعها مفاسد ، ومعنى كونها خارقة أي أنها مخالفة لسنن الطبيعة ، وقوانين الكون المعروفة لدي البشر في إيجاد الحوادث.

فالمراد بالخارق : أنها أمور ممكنة في نفسها ، ممتنعة في العادة بمعنى أنها لم تجر العادة بوقوعها كانقلاب العصى حية. فإمكان ذلك ضروري(١).

٢- إن خرق العادات ليس أعجب من خرق الكون وما فيه بل انه ليس أعجب من خلق الإنسان الذي هو آية في الإبهار والإعجاب والإتقان " والجزم بعدم وقوعها لا ينافي إمكانها كما في المحسوسات ،فإنا نجزم بأن حصول الجسم المعين في الحيز المعين لا يمتنع فرض عدمه بدلة مع الجزم به للحس ، والعادة أحد طرق العلم ثم إن خرق العادة إعجاز وكرامة وليس عادة مستمرة " (٢) .

٣- إن الأمر الخارق يخلق علماً ضرورياً بصدق مدعي النبوة ، وما يذكره المنكرون ما هي إلا تجويزات خيالية وهي مدفوعة بالدلائل العقلية والقرائن القطعية ، والعلم الضروري الذى تدفعه هذه التجويزات (٣).

٤- إن هذه المعجزات قد نقلت إلينا بطرق لا يتطرق إليها الشك ، و بالتالي فإن ما يذكره الملحدون كلام لا أساس له، لأنه يترتب عليه هدم كل عقائد الدين لا سيما وان المعجزة من أقوى الطرق للدلالة على ثبوت النبوة .

(٢) نقلها بالتواتر لا يفيد اليقين.

تقرير الشبهة.

---

(١) انظر: شرح المقاصد . جـ٢ . صـ ١٣١، الانتصار في الرد على ابن الراوندي . للخياط صـ ٣٣ نشر المكتبة الثقافة الدينية.

(٢) شرح المواقف . جـ٣ . صـ١٨٦ .

(٣) انظر: نهاية الإقدام في علم الكلام . صـ ٤٣٨ .

إن المعجزات على تقدير ثبوتها لا تثبت على الغائبين؛ لأن أقوى طــــرق نقلــها التواتر وهو لا يفيد اليقين ، ولأن جواز الكذب على كل أحد يوجب جوازه علـــى الكل لكونه نفس الآحاد ولأنه لو أفادت لأفادت خبر الواحد؛ لان كل طبقة يفـوض فيها عدم التواتر فإذا أنقص منها واحد كان الباقي يفيد اليقين وهكذا إلى أن يصير الباقي واحداً وإن لم يثق كان المفيد هو ذلك الواحد الزائد؛ ولأنه غير مضبــــوط بعدد بل ضابطه حصول اليقين ، فإثبات اليقين به يكون دوراً (١).

وقد ردد هذه الشبهة ابن الراوندي بدعوى أن رواتها وهم شرذمة قليلة قد تواطئوا على الكذب فيها (٢) وقد وجدت هذه الشبهة لدى المحدثين على نحو ما سنعرض له فيما بعد.

الرد على هذه الشبهة

إن ما ذكر هنا مجرد فرض عقلي لم تثبت صحته ، وبالتالي فلا قيمة له.

إن المعجزات نقلت إلينا نقلاً متواترا بأساليب لا يتطرق إليها أدنى شك ، وذلـــك لكون نقلتها رواة ثقات معروف عنهم الصدق يؤمن تواطؤهم عن الكذب ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد جاء ذكر هذه المعجزات فـــي الكتــب الســماوية وأخبرت عنها . وإذا كانت الكتب التي أخبرت عنها قد تعرض بعضها للتحريــف والتغيير ، ولم يثبت أنها نفس الكتب التي جاء بها أنبياؤهم فإن هذا لا يمكـــن أن يصدق " على معجزة الرسول الكبرى وهي القرآن الكريم .... فقد بقي كما هو ومن يرد من العلماء أن يفحصه فليفحصه ، وقد فحصه كثير من الملحدين وانتهى الأمر بالتسليم بإعجازه والإيمان به "(٣).

---

(١) انظر شرح المقاصد . جـ٢ . صــ ١٣١ .

(٢) انظر : الفلسفة الإسلامية . د/ مدكور . جـ١ صــ ٨٢-٨٣ .

(٣) المعجزة والإعجاز . د / سعد الدين صالح . صــ٥٦ . دار المعارف . ط٢ . ١٩٩٣ م .

إن التواترات أحد أقسام الضروريات وهي بدهية لا تقبل المناقشة ولا يجادل فيها إلا مختل العقل أو جاهل بطريق الاستدلال (١).

الواضح أن في هذه الشبهة وجود مغالطة واضحة ، وهي استعمال لفظ التواتر مكان المتواتر ولم يفرق بينهما فرقا جوهريا متى اتضح هذا بأن مقدار تلك المغالطة وفساد الشبهة (٢) . قال الأمدي: وفرق بين التواتر والمتواتر ، وإنما التواتر في اصطلاح المتشرعة فهو عبارة عن تتابع الخبر عن جماعة مفيد للعلم بمخبره ، وهي سلسلة وسنده ، وأما المتواتر فقد قال بعض أصحابنا هو عبارة عن خبر جماعة مفيد بنفسه للعلم بمخبرة "(٣).

إن التواتر غير مضبوط بعدد . بل ضابطه عندكم حصول العلم به فإثبات العلم به مصادره (٤).

هذه الأوجه من خلالها يتضح بطلان هذه الشبهة ، وإن ما ارتكز عليه أصحابها . ما هي إلا تجويزات لا قيمة لها . حيث إنه لم يثبت صحتها.

ب- الشبة على إنكار دلالة المعجزة على صدق الرسول:

إذا كان هناك من أنكر إمكان وقوع المعجزة ، فإن هناك من ينكر دلالتها على صدق الرسول على الرغم من اعترافهم بوجود خارق للطبيعة ، وقد استندوا في ذلك إلى جملة من الشبه نعرض لها على الوجه التالي:-

١- احتمال أنها ليست من فعل المدعى

---

(١) انظر: شرح المقاصد ، جـ٢ . صـ١٣٢ ، المعجزة والإعجاز . د/ سعد صالح . صـ٥٣.

(٢) الغزاليات في السمعيات د / محمد الغزالي . صـ٣٤٤ .

(٣) الإحكام في أصول الأحكام . للأمدي مجلد ١ . جـ٢ . صـ٢٠٥-٢٠٦ . دار الفكر ط١ . ١٤٨١ هـ-١٩٩٧م .

(٤) انظر : شرح المقاصد . جـ٢ . صـ١٣١ .

تقرير الشبهة

إن الخارق ربما يكون من فعل المدعي لا من فعل الله تعالى ويستند في ذلك لخاصة في نفسه ، أو مزاج في بدنه أو اطلاع على بعض خواص الأجسام ، أو الاتصال ببعض الملائكة أو الجن ، أو اتصالات كوكبية، أو أوضاع فلكية . (١)

وهذه الشبهة أثيرت في العصر الحديث (٢) والواضح من هذه الشبهة أنها قامت على عدة احتمالات ظنية لا ترقى للبقين وبالتالي فإن ما استندوا إليه فهو استناد واه وضعيف ، ويتضح بطلان هذه الشبهة من خلال الردود التالية:-

إن ما استندوا إليه هي مجرد احتمالات واتفق العقلاء على أن الدليل إذا تطرق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال .

إنه لا مؤثر في الوجود إلا الله تعالى فالمعجز لا يكون فعلا للمدعي بل لله تبارك وتعالى . فإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى وانشقاق القمر كل هذا ليس فعلا للرسول ، بل فعلاً لله تعالى يتوقف على مشيئته.

إن ردهم الخوارق إلى الخواص والتنجيم وعلم السحر رداً باطلاً فلا ينكر عاقل حصول غرائب وعجائب من وراء هذه الخواص ، ولكن اتفق العقلاء وأجمع العلماء على أن هذه الأشياء يصل إليها الإنسان عن طريق حيل كسبية وعلوم وقواعد يقوم بدراستها على خلاف المعجزة فهي اختصاص واصطفاء من الله تعالى لمدعي النبوة والرسالة.

" إن مجرد التمكين وترك الدفع من قبل الحكيم القادر المختار كاف في إفادة المطلوب" (٣) وهو أن المعجزة دالة على صدق الرسول

---

(١)شرح المواقف جـ٣ صـ١٨٦، شرح المقاصد جـ٢ صـ ١٣١.

(٢)دراسات إسلامية . د/ حسن حنفي صـ٣٢٦ نشر مكتبة الأنجلو المصرية ط١ ١٩٨١ م.

(٣) شرح المقاصد . جـ٢ . صـ١٣٢ ، وانظر : النبوات لابن تيمية . صـ١٩٨ وما بعدها . تحقيق محمد عبد الرحمن عوض . دار الريان للتراث .

إن سنة الله تعالى جرت أن يرسل كل رسول بمعجزة تناسب ما يدعوهـم فلـم يرسل رسولاً إلا بمعجزة من جنس ما هو الغالب على أهل عصره ، فالموسـيقى في زمن داود، والسحر في زمن موسى ، والطب في زمن عيسـى ، والبلاغـة والفصاحة في زمن سيدنا محمد (ﷺ).

" إن اقتران المعجزة بدعوى النبي نازل منزلة التصديق بالقول ، وذلك أنه متـى عرف من سنة الله تعالى ألا يظهر أمراً خارقاً للعادة على يد من يدعي الرسـالة ، عند وقت التحدي والاستدعاء إلا لتصديقه فيما يجري به " (١).

ومتى اجتمعت هذه الأمور كان في ذلك دلالة قطعية على ثبوت النبوة وصدق من يدعيها لما هو معروف من أن المعجزة بمنزلة قول الله تعالى بأن هذا رسولي.

إن المعجزة قد تكون ابتداء عادة:

تقرير الشبهة.

إن المعجزة احتمال ألا تكون خارقة للعادة بـل ابتـداء عـادة ، أراد الله تعـالى إجراءها ، أو تقرير عادة لا تكون إلا في دهور متطاولة كعودة الثوابت إلي نقطة معينة (٢).

الرد على الشبهة

إن جمهور المسلمين مجمع على رد هذه الخوارق إلى الله تعالى لا إلى النبـي ، لأن المعجزة أمر خارق للعادة يظهره الله تعالى يد مدعي النبوة " بخلاف العـادة في زمان التكليف موافقاً لدعواه وهو يدعو الخلق إلى معارضته ويتحداهم أن يأتوا بمثله فيعجزوا عنه فيبين به صدق من يظهر على يده ، وما من رسول إلا وقـد كان مؤيداً بمعجزة أو بمعجزات كثيرة "(٣).

---

(١) نهاية الإقدام . صـ٤٢١ .

(٢) شرح المقاصد . جـ٢.صـ١٣١ .

(٣) التبصير في الدين. للإمام الأسفرايني. صـ١٠٤. مطبعة الأنوار.ط١. ١٣٥٩هـ - ١٩٤٠م .

٢- إن الاعتراض في غير موضعه فحديث المنكرين على ابتداء عادة ، والكلام هنا فيما حصل بالفعل من أنه خارق للعادة وأن المتحدين عجزوا عن معارضته أو الإتيان بمثله (١).

٣- فوق هذا فإن هذه الشبهة قامت على افتراض ساذج لا يتنافى مع العلم الضروري الذي يحدث بعد ظهور المعجزة ، وإلا ما كان هناك يقين أصلاً(٢).

- والشاهد على ذلك تصديق الناس للنبي عقب ظهور المعجزة دون النظر إلى هذه الاحتمالات ، وعلى هذا بطلت هذه الشبهة وانتهت ودلت المعجزة على صدق الرسول.

عدم معارضة الخارق لدوافع.

تقرير الشبهة

" احتمال أن يكون مما يعارض إلا أنه لم يعارض لعدم بلوغه إلى من يقدر المعارضة أو لموضوعه من القوم ، وموافقته في إعلاء كلمته أو لخوف أو لاستهانة وقلة مبالاة أو لاشتغال بما هو أهم ، أو عورض ولم ينقل لمانع "(٣)

الرد على الشبهة .

١- أن هذه الاحتمالات واهية وساقطة ، ولا نغالي إذا قلنا بأنها سفسطة لا طائل من ورائها إلا العناد ، لما هو معروف أنه ما من نبي إلا وحاول قومه إنكار ودعوته ورد آيته ، فالمتحدون للنبي ثبت عجزهم في معارضة مدعي النبوة ، مع كون آيته التي تحداهم بها من جنس ما برعوا فيه اشتغلوا به أمداً طويلاً ، وآية ذلك سحرة فرعون أمام عصا موسى وفصاحة قريش أمام بلاغة القرآن الكريم .

---

(١) انظر: شرح المقاصد . جـ٢ . صـ١٣٢ .

(٢) انظر: المعجزة والإعجاز . د/ سعد الدين صالح . صـ٥٣ .

(٣) انظر: شرح المواقف . جـ٣ . صـ١٨٧ ، شرح المقاصد جـ٢ . صـ١٣١ - ١٣٢ .

٢- إن القول بأن المعارضة تركت من أجل إعلاء كلمته فهذا قول لا يقل حكماً عن سابقه " فمن قال إن السلبية تمثل فخراً ، وأن الهزيمة تساوي نصراً ، اللهم أن تكون بالعقول لوسة فترى النهار ليلاً وضوء القمر الساقط على الأرض نهراً"(١).

٣- إن القول بأن ترك المعارضة خوفاً واستهانة قول ساقط ، لأنه لو عورض لنقل إلينا في التاريخ أحداث كثيرة تشهد على صحة هذا ، فقد جاء " أن في التاريخ لعبرا تؤثر عن أناس حاولوا مثل هذه المحاولة فجاءوا في معارضة القرآن بكلام يشبه القرآن ، ولا يشبه كلام أنفسهم ، بل نزلوا به إلى ضرب من السخف والتفاهة جاد غواره باق عارة وشنارة : فمنهم عاقل استحى أن يتم تجربته فحطم قلمه ومزق صحيفته كأبي الطيب المتنبي(٢) والمعري(٣) ، ومنهم ناكرو جد الناس في زمنه أعقل من أن تروج فيهم سخافاته فطوى صحفه وأحقاها إلى حين وذلك مثل ما اشتهر عن زعماء القاديانية(٤) ، والبهائية(١)، ومنهم

---

(١) عبد الكريم الخطيب وآراؤه الكلامية . رسالة ماجستير . إعداد الباحث د/ محمد حسيني الغزالي . صـ ٣١٩ .

(٢) هو أبو الطيب أحمد بن الحسين الشاعر المعروف بالمتنبى، ولد بالكوفة ٣٠٢هـ وطلب الأدب وعلوم العربية وتوفى ٣٥٤هـ [انظر: نزهة الألباء فى طبقات الأدباء. لابن الأنبرى صـ ٢٩١ تحقيق. إبراهيم السمرائى. مكتبة المنار ط٣,١٤٠٥هـ].

(٣) أبو العلاء أحمد بن عبد الله المعروف بالمعرى ، ولد عام ٣٦٣ وتوفى عام ٤٩٩ فى خلافة القائم بأمر الله [انظر: نزهة الألباء فى طبقات الأطباء صـ ٢٥٧].

(٤) من المذاهب الهدامة التي لبث عباءة الإسلام وتركت حقيقته وولت ظهرها له وتنسب إلى ميرزا غلام أحمد القادياني المولود بالهند وقد قدم نفسه على أنه مجدد ومصطلح ثم ما لبث أن نكص على عقبيه فادعى المهدية والنبوة والرسالة والإتيان بشريعة أخرى نسخت شريعة الإسلام [انظر: القاديانية نشأتها وتطورها أ- حسن عيسى صـ١٥ - ٢٨ مطبعة الأزهر الشريف سلسلة البحوث الإسلامية الكتاب رقم (٤) ، القاديانية ومصيرها في التاريخ د. طه الدسوقي حبيش صـ٣٣ - ٥٦ دار الطباعة المحمدية ط١ ١٤٠٩هـ -

طائش برز إلى الناس فكان سخرية للساخرين ومثلاً للآخرين كمسلمة الكذاب(٢) ، فمن حدثته نفسه أن يعيد هذه التجربة مرة أخرى فلينظر في تلك العبر وليأخذ بأحسنها ومن لم يستح فليصنع ما شاء"(٣) .

٤- التسليم بوجود الخارق لكن غرضه ليس التصديق.

تقرير الشبهة.

احتمال ألا يكون الغرض من الخارق تصديق النبي وذلك لأمور ... .

١٩٨٩م عقائد وأحكام غريبة عن الإسلام د. يحيي ربيع صـ٩٩ ١٠٥ ، مطابع الشناوي بطنطا ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م] .

(١) من المذاهب التي لبست عباءة الإسلام وهو منها براء وقد ظهرت هذه الفرقة بعد إعدام الباب مؤسس البابية فاختلف اثنان من اتباعه على من يخلفه وهما الميراز يحيي الملقب بـ (صبح الأزل) والميراز حسين على الذي لقب بـ (البهاء) وقد حدث اختلاف بينهما نتيجة لوصية الباب على أن يخلفه صبح الأزل ، وشن هجوماً شديداً على أخيه ووصفه هو وأتباعه بالجهل والغباء وقد ادعى النبوة والإتيان بشريعة جديدة ثم ما لبث أن ادعى الألوهية (انظر غلاه الشيعة د. فتحي الزغبي ٢٨٤ - ٢٩٠ ، البهايتة د. طه الدسوقي ٥٢ - ٥٨ دار الهدى للطباعة ط١ ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م ، البابية والبهائية وموقف الإسلام منها د. سهير محمد الفيل جـ٣ صـ١٩ - ٢٣ ط دار الطباعة ط١ ١٩٩١ - ١٤١٢هـ .

(٢) أحد أدعياء النبوة الكاذبة في الإسلام ، نشأ في بني حنيفة وادعى نزول الوحي عليه وأتى في هذا الباب بأسجاع مبتذلة لا معنى لها ولا توصف ببلاغة يعارض بها القرآن ولم يأت بدليل على ما يقول وقد أقر نبوة النبي وكتب إليه مقر بدعوته لكنه يزعم أن إليه قسم الأرض بينهما واستتد أمره في حروب الردة وحاربه خالد بن الوليد وقتله وحشي قاتل عم الرسول حمزة. (انظر: عقيدة ختم النبوة د. عثمان عيش صـ ٨٥ . نشر مكتبة الأزهر ط١ ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦).

(٣) النبأ العظيم د. محمد عبد الله دراز صـ١٠١ - ١٠٣ تخريج عبد الحميد الدخلخنى . دار المرابطين للنشر ط١ ١٩٩٧م .

انتفاء الغرض في فعله تعالى أو ثبوت غرض آخر بأن يكون لطفاً بمكلـــف ، أو إجابة لدعوته ، أو معجزة لنبى آخر ، أو ابتلاء لعبد لينال الثواب بالتوقف عـــن موجبة ، أو بالنظر والاجتهاد في دفعه كما في إنزال المتشابه ، وقد يكون الخارق إضلالاً للخلق (١).

الرد على الشبهة.

إن هذه الشبهة قامت على جملة من الاحتمالات والفروض الظنية وبالتـــالي فـــلا يصح الاستدلال بها .

إن أفعال الله تبارك وتعالى غير معللة بالغرض . وما أجمل ما عبر عنه الإيجـــي في رده هنا بقوله:" إنا لا نقول بالغرض بل نقول إن خلقها يدل على تصديق لـــه قائم بذاته(٢) " لأنه لا خفاء ولا خلاف في ترتب الغايات والآثار علـــى بعـــض أفعاله ، وإلا لم يجعلها أغراضاً لها ، فظهور المعجز تصديق قائم بذاته مـــن الله للنبي(٣) وبهذا اتضح بطلان هذه الشبهة ودحضها .

٥- التباس المعجزة بغيرها من الخوارق.

تقرير الشبهة .

احتمال أن يكون الخارق كرامة(٤) أو خارق آخر كالسحر(٥) مثلاً لا معجزة(١)

---

(١)أنظر: شرح المقاصد. جـ٢ صـ ١٣٢.

(٢) شرح المواقف . جـ٣ . صـ١٨٨ .

(٣) انظر : شرح المقاصد جـ٢ . صـ١٣٢ .

(٤) الكرامة هي : أمر خارق للعادة يظهره الله على يد عبد صالح ظاهر الصلاح إكرامـاً له من الله تعالى غير مقرونة بدعوى النبوة (انظر : شرح المقاصد جـ٢ . صـــ١٤٨، كتاب البداية من الكفاية في الهداية في أصول الدين للشيخ الإمام أنور الديـــن الصـــابوني تحقيق د/ فتح الله خليف صـ٩٨ - ٩٩ ط دار المعارف ١٩٦٩م) .

(٥) السحر هو : ما يفعله الساحر من الحيل والتخيلات التي تحصل بسببها للمسحور مـــا يحصل من الخواطر الفاسدة الشبيهة بما يقع لمن يرى السراب فيظنه ماء ، ومـــا يظنـــه

الرد على الشبهة.

إن المعجزة لا تلتبس بغيرها من الخوارق لما هو معروف أن الغرض منها تصديق النبي في دعوته وإلزام الجاحدين، أما الكرامة فهي أمر يخص الله به من يشاء من عباده مكافأة ومثوبة له . قال تعالى ﴿ ومن يتق الله يجل الله له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب...﴾ (٢).

أما السحر فهو ما يظهر على يد فاسق من خلال تعلمه لعدة قواعد .

إن صاحب المعجزة لا يكتم معجزته بخلاف صاحب الكرامة " فسر المعجزات الإظهار ، وسر الكرامات الكتمان ، وثمرة المعجزة تعود على الغيب ، والكرامة خاصة بصاحبها ، وصاحب المعجزة يقطع بأن هذه معجزة والوالي لا يستطيع أن يقطع بأن هذه كرامة أو غيرها "(٣) .

إن خوارق العادات ليست من فعل العباد وإنما من فعل رب العباد ، وتجويز الكرامات ليس قدحاً في النبوة كما أن وجود السحر لا يتعارض معها لما هو معلوم " أن المعجزات للأنبياء ، والكرامات للأولياء ، والمعونات لسائر العباد"(٤) هذا بالإضافة إلى أن الخارق هذا ليس سحراً لأن من يتأمل حال الأنبياء يعلم بأنه

راكب السفينة أو الدابة من أن الجبال تسير ، وبالجملة فهو مزاولة النفوس الخبيثة لأقوال وأفعال يترتب عليها أمور خارقة للعادة (انظر: السراج المنير. خطيب الشربيني جـ١ صـ٨١ . ط دار المعرفة بيروت ط٢ ، فتح القدير للشوكاني جـ١ صـ١١٩ ط١ دار إحياء التراث العربي بيروت).

(١)شرح المواقف جـ٣ صـ ١٨٧.

(٢) سورة الطلاق الآيتان ٢ – ٣ .

(٣) كشف المحجوب. للهجويري . دراسة وترجمة وتعليق د. إسعاد عبد الهادي قنديل. جـ٢. صـ٤٥٥ مطابع الأهرام التجارية. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . ١٣٩٥هـ – ١٩٧٥م .

(٤) أصول الدين للبغدادي . صـ١٧٥ .

ليس سحراً لأنهم يأمرون بالخير وينهون عن الشر بخلاف السحرة فهم شهوانيون أشرار لهم مآرب خسيسة(١) .

إن الذي يتأمل تعريف المعجزة يستطيع الوقوف على الفرق بينها وبيـــن جميـــع خوارق العادات ، أو ما يتوهمه البعض على أنه خارق ، فإنه سيجد الفرق بيــــن المعجزة وبين هذه الأشياء جلياً واضحاً ، لا يحتاج معه إلى بيان(٢)

إن للمعجزة شروطاً خاصة بها ، ولا يقع فيها الاشتراك بأي حال مـــن الأحـــوال وهذه الشروط هي أن تكون فعلاً لله تعالى ، وأن تكون واقعة عقب دعوى النبوة، وأن تكون مطابقة لدعواه ، وأن تكون ناقضة للعادة فمتى تحققت هـــذه الشـــروط كان ذلك دليلاً على صدق مدعي النبوة(٣) .

جـــ- الشبه على إمكان العلم بها.

تقرير الشبهة.

أن المدعي للنبوة لا يعلم صدقه إلا إذا علم استحالة الكذب علــــى الله تعـــالى ولا سبيل إلى ذلك سواء أكان الدليل سمعياً أم عقلياً : أما الدليل السمعي للزوم الدور : بمعنى أن صدق النبي متوقف على صدق أخبار الله تعالى ، وأخبـــار الله تعـــالى متوقفة على صدق النبي ، أما عقلاً : فلأن العقل غايته أن الكذب قبيح وهو محال

---

(١) انظر الرسالة الحميدية للشيخ / حسين الجسر صـــ٢٩٨ تحقيق د/ خالد زيادة المكتبة الحديثة طرابلس . ط٣ . ١٩٨٥م .

(٢) انظر النبوة والتنبؤ د/ طه الدسوقي. صـــــ١٣٩ . مطبعـــة الفجـــر الجديـــد. ط١ . ١٤١١هـــ ، وانظر النبوة في الإسلام. د/ طه حبيش صـــــ٦٩ - ٧٢ القـــاهرة . ط١ . ١٤٠١هـــ - ١٩٨١م .

(٣) انظر: شرح الأصول الخمسة صـــ٥٦٩ - ٥٧١ .

على الله تعالى وثبوت المقدمتين الكذب قبيح وهو على الله مستحيل بغير دليل السمع في حيز(١) المنع(٢).

الرد على الشبهة.

إن مجرد إظهار المعجزة على يد المدعي يفيد العلم بصدقه في دعواه وتصديق الله إياه له .

إن الاحتمالات والتجويزات العقلية لا تنافي العلوم العادية الضرورية القطعية فنحن نقطع بحصول العلم بالصدق عقيب ظهور المعجزة من غير التفات إلى ما ذكر من احتمالات بالنفي ولا بالإثبات(٣) .

إن ظهور الخارق بمثابة قول الله تعالى صدقت فأنت رسولي ، وبالتالي هو صادق لما هو معلوم لاستحالة الكذب على الله تعالى(٤) .

إن ما ذكر ما هو إلا تجويزات عقلية واحتمالات ظنية لا يؤخذ منها دليل على إنكار العلم بالمعجزة ، وأنها غير دالة على صدق الرسول .

وأخيراً . يرد عليهم بما هو معلوم " بامتناع الكذب على الله تعالى "(٥) لأنه يستحيل عليه قال تعالى : ﴿ الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثاً ﴾(٦)

وقال تعالى : ﴿ .... ومن أصدق من الله قيلاً ﴾(١) .

---

(١) انظر: شرح المقاصد. جـ٢ . صـ١٣٢ ، انظر الإيمان بالغيب . د/ محمد الغزالي صـ٢٩٦.

(٢) المنع : هو طلب الدليل أو التنبيه على مقدمة معينة أو أكثر ويسمى المناقضة [انظر محاضرات في آداب البحث والمناظر. د/ إبراهيم الحصري . صـ١٣١ (بدون)].

(٣) انظر: شرح المقاصد . جـ٢ . ص١٣٢ .

(٤) انظر: العقيدة النظامية . للإمام الجويني صـ٦٩ . تحقيق د/ أحمد حجازي السقا .

(٥) شرح المواقف . جـ٣ . صـ١٨٨ .

(٦) سورة النساء الآية ٨٧ .

هذه هي الشبه التي عرض لها المنكرون قديماً واستندوا عليها في ردهم للمعجـزة وقد دارت هذه الشبه حول عدة نقاط إما إنكار وقوع المعجزة ، أو إنكار العلم بـها ، أو إنكار دلالتها على صدق الرسول . وكان كل ما يعتمدون عليه هو الاسـتبعاد العقلي ، أو التباسها بغيرها من الخوارق .

٢- شبة المنكرين حديثاً.

أقصد بالمنكرين حديثاً هنا " من يبتدئون من القرن الخامس عشر الميـلادي ، أي من بداية عصر النهضة الأوربية إلى يومنا هذا "(٢) .

وإذا كان القدماء قد أقاموا شبههم اعتماداً على الاستبعاد العقلـي ، لأن قدراتـهم العقلية لم تكن بالدرجة التي تتيح لهم قبول ذلك الخارق ، فإن المحدثين قد أقـاموا شبههم اعتماداً على قوانين العلم الحديث ونظرياته ، واكتشافاته ، ومن ثم رفضوا المعجزة وأنكروها تحت زعم الإيمان بالعلم والعلم وحده ، ومـا لا يخضـع لـه ولقوانينه فلا يمكن الإقرار به ، وبناء على هذا يصح القول بوجود قاسم مشـترك بين القدماء والمحدثين وهو قاسم الاستبعاد العقلي لدى القدماء والاستبعاد العلمـي والعقلي لدى المحدثين ، بل من الممكن القول إن شبه القدماء هي التـي أوحـت للمحدثين أن ينكروا ما ينكرونه استناداً إليها مع إضافة شبه أخرى أوحـت بـها ظروف العصر .

والمنكرون حديثاً طوائف متعددة وتيارات مختلفة كلهم مجمعون على الإيمان بمـا هو محسوس ، ورفض الدين وما يتعلق به لكونه من الميتافيزيقا المرفوضة التـي لا تخضع للبحث العلمي. وفيما يلي عرض لشبه هؤلاء متبعين كل شبهة بـالرد عليها إن شاء الله .

أ- رفض العقل لها:

---

(١) سورة النساء الآية ١٢٢ .

(٢) الإيمان بالغيب . د/ محمد حسيني الغزالي . صـ٢٨٤ .

لقد أقام المحدثون شبهتهم الأولى لرفض المعجزة على منافاتها للعقل ورفضه لـها لخروجها عن المعهود .

فالمعجزات من الأمور الخارقة للعادة الخارجة عن دائرة العقل لمخالفتها الأحكـام العقلية ، وبالتالي فهي مستحيلة لكونها أتت بما يخالف العقل وحدثت على خـلاف قوانين الطبيعة(١).

فالمعجزة بمعنى كونها حادثاً خارقاً للعادة من الأمور التي يرفضـها العقـل ولا يقبلها بحال من الأحوال فضلاً عن ذلك " لا يمكن إثباتها قطعاً ، وأنـه يسـتحيل على من يقبل الفيزياء النيوتوني أن يثبت وقوع أي حادث معين بشـكل خـارق للطبيعة "(٢).

ولا يسلم بذلك إلا السذج من الناس والبسطاء الذين لا يقفون على أسرار الطبيعة.

الرد على الشبهة.

١- بما سبق وأن أشرت إليه من أن المعجزة من الأمور الممكنـة عقـلاً ، ولا يترتب على وقوعها محال ، ووقوعها ليس أعجب من خلق الكون وما فيه إنمـا وجوده على هذه الهيئة من أكبر المعجزات وبناء على هذا يسهل فهم المعجـزات بناء على ردها إلى قدرة الله تعالى لكونها ممكنة ، وكل ممكن جائز الوقوع قـال تعالى : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾(٣).

---

(١) انظر: مختصر القول الفصل.الشيخ/مصطفى صبري صـ٢٨من العقيدة إلى الثورة. جـ٤ د/حسن حنفي صـ٧٥ - ٧٦.

(٢) في مواجهة الإلحاد وعقائد العلم . د/ يحيي هاشم صـ٥٠ مطـابع الأزهـر سلسـلة البحوث الإسلامية. السنة [١١] الكتاب الأول يناير ١٩٨٠.

(٣) سورة يس الآية ٨٢ .

فالله تعالى خلق فينا علماً ضرورياً بأن انقلاب الشيء إلى شيء آخـــر دون مـــا يسمى سبباً ليس ضرورياً فهو أمر ممكن لكنه لا يقع لاســـتمرار عـــادة ترتيـــب الأشياء بعضها على بعض بإرادة الله تعالى(١).

فالأسباب والمسببات قد تقف أحياناً بلا عمل حين يريد الله ذلك قال تعـــالى : ﴿إن الله يفعل ما يريد﴾(٢).

" فالله تعالى وإن يكن ربط المسببات بالأسباب فهو الخالق للاثنين فلو نظرنا إلـــى الأشياء التي تنشأ عنها الآثار ، وتأملنا حقيقتها لوجدنا أنها ليست مقتضيـــة لتلـــك الآثار إذا لا شئ منها يلزم العقل بأنها مقتضية لها ، فـــالحرارة تذيـــب الثلـــج ، والبرودة تجمد الماء ، ولو نظرنا حقيقتهما لم يظهر للعقل وجه اختصاص هذيـــن الأثرين "(٣).

٢- إن استمرار الظواهر على نسقها المألوف الذي نشاهده ليس ضرورياً ، وإنما هو من فعل العادة فارتباط السبب بالمسبب ليس ضرورياً ، فمثـــلاً يـــرى النـــار تحرق دائماً ما من شأنه الاحتراق مع أن الضرورة أو الاستحالة تندر جـــداً ولا تختلف مع عظمة الشيء أو تفاهته وبذلك من الممكـــن أن يوجـــد الســـبب دون المسبب وهذا القول ما ذهب إليه مالبرانش(٤) في القرن السابع عشر وهيـــوم(١) من بعده(٢).

---

(١) انظر : تهافت الفلاسفة للغزالي صـــ٢٣٩ . تحقيق د/ سليمان دنيا . دار المعـــارف ، انظر بين الدين والفلسفة د/ محمد يوسف موسى صـــ١٩٤ . دار المعارف . ١٩٥٢م .

(٢) سورة الحج الآية ١٤ .

(٣) قصة الإيمان . الشيخ / نديم الجسر . صـــ٢١٨ – ٢١٩ .

(٤) مالبرانش : فيلسوف فرنسي ولد عام ١٦٣٨ وتوفى عام ١٧١٥ كان أبوه ســـكرتيراً للملك لويس الثالث عشر، وله عشرة أولاد آخرهم مالبرانش الذي اعتنى به واهتم بتعليمه وتهذيبه وقد ترك مالبرانش عدة مؤلفات، منها البحث عن الحقيقة الذي يعد أهـــم كتبـــه ، الأخلاق ، ما بعد الطبيعة وغيره ذلك، (انظر : الفلسفة العامة وتاريخها د/ محمد غـــلاب =

٣- لا يلزم من مخالفة الأمر لسنن الكون رفض العقل له ودخوله في دائرة المستحيل العقلي . فهي وإن كانت ممتنعة إلا أنها جائزة عقلاً .

فخرق النواميس ليس مستحيلاً، لأن الله تعالى إذا كان هو خالق الناموس فأهون شيء في نظر العقل أن يؤمن بأنه على خرق الناموس أقدر(٣).

٤- وينبغي أن أشير إلى أن قضايا الأديان لا تناقش مناقشة عقلية ، والذي يقبل المناقشة العقلية هو رأس الغيبيات وهو الإيمان بوجود الله تعالى ، فهي مسألة غيبية دل عليها العقل والنقل أما ما عدا ذلك ، فهي أمور سمعية لا يجوز للعقل أن يقحم نفسه فيها لخروجها عن حدوده ، وإمكاناته .

٥- وأخيراً فإن المنكرين بناء على حكم العقل قد أوقعوا أنفسهم في خطأ " فهم لا يفرقون بين المستحيل عادة والمستحيل عقلاً ، وخرق النواميس ليس من المستحيلات العقلية وما دمنا نؤمن أن الله هو خالق الناموس فأهون شيء علينا أن نؤمن بأنه قادر على خرقه "(٤).

= .جـ٢.صـ١٧٢.ط ١٩٤٢ ، ومحاضرات في الفلسفة العامة وتاريخها في الجامعة المصرية لجناب الكونت دي جلازرا . صـ٤٨ .ط. ١٩١٩ - ١٩٢٠).

(١) ديفيد هيوم: ولد عام ١٧١١ باسكتلندا وكان ثالث أخوته ومات أبوه وهو رضيع والتحق بجامعة إدنبرج في الثانية عشر من عمره و له مؤلفات منها رسالة في الطبيعة البشرية - تاريخ انجلترا وغيرها (انظر ديفيد هيوم د/ زكي محمود صـ١٤ - ١٥ دار المعارف ، الفلسفة الحديثة د / محمد أبو ريان صـ١٤١ - ١٤٢ . ط١ . دار الكتب الجامعية) .

(٢) انظر: موقف العقل والعلم والعالم . الشيخ / مصطفى صبري . جـ٤ . صـ٣٣ - ٣٤ .

(٣) انظر : شبهات النصارى وحجج الإسلام للشيخ/رشيد رضا .جـ ١. صـ٦٣ - ٦٤ ط المنار . ط١ . ١٣٢٢هـ .

(٤) قصة الإيمان . الشيخ / نديم الجسر صـ٢٢١ .

من خلال ما سبق يتضح لنا بطلان هذه الشبهة ودحضها ، ويلاحظ أن عرض هذه الشبهة لدى المحدثين لا يختلف كثيراً عما قال به القدماء في رفضهم للمعجزات ، إلا أنها جاءت مصطبغة بصبغة العصر الذي نعيشه وهو عصر العلم والإيمان بما هو محسوس ، وهذا لا يمنعنا من القول بأن هذه الشبهة ليس لها ما يبررها قديماً وحديثاً كما أنه ليس لها أساس قوي ترتكز عليه ، لأن إنكارها اعتماداً على حكم العقل إنكار لا قيمة له ، فقد يكون الأمر الممكن عظيماً لا تستطيع العقول والوصول إليه أو تقبله فتظنه مستحيلاً، وأما رفضها بناء على قوانين العلم فإن العلم نفسه لا يقر من الأدلة إلا البراهين ، والقوانين العلمية ليست لها قوة البراهين ، وحيث إن الأمر كذلك فما هو القانون الذي له قوة البرهان على أن وقوع المعجزات للأنبياء أمر مستحيل(١).

ب- استحالتها بناءً على قوانين العلم وسنن الطبيعة.

من بين الشبه التي تمسك بها المنكرون حديثاً لرفض المعجزة هي خروجها على السنن الكونية وجريانها على خلاف القوانين العلمية.

فقد أثبتوا استحالة المعجزات؛ لأنها خرق للسنن الكونية ، وهذا مستحيل طبقاً لقانون الحتمية(٢) والعلية(٣) ولذا حاولوا تفسير بعض المعجزات تفسيراً طبيعياً

---

(١) انظر : عبد الكريم الخطيب وآراؤه الكلامية . د/ محمد حسينى الغزالى صـ٣٣٨ .

(٢) الحتمية :هي مصطلح يعني أن كل الظواهر والعمليات التي تحدث في الطبيعة والمجتمع والوعي مشروطة سببياً ، فهي قائمة على مجموعة من الشروط الضرورية لتحديد ظاهرة ما فكل شيء في الوجود يرد إلى العلة والمعلول (انظر المعجم الفلسفي مجمع اللغة العربية ص٦٧ . الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية . ١٩٨٣م ، الإسلام وفلسفة العلم . د/ أحمد رمضان صـ١٧٣).

(٣) العلية : كلمة علة كلمة يونانية Agtla تدل على الاتهام وفي اللاتينية Cause أي على السبب أو ما يحدث شيء والعلية مبدأ كلي كوني Universal يعني أنه كل حادثة أو ظاهرة في الكون لها علة أحدثتها ولكل علة معلول ينشأ عنها " انظر : مدخل جديد إلى الفلسفة .

بحيث تكون أموراً متفقة مع قوانين الحتمية والعلية فقالوا : إن طوفان نوح ظاهرة طبيعية ناتجة عن فيضان أو أمطار غزيرة ، وفسروا عصا موسى بالمد والجزر "(١) .

فالمعجزات أثارت شعوراً بالدهشة وعدم التصديق بها ؛ لأنها تنقض ما تعرفنا به الملاحظات الرشيدة الرزينة؛ لأنها تحمل طابع الخيال الإنساني في وضوح وجلاء(٢).

وقد احتج بهذه الشبهة أصحاب التحليل النفسي؛ لأنها تناقض الأسباب والمسببات الظاهرة(٣) .

الرد على هذه الشبهة.

إن العلم عبارة عن فهم أسرار الطبيعة وقوانين الكون بخلاف المعجزة ، فهي أمر خارق للعادة ، ومعنى كونها خارقة للعادة أي خروجها عن نواميس الطبيعة وقوانين الكون فلو خضعت لقوانين العلم، أو لم تناقض الأسباب المعهودة والظواهر المعروفة فأي وجه للإعجاز فيها ؟.

إن المعجزة أمر خارق للعادة يعجز غير النبي أن يأتي بها أو بمثلها ، ولو كانت ممكنة لغيره لعورض بمثلها في زمانه أو غير زمانه .

د/ عبد الرحمن بدوي . صـ١٠٨ . ط٢ . ١٩٧٨ ، المعجم الفلسفي د/ جميل صليبا . جـ١ . صـ٣٨٩ . دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٨٢).

(١) انظر: قصة الإيمان . الشيخ/ نديم الجسر ص٢٢١ ، المعجزة والإعجاز . د/ سعد صالح ص٥٤ .

(٢) محاضرات تمهيدية جديدة فى التحليل النفسى – فرويد صـ١٥٢ ترجمة عزت راجح ، محمد فتحي. نشر مكتبة مصر للطباعة.

(٣) انظر: المعجزة والإعجاز . د / سعد الدين صالح – صـ ٥٤ ، نظرية التحليل النفسى فى ميزان الإسلام/ سعد الدين صالح صـ ٥٥ مكتبة الصحابة- ط ١٤١٤ -١٩٩٣م.

" إن العلم الحديث لم يثبت استحالة المعجزات وإنما الذي أثبته العلم استحالة خرق أحد من البشر مهما كان علمه لشيء من سنن الكون ونواميسه ، ومعنى هـذا أن العلم يتفق مع العقيدة في أن المعجزة لا تخضع لسلطان البشر" (١).

فظاهرة انشقاق القمر بالذات ليست مستحيلة في العلـم وإن كـان مسـتحيلاً إن يصنعها إنسان ، فالعلم قد شاهد انشقاق مذنب (بروكس) شقين سنة ١٩٨٩ وكذلك انقسام مذنب (بيلا) إلى جزئين سنة ١٨٤٦ ، والفرق بين انشقاق القمر وانشـقاق هذين المذنبين أنهما لم يلتئما في حين أن القمر قد التأم ، وهذا هو الفرق المنتظـو بين الظاهرة الفلكية في الفطرة ، والمعجزة الفلكية على يد الرسول، لأن المعجـزة مؤقتة تزول بزوال وقتها وتحقق الغرض منها، ولو اسـتمرت، لكـانت ظـاهرة طبيعية صدفة ولخرجت عن دائرة المعجزات(٢).

فالمعجزات وقوعها ثابت من خلال الكتب المنزلة وشهود العيان ولا يمكن لأحـد أن يشكك فيها لكونها من صنع الله تعالى، وليس للعبد دخل بها .

إن القوانين التي يستندون إليها في إثارة شبههم لم يعد لها قيمة اليوم على ضـوء النظريات الحديثة .

" فقانون السببية الذي يتمسكون به قال عنه استيوارت مل(٣) إن الله الذي أوجد سلسلة الأسباب والعلل قادر على تعطيل عمل هذه السلسلة فلا تكـون المعجـزة

---

(١) المعجزة والإعجاز . صـ٥٤ ، انظر الإسلام في عصر العلم . د/ محمد الغمـراوي صـ١٠٤ .

(٢) انظر: الإسلام في عصر العلم . د/ محمد الغمراوي ص١٠٦ ، الإسلام وفلسفة العلـم د/ أحمد رمضان صـ٢٠٦ – ٢٠٧ .

(٣) استيوارت مل : هو ابن جيمس مل ولد عام ١٨٠٦ وتوفى عام ١٨٧٣ ، تولى أبـوه تثقيفه بنفسه وقد انتخب عضواً بمجلس النواب في عام ١٨٦٥ وظل به ثلاث سنوات وقـد كتب كثيراً في الصحف والمجلات (انظر : تاريخ الفلسـفة الحديثـة . يوسـف كـرم . صـ٣٤١ – ٣٤٢ دار المعارف . ط٥).

خارقة للعادة بهذا الاعتبار ، ولا يختل قانون السببية فسبب المعجزة إرادة الله "(١).

وقانون الحتمية لم يعد له قيمة اليوم بناءً على نظريات العلم الحديث لا سيما النظرية النسبية التي قلبت موازين العلم الحديث ومفاهيمه " فقد أكدت أن الذرة ومكوناتها مجرد ضرب من الغيبيات ، كما أثبتت أن المادة المحسوسة هي عبارة عن طاقة كامنة وأن المادة والطاقة صورتان مختلفتان لشيء واحد ، بمعنى أنه يمكن تحويل المادة إلى طاقة غير مرئية وغير محسوسة "(٢).

إن محاولة تفسير المعجزات الواردة في الكتب السماوية على أساس القوانين العلمية خطأ فادح ، ولا صحة لما يقال بأن الغرض من ذلك تقريبها من العقول " لأن هذا التعريف فضلا عن كونه يستحيل علميا في بعض المعجزات ، فإنه بذاته مسخ لمعنى المعجزة ، وعكس لحكمتها وحكمة ذكرها " (٣).

وأخيراً. فإن محاولة تفسير المعجزات استنادا إلى قوانين العلم ، وظواهر الطبيعة محاولة فاشلة . ليس من ورائها إلا إثارة الشبه ، لزعزعة الثابت وبذر الفتن ، وهدم الأديان ؛لأن العلم إذا كان قد فشل في الوصول إلى كل القوانين المتعلقة بعالم المادة فهل يليق به أن يحاول الفصل فى الأمور المتعلقة بعالم الغيب.

والملاحظ على هذه الشبهة أنها وجدت لدى القدماء ورددوها ، وجعلوا من وقوع المعجزة سببا لوقوع محالات كانقلاب البحر دهناً ، والجبل ذهبا وغير ذلك . ثم وجدت لدى المحدثين وإن أضافوا إليها شيء من أسلوب العصر ولغته . والقاسم بينهما واضح وهو إثارة الشبه لهدم الدين والتحرر مما يشتمل عليه .

---

(١) مختصر القول الفصل . الشيخ / مصطفى صبري . هامش صـ٣٠ .

(٢) الإسلام والتحليل النفسي عند فرويد . د/ أحمد رمضان . صـ٢٥٣ – مكتبة الإيمان ط١ . ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م، انظر : أينشتين والنظرية النسبية . د/ محمد عبد الرحمن مرحبا صـ٨٠ – ٨٤ . دار العلم بيروت . ط٨ . ١٩٨١ .

(٣) قصة الإيمان . الشيخ / نديم الجسر صـ٢٢٠ .

جـ- عدم حدوثها في هذه الأيام .

من بين الشبه التي روج لها منكرو هذا العصر هذه الشـبهة ، وهـي استحالة المعجزة ، وليس أدل على ذلك من عدم حدوثها في هذا الزمان فـها هـو أحـد ألسنتهم(١) يعبر عن هذه الشبهة قائلاً: " إن عالم الغيب لم يأتنا بشيء جديد بـل الأمر بالعكس إذا نلتقي فيه بجملة الإرهاصات والأعاجيب والنبوات والتخيـلات التي انحدرت إلينا من العصور البعيدة والكتب العتيقة ، والتي رأينا منـذ عـهد طويل أننا فرغنا منها؛ لأنها نتاج خيال جامح أو احتيال مغرض ، وحصيلة زمـن كان جهل الإنسانية فيه على أوجه ، وكانت الروح العلمية ما تزال طفلاً يحبـو . فإذا نحن آمنا بما يحدثنا به القائلون بالغيب في يومنا هذا تعيين علينا أن نؤمن بما انحدر إلينا من الماضي ، فعندئذ لا يفوتنا أن نلحظ أن تقـاليد الشـعوب جميعـاً وكتبها المقدسة تزخر بأمثال هذه المعجزات والأعاجيب ، وان الأديان تستند فـي دعواها ، إذ تطالب الناس بالإيمان بها .... ولو اقتنعنا بـأن أمثـال تلـك العجائب لا تحدث في يومنا هذا ، كنا بمنجاة في أن يعترض علينا بأنها يمكـن أن تكون قد حدثت في الأيام الخالية "(٢).

الرد على هذه الشبهة.

إن ما ذكر هنا في هذه الشبهة كلام ساقط لا طائل من ورائه إلا إثـارة الشـبه لزعزعة اليقين ، فمن قال إن عدم حدوث الشيء في هذا الزمان يترتب عليه عدم حدوثه في الأزمان السابقة هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن عدم حدوثها فـي

---

(١) أقصد به سيجموند فرويد – الذي ولد عام ١٨٥٦ من أبوين يهوديين وقد اهتم فرويـد اهتماماً خاصاً بالأبحاث الفسيولوجية وقد حصل على دكتوراه فـي الطـب عـام ١٨٨١ (انظر : الموجز في التحليل النفسي لفرويد . صـ٩ . ترجمـة/ سـامي محمـود علـي وآخرون . تقديم د/ محمد عثمان نجاتي. مهرجان القراءة للجميع صيف ٢٠٠٠م).

(٢) محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي سيجموند فرويد . صـ٢٩ – ٣٠ . ترجمـة / عزت راجح . مراجعة / محمد فتحي. نشر مكتبة مصر للطباعة .

أيامنا هذه لا تنفي وقوعها وذلك؛ لأن " وقوع المعجزات تاريخياً يؤدي إلى إحدى نتيجتين : فيما يتصل بالنواميس الكونية إما أن تكون خرقا لبعضها حسب نـوع المعجزة أو لا تكون فإن كانت فهي أدل على صدق النبي أو الرسول في دعـواه أنه من عند الله؛ لأنه لا يقدر على خرق السنة الكونية إلا الله الذي سنها وإن لـم تكن فهي قد وقعت طبق سنة كونية ، النبوة أو الرسالة شرط في تحقيقـها فـإذا تخلفت الشروط تخلفت النتيجة ولم تقع المعجزة ، وهذا هو السـر فـي امتنـاع المعجزات إلى اليوم وإلى يوم القيامة . بعد أن ختمت النبوات والرسالات الإلهيـة بالإسلام ونبوة خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه"(١).

إن ما يردده فرويد وغيره يدل على سطحية في التفكير فهو يريدها أن تحدث في أيامنا هذه ، وإلا امتنع التصديق بها ، وقد نسي أن المعجزات قد انتهت بـنزول آخر رسالة وهي الإسلام ، ومع ذلك فمعجزة الإسلام الكبرى وهي القرآن الكريـم ما تزال موجودة وتتحدى البشرية كلها فهل اطلع عليها أولئك الملحدون ؟(٢).

إن عدم حدوثها في هذه الأيام لا ينفى عدم وقوعها , هذا من ناحية ومن ناحيـة أخرى فإن هناك من الأبحاث والقوانين العلمية التي تقرب معنى المعجـزة إلـى الأذهان وتؤكد إمكانية حدوثها فعلى سبيل المثال. "معجزة الإسراء والمعـراج " ، فالله تعالى يسر للإنسان من العلم النظري والتطبيقي في عصر العلم هذا ، والتقدم العلمي ما مكن من قطع المسافات بسرعة فائقة ، ويكفي تأكيداً على هذا ما حققـه الإنسان من سرعة الانتقال بالنفاثات الأسرع من الصوت والقميرات الصناعيـة ، فسرعة الصوت كيلو متر في كل ثلاث ثوان وإذن فالنفاثات الأسرع من الصـوت مرتين وليست هي أسرع النفاثات يستطيع الإنسان بها قطع المسافات من مكة إلى بيت المقدس ذهاباً وإياباً فيما دون الساعة ولا يجد من ينكر عليه ذلك ، ولو اتخـذ

---

(١) الإسلام في عصر العلم . د/ محمد الغمراوي . صـ١١٠ .

(٢) انظر: نظرية التحليل النفسي عند فرويد . د/ سعد صالح صـ٩٤ .

في رحلته مركباً له سرعة القمر الصناعي في دورانه حول الأرض التي تبلغ ثمانية كيلو مترات في الثانية لقام برحلة الإسراء في دقائق معدودة دون العشر ، ولأمكن أن يعود إلى فراشه وفيه دفء كما حدثت به السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، ولكن صعود الإنسان للقمر لا يفسر لنا أمر المعراج ، وإنما الذي تفسره النظرية النسبية التي يتقبلها علماء العصر بعد أن حققت التجارب لها نتائج عدة فإن من نتائجها الرياضية أنه لو وجد كائن له سرعة أكبر من سرعة الضوء لانمحت إمامه المسافات مهما عظمت الأمكنة فيقطع المسافات في زمن يسير جداً وإن هذا يفسر لنا نزول الملك عز وجه به إلى السماء وإذن لا تستغرق رحلة المعراج في مثل زماننا إلا بقدر ما يستغرقه حديثه مع الأنبياء لدقائق معدودة يعود بعدها لفراشه ولا يزال فيه دفء والعلم يخبر أن هناك سرعة أكبر من سرعة الضوء، ونحن أهل القرآن نرى أن تفسير النظرية النسبية لمعجزة الإسراء والمعراج دليل آخر على صدقها(١) مما يؤكد إمكانية المعجزة ووقوعها.

وبناءً على هذا يتضح بطلان هذه الشبهة وردها وأنه لا قيمة لها ولا غرض من ورائها إلا الخروج من رق العبودية لله تعالى والطعن في الدين ، والتحرر منه لإنكار النبوة وما يتصل بها.

د- خطأ النقلة " أو الطعن في الرواة ".

من بين الشبه التي أثيرت لرفض المعجزة لدى المحدثين ما أثاروه استناداً إلى كذب النقلة أو خطئهم ، وقد قال بهذه الشبهة " ديفيد هيوم " الذي اشتهر عنه رفضه للمعجزات استناداً إلى تشكيكه في أقوال الرواة .

فهو يرى أنه لم يقم دليل على صدقهم وضبط أقوالهم ، ولا يمنع أن يكونوا قد انخدعوا وهيئ لهم ، أو أن يؤمن بأن قوانين الطبيعة قد انحرفت ولذا فهو

(١) انظر: الإسلام في عصر العلم . د/ محمد الغمراوي صـ١١١ - ١١٤ .

يرفضها لا سيما وأن الإيمان بخوارق العادات والكرامات والمعجزات لا يظهر غالباً إلا بين أصحاب العقول ذات الطابع الأسطوري(١).

ففي محاورات في الدين الطبيعي يرفض الخوارق على أساس أن الأرجح فيها إما كذب الرواة أو خطؤهم، وبالتالي فمن الصعب الإقرار بإمكانية وقوع خارق اعتماداً على أقواله لا سيما ، وأنهم وجدوا في عصور تجهل أدنى معرفة بالتوثيق والنقد التاريخيين ، فضلاً عن عدم توافر شروط النقل الصحيح في هؤلاء الرواة التي تتطلب التواتر واليقين ، كما لم يكن من المؤكد اتصافهم بالصلاح والضبط والقدرة على التمييز بين الحقيقة والخيال(٢).

وعلى هذا فالمعجزة مستحيلة ولا سبيل لمعرفتها إلا بالنقل ، ولا يكون النقل إلا " بأخبار الآحاد أو بالأخبار المتواترة، وأخبار الآحاد لا تورث إلا الظن ولا يحدث معها اليقين ، وتظل محتملة الصدق والكذب وكثير من روايات المعجزات أخبار أحاد وأخبار غير متواترة ...... وأما التوتر فليس مجموع أحاد بل له شروط أربعة في مقدمتها الاتفاق والحس والعقل ...... بالإضافة إلى العدد الكافي الذي يستحيل معه التواطؤ واستقلال الرواة بعضهم البعض وتجانس انتشار الرواية في الزمان ، ولا يمكن إثبات المعجزة إذاً؛ لأنها تعارض شهادة الحس وبداهات العقل "(٣).

---

(١) انظر: العقل وما بعد الطبيعة . د/ محمد عثمان الخشت صـ٩٣ – ٩٤ ، مكتبة ابن سينا ، قصة الصراع بين الدين والفلسفة . د/ توفيق الطويل صـ٢٤٤ . دار النهضة العربية . ط٣ . الفلسفة الحديثة عرض ونقد . د/ أحمد رمضان صـ٢٩١ مكتبة الإيمان بالمنصورة .

(٢) انظر: مدخل إلى الفلسفة جون لويس صـ١١٥ ترجمة أنور عبد الملك دار الحقيقة للطباعة والنشر بيروت ط٤ ١٩٨٣ .

(٣) من العقيدة إلى الثورة – النبوة – المعاد . د/ حسن حنفي جـ٤ . صـ١٦٢ نشر مكتبة مدبولي .

الرد على الشبهة.

١- إن ما ذكر في هذه الشبهة لا أساس له من الصحة فقد نقلت إلينا هذه المعجزات نقلاً متواتراً عن جمع يؤمن تواطؤهم عن الكذب وبعناية لا مثيل لها لا يستطيع المغرضون ولا الناقضون أن يجدوا أية ثغرة ينقدون منها إلى توجيه أي نقد .

٢- إن جملة القواعد والأسس التي وضعها علماء الفن (أهل الحديث) للحكم على الأخبار الواردة إلينا في أمر المعجزات وغيرها إنما جاءت نتيجة جهد دائب ، وبحث مستمر لمعرفة أحوال الرواة ، وسيرتهم ومن عاصرهم ، ومعرفة عمن أخذوا وعمن أخذ عنهم ، وبيان أحوالهم من حيث الضبط والعدل والصدق إلى آخره .

٣-" لم تصل أمة من الأمم إلى ما وصلت إليه الأمة الإسلامية في ذلك الأمر من الدقة والتحقيق ، وفي وضع الأسس التي يبنى عليها الحكم على الأخبار وروايتها"(١).

ويعد مناهج المحدثين ومنها مقدمة ابن الصلاح وثيقة مهمة تضاف إلى تراثنا في مواجهة من يستربون في جدوى انشغالنا به ...... ثم هو جدير بأن يحسم ما يزال عالقاً في أفقنا من بقايا الشك في المرويات النقلية التي وصلت شفاها إلى العصر التدويني(٢) .

هذا بالإضافة إلى أن جملة هذه المعجزات قد ذكرها الله تعالى في محكم كتابه هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لا سيما وأن الله تعالى قد وعد بحفظة فقال ﴿إنا نحن لنزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾(٣).

---

(١) مكانة السنة في بيان الأحكام الإسلامية – الشيخ / علي الخفيف . صـ٣٦ . هدية مجلة الأزهر . شوال ١٤٢٠ مطابع روزاليوسف الجديدة .

(٢) انظر: نفس المصدر صـ٣٦ – ٣٧ .

(٣) سورة الحجر الآية ٩ .

٤-إن المعجزات قد نقلت إلينا نقلاً متواتراً والتواتر يفيد اليقين فقد شاهد بعض أتباعه عليه السلام الماء عندما احتاجوا إليه في السفر فطلبوا منه السقيا " فوضع كفه في قليل من الماء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه ، وهم يستقون منه حتى اكتفوا وهم كثيرون"(١) .

فقد نقلت إلينا هذه المعجزات نقلاً متواتراً بالأخبار الصحيحة التي جاء بها الثقات العدول الذي يؤمن تواطؤهم عن الكذب .

٥-إن التواتر يفيد العلم الضروري ولا ينكره إلا جاحد وجميع ما نقل إلينا بالتواتر يفيد اليقين الذي لا يقبل الشك ويحيل العقل تواطؤهم عن الكذب(٢).

٦-بالإضافة إلى جملة ما سبق فهناك شواهد متعددة تؤكد وقوع المعجزة :-

أ- القرآن الكريم : الذي اشتمل على حكم باهرة وأخبار صحيحة ، وقد تحدث عن معجزات كثيرة وأفاض فيها وحديثه صادق؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾(٣) وقد عارضه المعارضون ولكن باءت معارضتهم بالفشل ورد الله كيدهم .

ب- الشاهد التاريخي : فالتاريخ يشهد بوقوع معجزات متعددة على أيدي رسل الله " والتاريخ هو الوعاء الزمني الذي عاصر المعجزة ، وبلغ بها من خلال ذكرياته عنها "(٤) كما أنه نفسه هو الذي تحدث عن المعجزة من خلال عرض وقوعها ونتائجها وما يتصل بها . كل هذا يدل على وقوعها .

---

(١) انظر: الرسالة الشيخ / حسين الجسر . صـ٦٥ تحقيق . د/ خالد زيادة المكتبة الحديثة ط٣ . ١٩٨٥ .

(٢) انظر: الحصون الحميدية للمحافظة على العقائد الإسلامية . الشيخ / حسن بن محمد الجسر صـ٦٤ .ط. مصطفى البابي الحلبى . ط٢ . ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م .

(٣) سورة فصلت الآية ٤٢ .

(٤) عبد الكريم الخطيب وآراؤه الكلامية صـ٣٣٠ .

جـ- الشاهد الديني : فهو أيضاً برهان حق ودليل صدق على وقوع المعجزة وقد ظل علم الأديان يذكر كل نبي بما معه من خوارق للعادات حتى انعقد في قلب أتباعه إمكان وقوع المعجزة (١).

فاليهود يتحدثون عن معجزات موسى والنصارى يتكلمون عن معجزات عيسى ، ونحن معشر المسلمين نتباهى بمعجزات الرسول التي هي أكثر من أن تعد وأعظم من أن تحصى .

د- شاهد الطبيعة : فالطبيعة نفسها تقر بجواز وقوع المعجزة وإمكانها؛ لأن الطبيعة تعترف بمبدأ الاستثناء في كثير من الأحيان وهو الباب الذي ترد عليه المعجزات، لأن الاستثناء خرق لنظام الطبيعة الثابت(٢)

والمعجزة في حد ذاتها خرق لهذا النظام لكونها جرت على خلاف العادة ووقعت على خلاف المعهود.

بعد هذا العرض نستطيع القول بأن هذه الردود وغيرها تجعل من هذه الشبهة لا قيمة لها لفساد ما عليه يعتمدون ، وما إليه يرتكزون . وهذه الشبهة وجدت قديماً وامتد آثارها في العصور الوسطى على يد بعض الملحدين أمثال ابن الراوندي، وأبى بكر الرازي ثم عادت وظهرت مرة أخرى في العصور الحديثة ، ومعنى هذا أن هذه الشبهة وغيرها تتناقل جيلاً بعد جيل خلفاً عن سلف والغرض من ذلك هدم الدين ولا فرق كبير بينهما سوى أن الأقدمين أقاموا شبههم على الاستبعاد العقلي، وهو عين ما ردده المحدثون وأن أضافوا إليه شيئا من لغة العصر ليكون أكثر بريقاً وأشد إقناعاً فكسوه بالثوب العلمي.

---

(١) انظر : نفس المصدر صـ٣٣٠ .

(٢) الإيمان بالغيب وأثره على الفكر الإسلامي . د / محمد الغزالي صـ٣٠٢ .

وقصاري القول: إن إنكار المعجزات التي حدثت فعلاً لا يسوغ من وجهة النظـــر العلمية أو من وجهة النظر العقلية بناءً على كونها مخالفة للقوانين المأخوذة مـــن مشاهد الطبيعة وأحداثها .

فكل ما نشاهده في الكون من أحداث وظواهر لو دققنا النظر فيه ورفعنا عنه ستار الرؤية المنكرة له لكان في مفاهيم العقلاء معجزة من المعجزات وعجيبـــة مـــن العجائب ، ولكن تكرار الرؤية له جعله أمراً معتاداً(١).

([1]) صراع مع الملاحدة حتى العظم.د/ عبد الرحمن حبنكه صـــ٣١١ - دار القلم دمشـــق ط٤ ١٤٠٥هــ - ١٩٨٥م.

الفصل الخامس

المنكرون لليوم الآخر

المبحث الأول: دوافـــع الإنكـــار

المبحث الثاني: المنكــرون للبعث

دوافع الإنكار

قضية الإيمان بوجود حياة أخرى غير هذه الحياة قضية إيمانية . فهي ركن من أركان الإيمان .

قال تعالى ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ (١) .

وقال تعالى ﴿ واعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾(٢)

وفي الحديث "(أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ...الحديث).

فالإيمان بهذه الحياة له أهمية لأنه عبارة عن تصديق جازم بأخبار الله تعالى بانتهاء هذه الحياة وابتداء حياة أخرى كل ما فيها حقائق غيبية تفوق طاقات البشر وتخالف تصوراتهم ، فالإيمان بها قضية إيمانية بحتة قوامها الإقرار بها والتسليم بكل ما جاء عنها على ألسنة الرسل .

لذا آمن بها الموحدون دون بحث عن حقيقتها أو جدال حولها ، ووجدت شرذمة في كل عصر أنكرت هذه الحياة بكل ما فيها مدفوعين إلى ذلك بجملة من الدوافع وهي على النحو التالي :-

(أ) إنكار وجود الله تعالى.

قضية وجود الله قضية بدهية دل عليها النقل والعقل وجاءت الأبحاث العلمية في عصرنا هذا كلها تدل على هذه الحقيقة ومع هذا وجدت طوائف شاذة عبر العصور المختلفة تنكرها.

فالدهرية والملاحدة ، وطائفة من الباطنية(١) وأهل الطبائع(٢) ، والمنجمون(٣) والصابئة .

---

(١) سورة البقرة الآية ٦٢ .

(٢) سورة العنكبوت الآية ٣٦ .

ولم يقتصر الأمر على هذه الطوائف ، بل أنه كلما مضى فترة من الزمان ظهرت طوائف أخرى سميت بأسماء متعددة تعلن رفضها الإقرار بفكرة الألوهية وتعلـــن مبدأ الإنكار في ثوب جديد وأسلوب مختلف .

فالمنكرون لوجود الله في هذه العصور المتأخرة لا يمكن تجاهلهم لأنهم يزعمـــون أنهم علميون وتقدميون ، ولا يؤمنون إلا بالواقع المحسوس . أمثال الوضعيـــــة ، والوضعية المنطقية والدروانية والبراجماتية، وغيرهم من الطوائف الشاذة التـــــي أنكرت وجود الله تعالى . وواقع الأمر أنهم خلاف ذلــك تمامـــا فـــهم جـــاهليون متأخرون.

" لأنهم عادوا إلى الماضي السحيق يستلهمون منه فكرهـــم وعقـــائدهم "(٤) وإذا كانت هذه الطوائف أنكرت وجوده تعالى فهي لما سواه أشد إنكارا فقد رفضت هذه الطوائف الاعتراف بالنبوة والتصديق بالمعجزة والتسليم بوجود عالم آخر غـــــير منظور .

(ب) غرابة البعث واستبعاده.

---

(١) الباطنية فرقة من غلاة الشيعة ، واختلف في نسبتهم فقيل ينتسبون إلى الصائبة وقيل إلى المجوس ، ومن أقوالهم أن لكل تنزيل ظاهراً وباطناً، وقالوا بقدم العالم (انظر : الملل والنحل للشهرستاني جـــ١ ص٢٢٨ – ٢٣٥ الفرق بين الفرق صـــ٢٨١ – ٢٨٥).

(٢) أهل الطبائع قوم أنكروا وجود الملك تعالى ، وقالوا بقدم العالم ، والعالم عندهم مكون من الطبائع الأربعة الماء – الهواء– النار – التراب (انظر : بحر الكلام للنسفى صـــ ٨٥).

(٣) المنجمون طائفة أنكرت وجود الله تعالى وقالوا إن خالق العالم ومدبره الكواكب والنجوم فعبدوها وجعلوها آلهة لهم . (انظر : اعتقادات فرق المسلمين للرازى ص١٤٣ – ١٤٤ وبهامشه كتاب المرشد الأمين إلى اعتقادات فرق المسلمين والمشركين . تأليف طه عبد الرؤوف وزميله ونشر مكتبة الكليات الأزهرية ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨ م).

(٤) العقيدة في ضوء العلم الحديث . د/ سعد الدين صالح جـــ١ صـــ٦٣ ، وانظر الفكر المادي الحديث . د/ محمود عثمان صـــ٥١٣ .

اعتمد منكرو الحياة الأخرى على استبعاد البعث وغرابتـــه . وواقـــع الأمـــر أن المتأمل في آي القرآن الكريم يجد أنه يوضح أنه ما من عقيدة جاء بـــها الرســل واستغربها الناس ، واستبعدوا حدوثها مثل هذه العقيدة ، لهذا أصـــر المعـــاندون والملحدون في كل عصر وجيل إلى السخرية منها ، والتشكيك فـــي وقوعـــها ، والتكذيب بكل ما جاء عنها قال تعالى ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقا ﴾(١)

وقال تعالى : ﴿وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتا أئنا لمبعثون خلقاً جديدا قـــل كونـــوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قـــل الـــذي فطركم أول مرة .... الآية ﴾(٢) .

والمعنى " أنكم تستبعدون أن يجدد الله خلقكم ويرده إلى حال الحياة ، وإلى رطوبة الحي وغضاضته بعدما كنتم عظاماً يابسة ، مع أن العظام بعض أجزاء الحـــي ، بل هي عمود خلقه الذي يبني عليه سائره فليس ببدع أن يردها الله بقدرتـــه إلـــى حالتها الأولى"(٣).

فقد أنكر هؤلاء الحياة الأخرى بناء على أن الإنسان إذا مات ، مات وانتـــهى ، أو أنه إذا مات وتفرقت أعضاؤه وذراته في مشارق الأرض ومغاربها فكيف يعلـــم أماكنها ، وكيف يتأتى جمعها مرة أخرى.

ولهذا نجد القرآن الكريم يرد على هؤلاء قائلاً :-

﴿ أو ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلـــه بلـــى وهـــو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فسبحان الذي بيـــده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴾ (٤) .

---

(١) سورة النحل الآية ٣٨ .

(٢) سورة الإسراء الآيات ٤٩ - ٥١ .

(٣) تفسير الكشاف جـ٢ صـ٦٧١ عن تفسير الآيات ٤٩ - ٥١ من سورة الإسراء .

(٤) سورة يس الآيات ٨١ - ٨٣ .

فالأصل الذي يقوم عليه هذا الدليل أن خلق الإنسان ، وإعادته مرة أخـــرى بعــد الموت أهون وأيسر وذلك حسب مقاييس البشر . قال تعالى : ﴿ وهو الذي يبــــدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في الســـموات والأرض وهـــو العزيز الحكيم﴾(١).

والمعنى : " وهو أهون عليه فيما يجب عندكم ويقاس على أصولكـــم ويقتضيـــه معقولكم ، لأن من أعاد منكم صفة شيء كانت أسهل عليه وأهون من إنشـــائها .. فالبعث أهون على الخلق من الإنشاء لأن تكوينه في حد الاستحكام والتمام أهـــون عليه وأقل تعبا وكبداً من أن ينتقل في أحوال، ويندرج فيها إلـــى أن يبلـــغ ذلـــك الحد"(٢).

(جـــ) دوافع سياسية:

من بين الدوافع التي دفعت المنكرين إلى إنكار الحياة الأخرى . العامل السياســـي وأعني به " حب الزعامة والمحافظة عليها وقهر وإذلال من لا حول له ولا قـــوة لتبقى الزعامة في أيديهم ولتبقى مراكزهم في المجتمع خالصة لهم ، لأنهم يعرفون أن الإيمان مطلقاً وخاصة بالبعث سيجعلهم سواسية مع عبيدهم ، ومع سائر الناس ، وسيحرمهم من تنصيب أنفسهم آلهة للناس وساسة لهم "(٣)

وهذا أمر يتنافى مع الإيمان بالحياة الأخرى التي توجب على المرء العمل الصالح لها فلهذه الحياة حكم ومنافع من أهمها ، إثابة المطيـــع وعقـــاب العـــاصي، ورد الحقوق إلى أصحابها . فلو لم تكن وراء هذه الحياة حياة أخرى . يجـــازى فيـــها

---

(١) سورة الروم الآية ٢٧ .

(٢) تفسير الكشاف للزمخشري جـــ٣ صـــ٤٧٦ - ٤٧٧ عن تفسير الآية ٢٧ من سورة الروم .

(٣) الحياة الآخرة ما بين البعث إلى دخول الجنة أو النار د. غالب بن علي المواجي جـــ١ صـــ١٣٥ - ١٣٦ دار لينته للنشر والتوزيع ط١ ١٤١٧هـــ - ١٩٩٧م .

المرء على ما قدم لكان هذا الخلق عبثاً لا معنى له والله تعالى منزه عن ذلك تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

(د) دوافع اقتصادية.

للعوامل الاقتصادية أثر كبير في إنكار الآخرة لدى تلك الطوائف الشاذة التي تنكر وجود الله تعالى . فقد كانوا قديما منغمسين في الشهوات منكبين على الملذات ، يتاجرون في الخمور ، ويتعاملون بالربا ويكرهون البنات على البغاء وهذا أيضاً ما تدين به أتباع هذه الجماعات في العصور الحديثة .

ولو أقر هؤلاء بوجود حياة أخرى بعد هذه الحياة لوجب عليهم التخلي عن مثل هذه التصرفات القبيحة ، ولو تركوها أصيبوا بالخسران الشديد على حد زعمهم .

ولا شك أن هذا يتنافى عن الحكمة في هذه الحياة .

فقد جاءت هذه الحياة لتحقيق البناء الخلقي المعد للإنسانية ، والمحقق لفلاحها في الدنيا " فهذه العقيدة أهدى قائد للإنسان إلى المدنية الثابتة المؤسسة على المعارف الحقة ، والأخلاق الفاضلة وأشد ركنا لقوام الهيئة الاجتماعية التي لا عماد لها إلا معرفة كل واحد حقوقه وحقوق غيره عليه ، والقيام على صراط العدل المستقيم وأنجح الذرائع لتوثيق الروابط بين الأمم إذ لا عقد لها إلا مراعاة الصدق والخضوع لسلطان العدل في الوقوف عند حدود المعاملات "(1) .

لذا كان إنكار الحياة الأخرى أساس كل رذيلة ورأس كل فساد ، إذ من شأنه أن يدفع النفوس إلى أنواع من القتل ويحملها على فعل المنكرات وهجر الطيبات .

وجاء القرآن الكريم موضحاً ذلك بجلاء عندما ربط بين الرذائل الخلقية وبين إنكار اليوم الآخر.

---

(1) الرد على الدهريين . تأليف الشيخ جمال الدين الأفغاني،ص56 تحقيق الشيخ محمود أبو رية تقديم أ/ صلاح الدين سلجوقي الناشر دار الكرنك للطباعة والنشر .

قال تعالى : ﴿ ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم الناس لرب العالمين ﴾(١)

كما أنه ربط بين الفضائل الخلقية والإيمان باليوم الآخر

قال تعالى : ﴿ يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيراً ويطعمون الطعـــام على حبه مسكينا ويتيما وأسيراً . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جـــزاءً ولا شكوراً إنا نخاف من ربنا يوما عبوساً قمطريراً ﴾(٢) .

(هـ) الإيمان بالمحسوس.

أحد الدوافع التي دفعتهم لإنكار الحياة الأخرى بعد الموت .

فما لا يخضع للمشاهدة لا وجود له ، فالبحث عن العلل والغايات والأسباب أمــور لا جدوى منها .

ويوضح هذا بعض المؤيدين لهذه المسألة بقوله: لقد ارتضيت فيما يتعلق بالمعرفة المذهب التجريبي ، وأمنت بنظرية عملية ، وهي أنه يجب علينا أن نســـير فـــي تجاربنا ونمضي في تفكيرنا حول هذه التجارب ، لأن أفكارنا وآراءنا لا تتطـــور ولا تتدرج نحو الكمال إلا بهذا السبيل ، فكل معرفة تأتي من غير هذا الطريـــق خطأ عظيم (٣) .

---

(١) سورة المطففين الآيات ١ – ٦ .

(٢) سورة الإنسان الآيات ٧ – ١٠ .

(٣) انظر العقل والدين . وليم جيمس . ترجمة د. محمود حب الله صـــ١٦ – ١٧ .

وعلى هذا فالإيمان بعالم آخر ليس من الصواب في شيء لأنه الفكرة الصحيحة هي التي "تقودنا لإدراك ممكن فحسب ، أو الفكرة التي إذا نطق بها توحي بإدراكات ممكنة للآخرين "(1) .

وغير خفي أن هذا الدافع يتناقض مع صريح المعقول والمنقول وكذا الأدلة العلمية التي أوضحت فساد هذا الاتجاه وبطلانه " .

---

(1) البراجماتيه وليم جيمس صـ٥٨ .

المبحث الثاني

المنكـــرون للبـــعـــث

وجوده تعالى ، وبعد ذلك تكون القضايا الأخرى المتعلقة بها .

موضوع البعث من الموضوعات الشائكة التي تعددت الأقوال فيها ، ويرجع ذلك لكونه من الأمور الغيبية التي لا مجال للعقل فيها .

فهو قضية خبرية أي ذات مستند خبرى ، وليست قضية عقلية بحتة .

لهذا نجد أنه ما من عقيدة جاء بها الرسول واستبعدها الناس كهذه العقيدة . قال تعالى:﴿ ويقول الإنسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا ﴾ (١).

فالبعث حقيقة ثابتة وواقعة ولا يتنازع فيها إلا أصحاب الهوى والضلال . بل إنه من الأمور اللازمة وإلا تحولت المجتمعات إلى غابة يعتدي القوي على الضعيف والكبير على الصغير دون وازع أو مانع يمنعه .

والبعث غيب ويمثل لونا من ألوان غيب المستقبل وذلك من نواح متعددة :

(١) الفترة من الموت إلى البعث (ب) حقيقته (جـ) الأحداث المصاحبة له (د) مظاهره(٢).

تعريف البعث:

البعث في اللغة: بمعنى الإرسال يقال: بعثه أرسله ، وبعث به أرسله مع غيره فأصل البعث في اللغة الإرسال ، إلا أنه قد يراد به الإثارة أي إثارة الشيء من محله ، ومنه بعث فلان الناقة إذا أثارها من مبركها للسير ، وقد يطلق ويراد به الإحياء(٣).

---

(١) سورة مريم الآية ٦٦.

(٢) انظر: أوراق منسية فى النصوص الفلسفية د/ محمد حسيني موسى صـ١٨٩ – ١٩٥ مطبعة صبحي بالزقازيق ط١ ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.

(٣) انظر: لسان العرب لابن منظور جـ١ صـ٤٣٨ ، المفردات للراغب الأصفهاني صـ٥٢ .

أما في الاصطلاح فقد عرفه العلماء بأنه : " أن يبعث الله تعالى الموتى من القبور ، وبأن يجمع أجزاءهم الأصلية ويعيد الأرواح إليها "(١).
وقيل هو " الرجوع إلى الوجود بعد الفناء . أو رجوع أجزاء البدن إلى الاجتماع بعد التفرق والى الحياة بعد الموت والأرواح بعد المفارقة "(٢) .
وقد تعددت الأقوال حول قضية البعث :
فمنهم من قال إن البعث للجسد فقط دون الروح ، ومنهم من قال إن البعث للروح فقط ، ومنهم من أثبت الأمرين ، ومنهم من أنكر الأمرين ، ومنهم من اختار التوقف .
فهذه هي الأقوال الممكنة في البعث .
يقول الإمام الرازي : أعلم أن الأقوال الممكنة في هذه المسألة لا تزيد على خمسة وذلك لأن الحق:
إما أن يكون المعاد هو المعاد الجسماني فقط ، وهو قول أكثر المتكلمين.
أو المعاد الروحاني فقط ، وهو قول أكثر الفلاسفة الإلهين.
أو كل واحد منها حق وصدق ، وهو قول أكثر المحققين .
أو الحق وهو بطلانهما معا وهو قول القدماء من الفلاسفة الإلهين .
أو الحق وهو التوقف في كل هذه الأقسام وهو المنقول عن جالينوس(٣) .
وما ذكره الرازي هنا ذكره الإيجي(٤) وعرض له التفتازاني(٥) والألوسي(٦) .

---

(١) العقائد النسفية صـ٦٨ ، تحقيق د/ أحمد حجازي السقا . مكتبة الكليات الأزهرية.
(٢) شرح المقاصد جـ٢ صـ١٥٣.
(٣) انظر : الأربعين في أصول الدين . للرازي جـ٢ صـ٥٥. تحقيق . د/ أحمد حجازي السقا مطبعة التضامن .نشر المكتبة الأزهرية ط١ ١٤٠٦هـ .
(٤) انظر: شرح المواقف جـ٣ صـ٢٢٧ – ٢٢٨ .
(٥) انظر : شرح المقاصد جـ٢ صـ١٥٥ – ١٥٦ .
(٦) انظر : روح المعاني للإمام الألوسي . جـ٢٣ صـ٥٨ – ٦٣ .

هذه هي صورة موجزة لموقف الناس من البعث ، غير أن هذه الأقـــوال يمكـــن وضعها في قسمين :

الأول : قسم المنكرين.   الثاني : قسم المثبتين.

أما التوقف في أمر البعث لتردده في أمر النفس " هل هي المزاج فيفني بـــالموت فلا يعاد ، أم جوهر باق بعد الموت يكون له المعاد"(١) .

فهذا الرأي لا يعنينا؛ لأنه في حالة إثباته للبعث يلتقي مع المثبتين ، وفي حالة نفيه يلتقي مع المنكرين للبعث. ولذلك نلاحظ أن ابن سيناء قد أهملـــه عنـــد عرضـــه للمذاهب الواردة في مسألة المعاد(٢) وكذا الإمام الغزالـــي فلـــم يذكـــره ضمـــن الطوائف التي اختلفت في أمر المعاد(٣).

وفي الصفحات التالية أعرض لهذه الاتجاهات بشيء من التفصيل :

الاتجاهات الواردة فى البعث:

الاتجاه الأول: وفيه يذهب أصحابه إلى أن المعاد جسماني فقط ، وهذا ما ذهـــب إليه جمهور المتكلمين حيث إن الروح عندهم جسم سار في البدن سريان النار في الفحم والماء في الورد(٤) .

وبناء على هذا إذا أراد الله تعالى بعث الإنسان مرة أخرى رد إليه روحه التي هي جسم لطيف وبعدها يكون الإنسان في الآخرة كما كان في الصورة التي عليها فـــي الدنيا .

الاتجاه الثاني : وفيه يذهب أصحابه إلى القول بالبعث والروح معاً وهذا ما ذهـــب إليه المحققون من المتكلمين .

---

(١) شرح المقاصد جـ٢ صـ١٥٥ .

(٢) انظر : رسالة أضحوية في أمر المعاد . لابن سينا صـ٣٨ وما بعدها . تحقيق د/ سليمان دنيا ط دار الفكر العربي ط١ ١٣٣٦هـ - ١٩٤٩م .

(٣) انظر : ميزان العمل . الغزالي صـ١٣ ، مكتبة الجندي للطبع والنشر .

(٤) انظر : شرح المقاصد جـ٢ صـ١٥٥ .

يقول الرازي " أعلم أن كثيراً من المحققين قالوا بهذا القول وذلك؛ لأنـــهم أرادوا الجمع بين الحكمة والشريعة فقالوا: دل العقل على أن سعادة الأرواح في معرفـــة الله وفي محبته ، وعلى أن سعادة الأجسام في إدراك المحسوسات"(١) .

وقد عدا شارح المواقف من هؤلاء المحققين الغزالي ، الحليمي ، الأصفـــهاني ، القاضي أبي زيد الدبوسي من الأشاعرة ومعمر من قدماء المعتزلة ، وجمهور من متأخري الأمامية ، وكثير من الصوفية ، فقد قالوا : الإنسان بالحقيقة هو النفـــس الناطقة ، والبدن يجري فيها مجرى الآلة، والنفس باقية بعد الموت فـــإذا أراد الله تعالى حشر الخلائق خلق لكل واحد من الأرواح بدناً يتعلق به ويتصرف به كمـــا في الدنيا(٢) .

يقول الغزالي " اعلم أن الأنبياء صلوات الله تعالى عليهم أجمعين شرحوا أحـــوال الآخرة أتم شرح وبيان وإنما بعثوا لسوق الناس إليها ترغيباً وترهيبـــاً وتشـــويقاً وتخويفاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل لاسيما مـــا في الشريعة الأخيرة من تقرير أحوال المعاد الروحاني والجسدي "(٣) .

ويقول الراغب الأصفهاني " إن الموت المتعارف الذي هو مفارقة الروح للبدن هو أحد الأسباب الموصلة للإنسان إلى النعيم الأبدي ، وهو انتقال من دار إلى دار "(٤).

الاتجاه الثالث: وفيه يذهب أصحابه إلى القول بالمعـــاد الروحـــاني دون المعـــاد الجسماني .

وقد اعتمد أصحاب الاتجاه المادي الذي ينكر المعاد بنوعيه على بعض الشبه التي أثارها أصحاب هذا الاتجاه على نحو ما سيتضح فيما بعد الجسماني مع إقرارهم.

---

(١) الأربعين في أصول الدين للرازي جـ٢ صـ٧١ .

(٢) انظر: شرح المواقف جـ٣ صـ٢٢٨ ، شرح المقاصد جـ٢ صـ١٥٥ .

(٣) معارج القدس : الغزالي صـ٢٣ . دار الآفاق بيروت .

(٤) تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين . للراغب الأصفهاني صـ٢٠٠ . تحقيق د/ عبد المجيد النجار دار العرب الإسلامي ط١ ١٩٨٨ م .

وقد ذهب أصحاب هذا الاتجاه إلى إنكار البعث الجسمانى مع إقرارهــم بــالبعث الروحاني مدفوعين إلى ذلك بأن النفس الإنسانية جوهر باق لا يزول بفناء البدن . يقول ابن سينا : " أعلم أن الجوهر الذي هو الإنسان في الحقيقة لا يفنـــى بعــد الموت ، ولا يبلى بعد المفارقة عن البدن بل هو باق لبقــاء خالقــه وذلــك؛ لأن جوهره أقوى من جوهر البدن لأنه محرك هذا البدن ومتصـــرف فيــه والبــدن منفصل عنه تابع له ، فإذن لم يضر مفارقة الأبدان وجوده "(١) .

وقد استند هؤلاء إلى عدة شبه نكتفي منها بما يلي :-

١- لو كان البعث في الآخرة من المادة التي كانت حاضرة عند الموت فإن ذلــك يؤدي إلى أن يبعث الله المجذوم والمقطوع يده في سبيل الله على صورته هــذه ، وهذا قبيح عند القائلين بالمعاد الجسماني(٢) .

لأن مثل هذه الصورة تتنافى مع كمال أهل الجنة ، ولما كان الأمر كذلــك كــان الحق القول بالمعاد الروحاني .

٢- لو كان البعث فى الآخرة من المادة التي كانت له طوال عمره - لو جاز ذلك - لوجب أن يكون جسداً واحد بعينه ورأساً وكبداً وقلبــاً ، وذلــك لا يصــح لأن الثابت أن الأجزاء العضوية دائماً ينتقل بعضها إلى بعض في الاغتذاء ويغتــذي بعضها من فضل غذاء البعض(٣) .

" وهذا لا يقبل عقلاً ، فبعث الأجساد لا يستقيم من الناحية العقلية فــلا يمكــن أن تعود النفوس بعد الموت إلى البدن البتة "(٤) .

---

(١) رسالة في معرفة النفس الناطقة وأحوالها ، ضمن كتاب أحوال النفس ، لابن سينا صـــ١٨٦ . تحقيق د/ أحمد الأهواني ط دار أحياء الكتب العربية .

(٢) انظر: رسالة أضحوية في أمر المعاد لابن سينا صـــ٥٥ ، تحقيق د/ سليمان دنيا، ط دار الفكر العربي ط١ ١٣٦٨هـــ - ١٩٤٩م .

(٣) انظر : المصدر السابق صـــ٥٥ - ٥٦ .

(٤) المصدر السابق صـــ٨٩ .

وقد أجيب عن هذا بعدة وجوه منها:-

أن أمور الآخرة لا يصح النظر إليها كما ينظر إلى أمور الدنيا فأمور الآخرة تتلقى من الوحي. لوجود فرق بين أمور وطبيعة الحياتين .

أو كما يقول الغزالي إن البعث " يكون بأسباب ولكن ليس من شرط أن يكون السبب هو المعهود بل في خزانة المقدرات عجائب وغرائب ، لم يطلع عليها ، ينكرها من يظن أن لا وجود إلا لما شاهده ، كما ينكر طائفة السحر والنازنجات والطلمسات والمعجزات والكرامات وهي ثابتة بالاتفاق بأسباب غريبة لا يطلع عليها. بل لو لم ير الإنسان المغناطيس وجذبه للحديد وحكي له لاستنكره ، وقال لا يتصور جذب الحديد إلا بخيط يشده عليه ، ويجذب فإنه المشاهد في الجذب حتى إذا شاهده يعجب منه وعلم أن علمه قاصر على الإحاطة بعجائب القدرة "(١) .

ومعنى هذا أن البعث من الأمور التي يجب أن نحيلها إلى قدرة الله الواسعة التي لا يحدها شيء .

٣- شبهة اختلاط الأجساد:

فلو فرضنا اغتذاء إنسان بجسد إنسان آخر كما يحكي عن البلاد التي غذاء الناس فيها الناس ، فمعنى ذلك أن جوهر الإنسان المأكول ذاب في الآكل ، فكيف يبعث كل جسم على حدة ولو وبعث الأول ما بعث الثاني وهذا محال ، ولا يتناسب مع عدل الله تعالى لهذا كان بعث الأجساد في الآخرة غير ممكن(٢) .

وسوف يأتي الرد على هذه الشبه عند الحديث عن شبه أصحاب الاتجاه المادي .

٤- شبهة عدم إعادة المعدوم :

---

(١) تهافت الفلاسفة . للغزالي صـ٢٠٦، قدم له وحققه أحمد شمس الدين -دار الكتب العلمية . بيروت.

(٢) انظر : رسالة أضحوية في أمر المعاد صـ٥٦ .

فهذه الشبهة مبنية على بطلان إعادة حشر الأجساد لكونه " لا يتم إلا مع القول بصحة إعادة المعدوم وهذا محال فذلك محال "(١).

وقد أجيب عن ذلك أن امتناع الإعادة ممنوع ولو سلم فالمراد إعادة الأجزاء إلى ما كانت عليه من التأليف والحياة ونحو ذلك ، ولا يضرنا كون المعاد مثل المبدأ لا عينه(٢) .

كانت هذه بعض أهم الشبه التي تمسك بها المنكرون للبعث الجسماني(٣) والحق أنها شبه واهية وقد رد عليها العلماء بالإضافة إلى تعارضها مع النصوص الشرعية .

قال تعالى ﴿ ...... فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون ﴾(٤) .

وقل تعالى ﴿ قال من يحي العظام وهي رميم قل يحيها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق
عليم ﴾(٥) .

وفي الحديث الصحيح ما رواه ابن عمر قال : (خرج رسول الله (ﷺ) يوماً وبيده اليمنى أبي بكر واليسرى عمر فقال وهو أخذ بأيديهما هكذا نبعث يوم القيامة)(٦).

---

(١) الأربعين في أصول الدين للرازي جـ٢ صـ٥٨ .

(٢) انظر : شرح المقاصد جـ٢ صـ١٥٧ – ١٥٨ .

(٣) لمزيد من الأدلة انظر : الأربعين في أصول الدين للرازي جـ٢ صـ٥٨ – ٦١ رسالة أضحوية في أمر المعاد لابن سينا صـ٥٥ – ٥٨ ، تهافت الفلاسفة للغزالي صـ١٩٦ – ٢٠٧، في فلسفة ابن سينا د/ محمود ماضي صـ١٣٨-١٤٣ . دار الدعوة ط١. ١٤١٧هـ – ١٩٩٧، نظرية النفس بين ابن سينا والغزالي د/جمال رجب صـ٢٥٧ – ٢٧٥ الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٠م .

(٤) سورة يس الآية ٥١ .

(٥) سورة يس الآيتان ٧٨ – ٧٩ .

(٦) أخرجه الترمذي في سننه كتاب المناقب باب في مناقب أبى بكر وعمر كليهما جـ٥ صـ٣٧٨ ح (٣٦٨٩) وقال حديث غريب .

الاتجاه الرابع : وهو الاتجاه المادي ، وفيه يذهب أصحابه إلـــى إنكـــار البعـــث بنوعيه:

فقوام هذا الاتجاه أن الموجود محصور في المادة وحدها فمنها وإليها مرد كل شئ وهي العلة الفاعلة والخالقة . وقد وجد لهذا الاتجاه أنصار عبر العصور المختلفـة وسوفَ يعرض البحث له على النحو التالي :

(أ) شبه المنكرين قديماً (ب) شبه المنكرين حديثاً

وقبل العرض لهذه الشبه أرى أن أمهد لها بحديث المذهب المادي عـــن مصـــير الإنسان

حديث المذهب المادى عن مصير الإنسان:

يذهب أصحاب هذا الاتجاه إلى إنكار المعاد أصلاً ، لأن قوام مذهبهم إنكار مـــالا يخضع للحس . لهذا كان الموت عندهم نهاية الإنسان والإنسان لديهم " هو ذلـــك الهيكل المحسوس بماله من المزاج والقوى والأعراض ، وأن ذلك يفنى بـــالموت وزوال الحياة ، ولا يبقى إلا المواد العنصرية المتفرقة وإنه لا إعادة للمعدوم "(١) هذه هي وجهة نظر أصحاب المذهب المادي الذي يمر بمراحـــل كثـــيرة وأدوار متعددة بدءاً من عهد الطبيعيين الأوائل كطاليس وديمقريطس ، ومروراً بالدهريـــة ومعطلة العرب ووصولاً إلى العصر الحديث وما اشتمل عليه من تيارات ماديـــة كالواقعية والوضعية المنطقية ، ونظريات الحادية كالنظرية الدروانيـــة ونظريـــة التحليل النفسي " ولكل وجهة في نشأة العالم وكيفية الحياة ومآلها إلا أنهم مجمعون على رفض الألوهية واليوم الآخر والنبوات "(٢).

---

(١) شرح المقاصد جـ٢ صـ١٥٥ .

(٢) الروح في دراسات المتكلمين والفلاسفة . د/ محمد أحمد المسير صـ١٥٤ . دار المعارف ط٢ . ١٩٨٨م .

وما يتعلق بها من وحي ومعجزة وكتب منزله ، فهؤلاء جميعاً يجمعهم قاسم مشترك وهو إنكار الألوهية ، وإنكار المبدأ والمعاد.

فالموجود هو المحسوس ، وما لا يقع تحت الحس ففرض وجوده محال ولذا جاء حديثهم عن مصير الإنسان مادياً صرفاً فالإنسان بكل مكوناته مادة " وليس من تركيبة شئ من المواد والقوى متصلاً بعالم الروح والغيب، ومن العبارات التي يعبرون بها عن مذهبهم هذا قولهم الإنسان آلة الفكر "(١) .

وذلك يرجع إلى كون " الروح مادة والفكر جزء من المادة .... فالفكر موجود مع المادة " (٢).

ولما كان الأمر على هذا النحو رفض الماديون قديماً وحديثاً الإيمان باليوم الآخر والحديث عنه ، وراحوا يثيرون الشبه حوله لزعزعة اليقين ، ويؤكد ذلك ما ردده "هلبناخ فى" كتابه المسمى نظام الطبيعة ، فقد جعل غايته فيه "محاربة كل نظرية تقول بوجود غير الموجود الطبيعي أى بنظرية تدعى مبدأ أو عالم وراء العالم الطبيعي ، أو فوق العالم الطبيعى وما فيه من موجودات مادية محسوسة يتصل بعضها ببعض اتصالاً ميكانيكياً بحتاً " (٣).

"فالعلم الحديث لا يقبل شيئاً مطلقاً من مسائل ما بعد الطبيعة المعتقد بها الثلاث الله وخلود الروح وحرية الإرادة "(٤).

من خلال ما سبق عرضه يمكن حصر حديث المذهب المادي عن مصير الإنسان فيما يلي :

---

(١) الإنسان كما يصوره القرآن . رسالة دكتوراه إعداد الباحث . د/ صلاح عبد العليم صـ٣٧١ كلية أصول الدين بالقاهرة- ١٩٧٢م.

(٢) الدفاتر الفلسفية - لينين جـ ٢ صـ ٤٢ . ترجمها وعلق عليها الياس الياس مرقص . دار الحقيقة بيروت ط٢ ١٩٨٣.

(٣) المدخل إلى الفلسفة أزفلدكولية ترجمة د. أبوالعلا عفيفي صـ ١٦٥.

(٤) فصل المقال . أرنست هيكل صـ ٩١.

١-إنكار وجود الله تعالى حيث لاوجود عنده سوى للمحسوس ، فالمادة قوام كـــل شيء .
٢-إنكار وجود العالم الروحاني جملة وتفصيلا وإنكار الروح الإنسانية وخلودها.
٣-لاوجود لحياة أخرى بعد هذه الحياة فالحديث عنها سفسطة لا طائل من ورائها.
٤-أن الفكر الإنساني مادة " فالتفكير بالنسبة للمخ كالصفراء للكبد "(١).
لهذا أثر عن أحدهم " لا فكر بغير فسفور "(٢) .
شبه المنكرين للبعث:
موقف المنكرين من هذه القضية لا يخرج عن أحد صنفين:
إما أن ينكر البعث لكونه لا يؤمن بالله تعالى أصلاً ، وهؤلاء لا يقدم لهم أدلة على البعث وما بعده لأن مناقشته وإقناعه يكون في القضية الأولى وهي وقـــد ســبق للبحث أن ناقش هؤلاء ورد عليهم من نواحٍ متعددة.
وفريق يعترف بالله خالقاً للعالم بما فيه ولكنه ينكـــر البعـــث إمـــا لاســـتغرابه أو استبعاده، أو مكابرة منه .
(أ) المنكرون قديماً :
(١) الدهريون: وقد سبق الرد عليهم أثناء الحديث في قضية الألوهية.
(٢) الطبيعيون: وقد خص التفتازاني هذه الطائفة بالحديث عنها رغم كونها مـــن جملة المنكرين وركز عليهم ، وذلك يرجع لكون مقولتهم متداولة عبر العصـــور المختلفة يقول بعض الباحثين :
" وهذا الاتجاه قد ظهر من قديم الزمان وقد انتشر طوال العصور المختلفة قديمـــا ولاسيما في المجتمعات التي سيطرت عليها الحياة المادية ، ولم يختلف كثيراً عـن الفكرة والاتجاه الذي ظهر في بداية أيام اليونان، وإن اختلفت في كيفيات التعبـــير

---

(١) الإنسان كما يصوره القرآن – د/ صلاح العليم صـــ ٣٨٤.
(٢) تاريخ الفلسفة الحديثة . يوسف كرم صـــ ٤٠٠.

والتسمية عنها كما عند الماديين المحدثين ، وكل من يتخذ الإلحاد مذهباً فمثل هذا الاتجاه المنكر للمبدأ والعلة والحقيقة فإنكارهم لغاية الحياة والمعاد ولا غرابة فيه لأنه ليس في تصورهم الحياة بعد الموت"(١).

وقد استند هؤلاء إلى ما استند إليه الدهريون في إنكارهم للمعاد للبشر زعماً منهم أنه هذا الهيكل المحسوس بما له من المزاج والقوى والأعراض ، وأن ذلك يفني بالموت وزوال الحياة ، ولا يبقى إلا المواد العنصرية المتفرقة وأنه لا إعادة للمعدوم "(٢).

إلا أن هذا الرأي لا يعتد به في هذه المسألة لأن فيه " تكذيب للعقل والشرع على ما يراه المحققون من أهل الملة "(٣).

أما تكذيبه للعقل . فلأن العقل حكم بإمكانه وكل ممكن جائز الوقوع فالبعث ممكن الوقوع .

فالإنسان كان عدماً ثم صار موجوداً ثم تحول إلى عدم بعد ذلك فماذا يعني هذا ؟ أن الأمر يعني أنه أي الإنسان المعدوم قابل للوجود والعدم ، وكل ما كان قابلاً للوجود والعدم كان ممكناً في ذاته أي أنه يخرج من العدم إلى الوجود والعكس إلا أن هذه العملية تتم بقدرة خارجة عن ذاته وهي قدرة الله تعالى(٤).

وأما تكذيبه للشرع فلأن الأدلة القائمة لإثبات هذه القضية كثيرة ومتعددة قال تعالى ﴿ ليجزي الله كل نفس بما كسبت إن الله سريع الحساب ﴾(٥) وقال تعالى:﴿ أولم

---

(١) مشكلة البعث عند المتكلمين . رسالة ماجستير إعداد الطالب عبد الشكور بن الحاج حسين صـ١٤ . كلية أصول الدين بالقاهرة ١٩٧٣.

(٢) شرح المقاصد جـ٢ صـ١٥٥ .

(٣) شرح المقاصد جـ٢ صـ٥٥ .

(٤) انظر: دراسات في العقيدة الإسلامية . د / إبراهيم عبد الله الحصرى صـ٢٣١مطبعة الأزهر الحديثة بطنطا ط١ ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م .

(٥) سورة إبراهيم الآية ٥١ .

ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحيها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم﴾(١).

إلى غير ذلك من الأدلة الأخرى التي تثبت إمكان البعث ووقوعه .

وما يستند إليه هؤلاء من إنكارهم للبعث لإنكارهم إعادة المعدوم غير صحيح يقول الرازي " إعادة المعدوم عند أصحابنا جائزة "(٢) .

ويقول الجويني: " كل حادث عدم فإعادته جائزة لا فرق بين أن يكون جوهراً أو عرضاً "(٣) .

وقد فند صاحب المواقف شبهة الفلاسفة في عدم إعادة المعوم موضحاً جوازه فيقول " لأنه لا يمتنع وجود الثاني لذاته ، ولا للوازمه وإلا لم يوجد ابتداءً بل كان من قبيل الممتنعات ، لأن مقتضى ذات الشيء أو لوازمه لا يختلف بحسب الأزمنة ، وإذ لم يمتنع عدم الاختلاف بحسب الزمان كان ممكنا بالنظر إلى ذاته وهو المطلوب. فإن قيل العود بعد العدم أخص من الوجود المطلق ولا يلزم من إمكان الأعم إمكان الأخص ، ولا من امتناع الأخص امتناع الأعم ...... أجيب بأن الوجود أمر واحد في ذاته ، ولا يختلف الواحد ابتداءً وإعادة بحسب حقيقته وذاته بل الاختلاف بحسب الإضافة إلى أمر خارج عن ماهيته وهو الزمان ، وكذلك الإيجاد أمر واحد لا يختلف ابتداء إلا بحسب تلك الإضافة الخارجة عن الماهية فإذن يتلازم الوجودان المبدأ والمعاد إمكاناً ووجوداً وامتناعاً لأن الأشياء المتوقفة في الماهية تشترك في الأمور المستندة إلى ذواتها وجوداً .... ويمكن

---

(١) سورة يس الآيات ٧٧ – ٧٩

(٢) المحصل. للرازي. صـ٥٥٣ .

(٣) الإرشاد للجويني صـ١٤٩ .

في إثبات إعادة المعدوم أن يقال الإعادة أهون من الابتداء ، لأن المعدوم استفاد بالوجود الأول. فبقبوله للوجود الثاني أسرع(١) .

(٣) معطلة العرب وهم على أصناف

أ- منكرو الخالق والبعث والإعادة القائلين بالطبع المحيي والدهر المفني. وهؤلاء الذين سماهم القرآن الكريم بالدهريين .

ب- منكرو البعث والإعادة(٢).

وقد عرض القرآن لشبه هؤلاء ورد عليها ، وأقام الحجج الدامغة على إحياء الموتى من قبورهم ، وسوف نعتمد على القرآن الكريم في عرض شبهات هؤلاء والرد عليها آخذين في الاعتبار أن شبهات السابقين على نزول القرآن قد رد عليها أيضاً لأن الأمر كما يقول الشهرستاني: " لو تعقبنا أقوال المتقدمين منهم ، وجدناها مطابقة لأقوال المتأخرين "(٣) .

قال تعالى ﴿ كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون ﴾(٤) .

وفيما يلي عرض لشبه هؤلاء:

١- شبهة تحلل الأجسام واختلاطها بغيرها:

اعتمد منكرو البعث في إنكارهم للبعث على أنه أمر مستحيل فالإنسان إذا مات انتهى أمره فالشيء إذا عدم فقد بطلت ذاته وصار نفيا محضاً. وقد عرض القرآن الكريم لهذه الشبهة في أكثر من موضوع منها.

---

(١) انظر : شرح المواقف جـ٣ صـ٢٢٣ - ٢٢٤ ، شرح المقاصد جـ٢ صـ١٥٣ - ١٥٥، المحصل للرازي صـ٣٥٥ - ٣٥٦، الأربعين للرازي جـ٢ صـ٤٢ - ٤٤ .

(٢) انظر : الملل والنحل للشهرستاني جـ٢ صـ٥٨٢ - ٥٨٣ .

(٣) نفس المصدر جـ١ صـ٢٦ .

(٤) سورة البقرة الآية ١١٨ .

قال تعالى : ﴿وقالوا أئذا ضللنا في الأرض أئنا لفي خلق جديد﴾(١) .
وقال تعالى: ﴿وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممـــزق إنكم لفي خلق جديد افترى على الله كذبا أم به جنة بل الذين لا يؤمنون بـــالآخرة في العذاب والضلال البعيد ﴾(٢)
الرد على الشبهة:
لقد رد القرآن الكريم على أصحاب هذه الشبة بقوله تعالى
﴿ وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً قل كونـــوا حجـــارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركـــم أول مرة ...... ﴾(٣) .
ثم إن الله تعالى قد أوجدهم من لاشيء فلا يعجزه أن يجمع أجزاءهم بعد تحللـــها وتفرقها واختلاطها بالأرض وبغيرها من العناصر الأخرى .
أليس هو الذي قد أظهر على يد أنبيائه من المعجزات ما هو أظـــهر وأهـــم مـــن البعث وهو قلب العصا ثعبانا ، وأخرج الناقة من الصخر وقد أظهر البعث علـــى يد عيسى عليه السلام كما سمع حنين الجذع عندما فارقه النبي (ﷺ) بعد أن اتخـذ له أصحابه منبراً يخطب إليهم عليه(٤) .
فالبعث إذن ليس من الأمور المستحيلة خصوصاً وقد ثبت تعلق الروح بالبدن فـــي المرة الأولى فما الذي يمنع إذاً تعلقها به في المرة الثانية وهي البعث .
٢-التنافي والتضاد الموجود في العظام:

---

(١) سورة السجدة الآية ١٠ .
(٢) سورة سبأ الآيتان ٧ - ٨ .
(٣) سورة الإسراء الآية ٤٩ - ٥١ .
(٤) قضية البعث رسالة دكتوراه إعداد الباحث د/ عبد المنعم شعبان صـــ٢٥٦ كلية أصول الدين بالقاهرة ١٩٧٣م.

ويقصد به التنافي والتضاد بين صفة العظام وهي رميم من اليبس والجفاف وبين النداوة والرطوبة التي هي مقتضى الحياة بالبعث. وقد عرض القرآن الكريم لهذه الشبهة.

قال تعالى ﴿ وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم﴾(١) .

الرد على الشبهة:

لقد رد القرآن الكريم على هؤلاء فقال تعالى: ﴿ قل يحيها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون أو ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴾(٢) يقول ابن رشد: "فإن الحجة فى هذه الآيات هى من جهة قياس العود على البدأ وهما متساويان وفي هذه الآية مع هذا القياس المثبت لإمكان العودة كسر لشبه المعاند لهذا الرأي ، بالفرق بين البدء والعودة ، وهو قوله تعالى ﴿الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً ﴾ . والشبهة أن البداءة كانت من حرارة ورطوبة والعودة من برد ويبس فعورضت هذه الشبهة بأنا نحس أن الله تعالى يخرج الضد من الضد ويخلقه منه كما يخلق الشبيه من الشبيه ، وأما إمكان وجود الأقل على وجود الأكثر فمثل قوله تعالى في الآية ﴿أو ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴾(٣).

فهذه الآيات تضمنت دليلين على البعث وإبطال حجة الجاحد للبعث ، ولو ذهبت لتقصي الآيات الواردة في الكتاب العزيز لهذه لطال القول ، وهي كلها من جنس الذي وصفناه "(٤) .

---

(١) سورة يس الآية ٧٨ .

(٢) سورة يس الآيات ٧٨ - ٨٠ .

(٣) سورة يس الآية ٨١ .

(٤) الكشف عن مناهج الأدلة . لابن رشد صـ٢٤٢ - ٢٤٣ . تحقيق . د/ محمود قاسم. نشر مكتبة الأنجلو المصرية .

٣-استبعاد البعث لعدم وقوعه في الأزمنة السابقة

في هذه الشبهة يقرر أصحابها إلى أن وقوع البعث أمر مستبعد فمن ناحيـــة لــم يشاهدوه في الأزمنة التي عاشوا فيها ، ومن ناحية أخرى لم يخبرهم أحد بوقوعه وعلى هذا لا يصح التصديق به أو ادعاء وقوعه .

وقد عرض القرآن الكريم لهذه الشبه وقام بالرد عليها .

قال تعالى: ﴿ وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً ﴾(١) .

وقال تعالى:﴿ وقال الذين كفروا أئذا كنا تراباً وآباؤنا أئنا لمخرجون لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾(٢).

والمعنى " هذا كلام كما قيل لنا فقد قيل لمن قبلنا ولم يظهر له أثر فهو إذن مـــن أساطير الأولين "(٣) .

الرد على الشبهة:

لقد ساق القرآن الكريم ردوداً متعددة في مواضع شتى والملاحظ أن بعض هـــذه الردود جاءت مصوغة بالطابع العقلي حتى تكون حجة عليهم .

قال تعالى: ﴿ قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ﴾(٤) .

وقال تعالى:﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين لو أردنا أن نتخـــذ لهوا لاتخذناه من لدنا إنا كنا فاعلين ﴾(٥) .

فهذا الدليل يوضح إمكانية البعث؛ لأن من قدر على خلق السماوات والأرض على هذا النحو الموجود، كان على غيرهما أقدر.

---

(١) سورة الإسراء الآية ٥٠ .

(٢) سورة النمل الآيتان ٦٧ – ٦٨ .

(٣) تفسير الرازي م ١٢ ج٢٤ صـــ٢١٤ – ٢١٥ عند تفسيره لهذه الآيات .

(٤) سورة الواقعة الآيتان ٤٩ – ٥٠ .

(٥) سورة الأنبياء الآيتان ١٦ – ١٧ .

يقول الزمخشري عند تفسيره لهذه الآية " أي وما سوينا هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من أصناف الخلائق مشحونة بضروب البدائع والعجائب كما تسوي الجبابرة سقوفهم وفرشهم وسائر زخارفهم للهو واللعب ، وإنما سويناها للفوائد الدينية والحكم الربانية لتكون مطارح افتكار واعتبار واستدلال، ونظر لعبادنا مع ما تتعلق بها من المنافع التي لا تعد والمرافق التي لا تحصى"(١) .

٤- التعجب من البعث.

من بين الشبه التي أثارها هؤلاء المنكرون وعرض لها القرآن الكريم شبهة التعجب من البعث.

قال تعالى:﴿ ق والقرآن المجيد بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شئ عجيب أئذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد﴾(٢) .

ومعنى هذه الآية دلالة على أن تعجبهم من البعث أدخل في الاستبعاد وأحق بالإنكار(٣) .

الرد على الشبهة:

لقد ساق القرآن الكريم جملة من الأدلة للرد على هذه الشبهة نكتفي بما جاء في سورة (ق) .

قال تعالى ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب

---

(١) تفسير الكشاف . ج٣ ص١٠٦ - ١٠٧ ، عند تفسيره للآيتان ١٦ - ١٧ من سورة الأنبياء .

(٢) سورة ق الآيات ١ - ٣ .

(٣) انظر : تفسير الكشاف جـ٤ صـ٣٨٠ عند تفسيره للآيات ١ - ٣ من سورة (ق) .

الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقاً للعباد وأحيينا به بلـدة ميتـاً كذلـك الخروج﴾ (١).

ففي هذه الآيات يلفت الله نظرهم أنهم عندما كفروا بالبعث وأنكروا وقوعه وجـب عليهم أن ينظروا إلى قدرة الله في خلق العالم .

فالسماء بناها بغير عمد سليمة من العيوب والأرض أمدها وألقـى فيـها جبـالاً راسيات ثوابت لتكون ذكرى لأولي العقول النيرة ، كما أن الماء ينزل من السـماء على الأرض الميتة فيخرج منها الزرع المختلف الألوان ، وكل هذا رزق من عند الله وخروج هذه الأشياء منها شبيه بإخراج الموتى من القبور(٢) .

وبناء على هذا فالبعث ممكن وإحياء الموتى من قبورهم ليس مستحيلاً عليه تعالى خصوصاً وأن هؤلاء المنكرين يقرون بقدرته على الخلق الأول " واعترافهم بـهذا في طية الاعتراف بالقدرة على الإعادة "(٣) .

فمن أقر بقدرته على الخلق الأول ، وجب عليه أن يقر بالقدرة على الخلق الثـاني ولا عجب في ذلك؛ لأنه أهون من الأول .

كانت هذه أهم الشبه التي أثارها منكرو البعث قديماً ، وهي شبه واهيـة ضعيفـة سقطت أمام براهين القرآن الكريم القوية .

يتبقى أن أشير إلى أن هناك بعض الشبه الأخرى التي تمسك بـها هـؤلاء إلا أن الردود عليها لا تخرج عن الردود التي سبق الرد بها على الشبه التي عرض لـها البحث ، لهذا لن نتعرض لها منعاً للتكرار وتجنباً للإطالة .

---

(١) سورة ق الآيات ٥ – ١١ .

(٢) انظر : تفسير الكشاف جـ٤ صـ٣٨١ – ٣٨٢ عند تفسيره للآيات ٦ – ٧ من سورة (ق) .

(٣) نفس المصدر جـ٤ صـ٣٨٢ عند تفسيره للآية ١٥ من سورة (ق) .

(ب) شبه المنكرين حديثاً:

قبل الحديث عن المنكرين للبعث في العصور الحديثة لابد من الإشارة إلى أن شبه القدماء كانت الأساس لمنكري البعث حديثاً .

ومنكرو البعث حديثاً طوائف كثيرة [1] ومذاهب شتى يجمعهم قاسم مشترك هو إنكار الحياة الأخرى جملة وتفصيلاً ، بل إن هناك من أنكرها لإنكاره وجود الله تعالى تحت زعم عدم خضوعه وخضوعها للحس .

فالوضعية رأت أن البحث في العلل والغايات سفسطة لا طائل من ورائها وأن المعرفة اليقينية تتأتى عن التجربة والحس .

والماركسية دانت بالمادة وحدها فمنها وإليها كل شيء ، والبراجماتية رأت أن الفكرة لا وجود لها إلا بمقدار ما يترتب عليها من منفعة ، ووسيلتها في ذلك التجربة وحدها ولا طريق غيرها ، فالأفكار والآراء لا تتطور إلا من خلال التجارب .

والوضعية المنطقية رفضت كل العبارات الميتافيزيقية لكونها عبارات جوفاء عقيمة لا وجود لها في العالم المحسوس . وأصحاب التحليل النفسي رفضوا فكرة الألوهية وما يترتب عليها من عقائد كالإيمان بالنبوات والتصديق باليوم الآخر فهي في نظرهم أساطير انحدرت إلينا من عصور بعيدة. أما أصحاب النشوء والارتقاء فلا يختلفون عن كل هؤلاء لكونهم الأساس الذي انطلقت منه المذاهب المادية الملحدة على اختلاف اتجاهاتها. ولذا يمكن القول:

إن الماديين حديثاً أنكروا الحياة الأخرى لأنهم قصروا "المعرفة على إدراك الظواهر المماثلة أمام الحواس ، وقالوا إنه لا شئ موجود ، وأن تلك الظواهر

([1]) انظر: جهود الشيخ رحمت الله الهندي في الدين والعقائد . رسالة ماجستير إعداد الباحث عمر عبد القادر أحمد حسين ص٢١١ – ٢٣١ معهد الدراسات والبحوث الأسيوية جامعة الزقازيق ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م .

العين ، أو ما يحس بباقي الحواس ، هو الجدير بأن يحكم عليه بأنـــه موجــود ، ...... وما الروح والعقل والنفس إلا نتاج المادة ...... ومن هنا فــإن أصحـــاب المذهب المادي لا يعترفون بإله ولا بأرواح ولا بملائكة ولا بشياطين "(١) .

يقول صاحب كتاب مبادئ الفلسفة حاكياً عن أحد الماديين:

" إن الطبيعة تقوم بشئونها ولا شئ فوق الطبيعة وليست الحوادث التـــي يســـميها بعضها خوارق العادة وراء الطبيعة إلا هراء من القول وخطـــأ فـــي الملاحظـــة منشؤها اختلاط في العقل ، واختلال رجال الدين "(٢) .

وإذا كان الأمر على هذا النحو فالعالم وجد بذاته ، ولا بداية له ولا نهاية ، كما أنه ليس من صنع خالق لهذا فلا وجود لما يسمى بالحياة الآخرة ، أو بمعنـــى أخـــر للثواب والعقاب ، ولا معنى للموت سوى نهاية الحياة فقط ولا شئ وراءه فقـــد " ذهب كثير من الفلاسفة إلى أن الموت هو السبب الأساسي الذي حمل على الفلسفة ، وإذا صح هذا كانت الفلسفة التجريبية القائلة بأن التجربة أساس العلم بالأشـــياء في عهدنا هذا قد حلت أكبر لغز في الفلسفة ، فقد أبانت منطقيـــاً وتجريبيـــاً أن لا موت وأن الموت ...... ليس إلا تغيراً مطرداً من حال إلى حال ، وأن كل شـــيء في هذا العالم لا يفني ولا يزول من أصغر دويبة إلى أكبر جرم سماوي "(٣) .

---

(١) البراهين العقلية والنقلية على العقائد الإيمانية . د / عبد العزيز سيف النصر صـــ٢١١. ط١ .
١٤١٤هـــ – ١٩٩٣م.

(٢) مبادئ الفلسفة . أ . س . رابوبرت صـــ ١٧٨ – ١٧٩ . ترجمة أحمد أمين . نشر مكتبة النهضة المصرية ط٨ ١٩٧١ ، وانظر : نشأة الفلسفة العلمية هانذر شينباخ صـــ٢٨ . ترجمة . د / فؤاد زكريا . دار الكتاب العربي للطباعة ١٩٦٨ ، نحو فلسفة علمية . د / زكي نجيب محمود صـــ٦٦ – ٧٧ نشر مكتبة الأنجلو المصرية ط١ ١٩٨٥م .

(٣) مبادئ الفلسفة . صـــ١٧٧ – ١٧٨ .

وكما قلنا سابقاً أن شبه هؤلاء لا تخرج عما ردده القدماء ، وإن جاءت مكســـوة بثوب آخر .

فقد انحصرت شبههم فيما يلي :

١- عدم استقلال الروح عن البدن . ٢- شبهة اختلاط الأجسام .

٣- شبهة انحصار الموجود في المحسوس .

٤- وأخيراً القلق النفسي الذي يصيب الإنسان من الحديث عن هذه الحياة هــذا بالإضافة إلى جانب الشبه التي سبق الرد عليها .

وفيما يلي عرض لهذه الشبه والرد عليها ذلك متبعين ذلك بعرض ما يلى:-

أدلة إمكان البعث .

ب- أدلة وقوع البعث جــ- إمكان البعث من الناحية الشرعية د- إمكان البعث من الناحية العقلية . هــ- إمكان البعث من الناحية العلمية الشــبهة الأولى:

١- عدم استقلال الروح عن البدن:

يرى أنصار المذهب المادي أن وجود حياة أخرى بعد الموت لا أساس لـــه مــن الصحة ودليل ذلك فناء النفس فالإنسان إذا مات انتهى أمره ، وبالتالي فليس هناك حياة أخرى فلا بعث ولا نشور .

يقول هيكل : " ونحن إذا أجلنا النظر في المادة معتمدين على العقل البعيد عن كل تأثير انتهينا من ذلك إلى أن الاعتقاد بالخلود أمر لا يتفق مطلقاً مع حقائق التطور الفسيولوجي "(١) .

ويضيف قائلاً : "على أنا إذا درسنا تاريخ العقيدة علمنا أن الاعتقاد بالخلود شـــيء لم يجد له مكاناً يحتله عند العلماء ...... ولم نجد فيلسوفاً من الفلاسفة الطبيعييــن الذين ظهروا قبل المسيح بستة قرون قد درس طبيعة العالم درساً عملياً حقا فــآمن

---

(١) فصل المقال . أرنست هيكل صـــ٨٨ .

بهذه العقيدة حق إيمانها ...... كما أنا لم نأنس ذلك أيضاً من أصحـــاب الأديــان الشرقية القديمة ...... والحق أن مسألة الخلود بعد لم يلج هذا البحث من الفلاسفة القدماء إلا أفلاطون ، وتلميذه أرسطو ...... على أن مذهبهم في ذلك لـــم يجــد رواجاً ولا نال حظاً إلا بعد ظهور الديانة المسيحية والإسلامية وموافقـــة مـــزج هذين الدينين لمعتقد أفلاطون وأرسطو "(١) .

ولهذا نراه ينتهي إلى أن دعوى بعث الناس من قبورهم مرة أخرى أمر عجيـــب والأعجب من ذلك إيمانهم بهذه العقيدة مستندين إلى خلود الروح يقـــول : " وإن تعجب لذلك فعجب قولهم من بعد ذلك أن النفس خالدة"(٢).

وبناء على ما سبق فلا معاد للنفس أصلاً لكون " الروح جزء من الطبيعة ، الروح جزء من المادة ...... بل إن الفكر موجود مع المادة مع الطبيعة "(٣)

فالروح تتطور مع الجسد مع الحواس أنها مرتبطة بالحواس "(٤). توجد بوجودها وتنعدم بانعدامها .

وإذا كان الأمر على هذا النحو فإنه من الطبيعي أن نرى أحد الملاحـــدة يركــز على ضرورة نبذ مثل هذه الاعتقادات لخروجها عن حد المعقول فهو يتحدث عـن ذلك موضحاً من الأهمية " أن يبذل كل إنسان غاية جهده في ملء الفــراغ الــذي أحدثه اختفاء الإيمان بقوانين الطبيعة ، وأن يستخدم لملء هذا الفراغ أي شيء من تلك العقائد التافهة التي لا أساس لها والتي لم يكن لها من قبل أي مجال للنمو ...

---

(١) نفس المصدر صـــ٨٩ .

(٢) نفس المصدر صـــ٨٢ .

(٣) الدفاتر الفلسفية : لينين جـــ٢ صـــ٤٢ ، وانظر صـــ٧٤ من نفس المصدر .

(٤) نفس المصدر صـــ٥٨ .

وعلى هذا النحو يجب أن نتوقع أن تدهور العقيدة العلمية سيؤدي إلى بعث خرافات ما قبل العلم "(١) .

وهو يقصد بذلك العقائد الإيمانية عقائد ما وراء الطبيعة ويؤكد ذلك قوله " بأنه لا يمكن أن يجد الإيمان بالخلود في العلم ما يدعمه ويسانده ، والمحاجات الممكنة حول هذا الموضوع تشير إلى احتمال فناء الشخصية عند الموت ، وقد يكون من دواعي أسفنا أننا سنندثر ولكننا نجد العزاء والسلوى في الاعتقاد بأن كل الجلادين وصائدي اليهود وأقاربهم من السفهاء لن يستمروا كذلك في الحياة حتى أبد الدهر "(٢) .

هذه واحدة من الشبه التي عرضها المنكرون حديثا عرض لها البحث كما جاءت على ألسنة أصحابها ، وواقع الأمر هي شبهة واهية سقطت أمام البراهين التي كشفت عن تهافتها.

الرد على هذه الشبهة.

يمكن الرد على هذه الشبهة من خلال الأدلة التالية :

الأدلة العقلية :

١-إن ما يذكره هؤلاء ومن على شاكلتهم ضرب من ضروب الهوى ، فإنكار الحياة الأخرى بدعوى أن النفس فانية حيث إنها مرتبطة بالجسم توجد بوجوده وتنعدم بانعدامه ، هو مجرد فرض ليس له أساس من الصحة ، بل إنه مجرد ظن لكونها دعوى بدون دليل .

٢- إن هؤلاء قد استندوا في دعواهم إلى عمليات التشريح التي أثبتت في نظرهم عدم وجود الروح وحيث لا وجود لها فلا معاد أصلاً ، وهذه دعوى باطلة؛ لأن

---

(١) النظرة العلمية : رسل صـ٧٤ - ٧٥ ، تعريب عثمان نوبة ، مراجعة . د/ إبراهيم حلمي عبد الرحمن . ملتزم الطبع والنشر مكتبة الأنجلو المصرية .

(٢) الدين والعلم . رسل . صـ١٤٠ - ١٤١ .

عدم المشاهدة لا ينفي عدم الوجود هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فالإنسان مركب من قسمين : قسم مادي وأخر روحي وما يخضع للتجربة هو الجانب الأول بخلاف الثاني وهذا ما جعل "البروفيسور دوكاس " ينتهي إلى الإيمان بوجود حياة أخرى ، لأنه وجد أثناء بحوثه شواهد كثيرة تؤكد وجود روح داخل الإنسان اضطر على آثارها الإيمان بالحياة الأخرى(١) .

كما أن الدكتور " رين " أثبت في أبحاثه العلمية أن في الجسم روحاً أو جسماً غير منظور(٢) .

٣- إن القول بعدم استقلال النفس عن المادة غير صحيح فلو كانت النفس الناطقة قائمة في المادة كما يدعي هؤلاء لترتب على ذلك " أن تضعف بضعف المادة ضرورة ، وكانت الشيخوخة في جميع الأحوال توهن القوة النطقية كما توهن القوة الحسية والحركة القائمة في المادة ، لكنه في كثير من المشايخ ، بل في أكثرهم إنما يستبين القوة العقلية عند ضعف البدن بعد أربعين ، وهو منتهى قوة البدن ، ولا سيما عند الستين وقد أخذ البدن في الضعف "(٣) .

٤-" إنه قد ثبت أن النفس مجردة ، فلا تحتاج في ذاتها وجوهرها إلى مادة ، وإنما تعلقها بالبدن لمجرد أن يكون آلة لها في اكتساب كمالاتها فلا يوجب فساده وفناؤه فسادها وفناؤها ، ثم هي معلولة للمبادئ العالية الباقية أزلاً وأبداً فهي أيضاً بجميع كمالاتها باقية ببقائها ، وهو المطلوب "(٤) .

٥-إن النفس لو فنيت ففناؤها إما بفساد البدن ، أو قدرة القادر وإرادته أو بطرو مناف لها والكل ممتنع.

---

(١) انظر : الإسلام يتحدى . وحيد خان صـ١٠٥ .

(٢) صراع مع الملاحدة . د / عبد الرحمن حبنكة صـ١٩٧ .

(٣) رسالة أضحوية في أمر المعاد . لابن سينا صـ١٠٦ .

(٤) تهافت الفلاسفة . علاء الدين الطوسى صـ٣٤٤ . تحقيق وتحليل . د/ رضا سعادة. الطبعة الأولى بيروت ١٩٩٠.

أما الأول: فهو باطل لأنه قد ثبت أن فناء البدن لا يوجب فناء النفس .

وأما الثاني: فلأن الفناء ليس شيئاً حتى يتصور وجوده بالقدرة والإرادة .

وأما الثالث: فلأن المنافاة بين الجواهر ، لا تتصور إلا باعتبار حلول في مـــادة ، والنفس ليست مادية حتى يتصور طرؤ مناف لها ، وإذا امتنع الـــلازم بأقســامه امتنع الملزوم(١).

وعلى هذا فالنفس لا تفنى بفناء البدن فهي باقية بعد فساده " فالنفس تبقـــى بعــد خراب البدن "(٢) .

٦- إن النفس ذات صلة بالبدن إلا أنها لا تفنى بفنائه ، فالنفس جوهر قائم بذاتـــه وفناء البدن لا يستلزم فناءها بحال من الأحوال .

ولو كانت النفس متعلقة بالبدن ومعتمدة عليه في وجودها بحيث تفنى بفنائه فـــإن هذا الاعتماد يكون على النحو التالي :-

فإما أن يكون تعلقها به تعلق المكافئ في الوجود وهو محال لكون النفس جوهــر قائم بذاته .

وإما أن يكون تعلقها به تعلق المتأخر في الوجود وهو محال؛ لأنه يلزم عنه كونها معلولة للبدن وهو خلاف ما هو معروف من أن النفس علة وجود البدن فإذا تركته قد يتحلل.

وإما أن يكون تعلقها به تعلق المتقدم عليه في الوجود وهذا إن صح يلزم عنـــه أن يكون الجسم خاضعاً للنفس لا النفس خاضعة للجسم ولكن القول بحدوث النفــــس يمنع تعلقها بالجسم تعلق المتقدم بالبدن(٣) .

---

(١) انظر نفس المصدر صـــ٣٣٨ - ٣٣٩ .

(٢) تنزيل الأفكار في تعديل الأسرار ... أثير الدين الأبهري لوحة رقم ٣٤ مخطوطة بمكتبة الأزهر تحت رقم٣٩٧٠ - الإمبابي " ٤٨٧٦٦ " فن فلسفة ومنطق .

(٣) انظر: النجاة لابن سينا صـــ٢٢٣ - ٢٢٥ . تحقيق د/ ماجد فخري .

وعلى هذا فالنفس لا تتعلق بالبدن على أي نحو من الأنحاء الثلاثة ومعني هـذا أن فساد البدن لا يترتب عليه فساد النفس فإذا عدم البدن وتلاشى فالنفس تظل خـالدة فهي جوهر قائم بذاته .

٧- أما دعواهم بأن الحديث عن خلود النفس حديث لم يعرف إلا منذ أفلاطـون وأرسطو فهذا غير صحيح بل هو دعوى باطلة فالمتتبع لمراحل التفكير الإنسـاني يجد أن عقيدة خلود النفس احتلت مكاناً كبيراً عند فلاسفة الشرق القديم(١) وكذلـك فلاسفة اليونان قبل أفلاطون وأرسطو(٢) لاسيما طاليس وانكيسمانس اللذان احتلت لديهما فكرة الخلود مكاناً لا بأس به.

هذه هي أهم الأدلة العقلية(٣) التي يتأكد معها فساد هذه الشبهة وبطلانها .

الأدلة النقلية :

إذا كان بقاء النفس واستقلالها عن البدن قد ثبت بالأدلة العقلية ، فقد ثبت أيضـاً بالأدلة النقلية ، وفي القرآن الكريم آيات متعددة تؤكد وجود الروح وخلودها .قـال تعالى: ﴿ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون﴾(١)

---

(١) انظر: النفس الإنسانية وقواها عند فلاسفة الإسلام في المغرب . رسالة ماجستير صـ١٩ - ٣٩ إعداد الباحث .نظير محمد عياد كلية أصول الدين بالمنصورة . ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م .

(٢) انظر: المصدر السابق صـ٤٧ - ٦١ .

(٣) لمزيد من الأدلة على بقاء النفس أنظر : فيدون في خلود النفس . لأفلاطون . صـ١٧٣ - ١٧٤ . ترجمة عزت قرني . مكتبة الحرية الحديثة ط٢ ، ومحاورات أفلاطون صـ١٩٥ - ١٩٧ ترجمة د/ زكي نجيب محمود . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٥ ، رسائل الكندي الفلسفية ص٢٧٥ - ٢٧٦ ، التعليقات للفارابي صـ٥١ تحقيق د / جعفر آل ياسين . دار المناهل للطباعة والنشر بيروت ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٢م ، تاريخ الفلسفة الحديثة . يوسف كرم صـ٨٣ .

قال تعالى: ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحيـــاء عنـــد ربـــهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله....﴾(٢) .

ووجه الاستدلال : أن من كان حياً مرزوقاً فرحاً مستبشراً به لا يكون ميتاً معدوماً ففي ذلك دليل على أنهم أحياء بدليل الرزق المساق إليهم فلا يرزق إلا الحي(٣).

فهذا النص يفيد حياة النفس وبقائها في وقت فناء البدن ، ودليل ذلك هو الشـــهداء "فهؤلاء المقتولون أحياء والحس يدل على أن هذا الجسد ميت ، وإذن فالذي بقـــى حياً هو النفس ، لا يقال بأن هذا يفيد حياة السعداء فقط بعد الموت ، وذلـــك لأن هناك آيات أخرى كثيرة تفيد حياة الأشقياء بعد موت البدن(٤) ، وذلك في مثـــل قوله تعالى: ﴿ النار يعرضون عليها غدواً وعشيا ...... الآية ﴾ (٥) .

وفي الحديث الشريف عندما سئل النبي (ﷺ) عن أرواح الشهداء فقال

(أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيـث شاءت ، ثم تأوى إلى تلك القناديل)(٦) .

أما الأدلة العلمية فكثيرة ويكفي اعتراف الملحدين بوجود النفس في جسم الإنســان وإن كانوا لا يشاهدونها.

٢- الشبهة الثانية: حصر الإيمان في المحسوس فقط.

---

(١) سورة البقرة الآية ١٥٤ .

(٢) سورة آل عمران الآيتان ١٦٩ - ١٧٠ .

(٣) انظر : معارج القدس للغزالي صـــ١٣٠ ، تفسير القرطبي ج٢ صـــ١٥١٢ .

(٤) النفس وخلودها عند فخر الدين الرازي . د/ محمد حسين أبو سعده صـــ٣١٨ ط١ القاهرة ١٩٨٩ .

(٥) سورة غافر الآية ٤٦ .

(٦) الحديث أخرجه الإمام مسلم في كتاب الإمارة باب أرواح الشهداء م٧ جـــ١٣ صـــ٣٥. ح رقم (١٢١ / ١٨٨٧) .

وواقع الأمر أن هذه الشبهة قديمة قدم الفكر الإنساني نفسه ولم يخل عصر من العصور من التمسك بها ، والاحتجاج بها وقد أنكر الملحدون الحياة الآخرة نظراً لعدم وقوعها في دائرة الحس مع أن هذا خلاف مما تدل عليه الأدلة النقلية والعقلية والعلمية ، حيث "إن النفس يجب ألا يكون عبارة عن شيء من أجزاء هذا البدن ، فالدليل عليه أنا نعلم بالضرورة أنه ليس في البدن جزء واحد هو بعينه موصوف بالإبصار ولا بالسماع وبالذوق وبالفكر وبالذكر ، بل الذي يتنادى في أول الأمر إلى الخاطر أن الإبصار مخصوص بالعين وكذا القول في سائر الإدراكات وسائر الأفعال ، وإما أن يقال : أنه حصل في البدن جزء واحد ذلك الجزء هو مخصوص بكل هذه الإدراكات ، وكل هذه الأفعال ، فالعلم الضروري حاصل بأنه معدوم فثبت أن النفس الإنسانية شيء واحد موصوف بهذه الإدراكات وبجملة هذه الأفعال. فثبت بالبداهة أن جملة البدن ليس كذلك ، وشيء من أجزاء البدن أيضاً ليس كذلك فحينئذ يحصل اليقين أن النفس شئ مغاير لهذا البدن ولكل واحد من أجزائه وهو المطلوب "(١) .

وقد سبق للبحث أن رد على هذه الشبهة في موضوع آخر من زوايا مختلفة.

كما أن الشبهة السابقة بها بعض الردود التي تصلح أن تكون رداً على هذه الشبهة فلا داعي لذكرها مرة أخرى تجنباً للتكرار ومنعاً للإطالة .

وبناء على ما سبق يتضح لنا أن " النفس لا تنتمي إلى عالم الشهادة ، وإنما تنتمى عالم الغيب حيث لا كون ولا فساد ، ومن ثمة فهي بسيطة وليست مركبة بأي معنى من معاني التركيب ، ولذلك فهي لا تقبل الفناء أو الفساد؛ لأن الفساد معناه انحلال التركيب "(٢) .

---

(١) النفس والروح وشرح قواهما. لفخر الدين الرازي صـ٣٠ – ٣١ . تحقيق . د / محمد صغير حسن المعصوم . نشر معهد الأبحاث الإسلامية (بدون)

(٢) أثير الدين الأبهري ومذهبه في النفس . دراسة تحليلية مقارنة . د / عباس محمد حسن صـ٣٨ . دار المعرفة الجامعية. الإسكندرية ١٩٩٥ .

وهذا مناف لطبيعة النفس الجوهرية فقد ثبت بأنها جوهر قائم بذاته لا تفنى بفناء البدن ولا تفسد بفساده ، كما أنها لا تقع في دائرة الحس وهذا لا يتعارض مع وجودها .

٣- الشبهة الثالثة : شبهة اختلاط الأجسام :

يتمسك منكرو البعث بشبهة واهية ، وهي شبهة اختلاط الأجسام بعضها ببعض بحيث تكون مادة واحدة مشتركة بين أكثر من إنسان مما يترتب على ذلك استحالة حشرهما معاً، ويعرض " رسل" وهو أحد الفلاسفة الملحدين المنكرين للبعث لهذه الشبهة وذلك في كتابه الدين والعلم ، زاعماً خطأ اليمان بهذه العقيدة ، نظراً لصعوبة الإحياء مرة أخرى خصوصاً بعد تفرق الأجزاء واختلاطها بغيرها فيقول " إن أهم نظام فلسفي على الإطلاق هو الذي للأب النقي الطاهر " توماس الأكويني"(١) وكان أقصى ما يمكن للكنيسة أن تسمح به أن يقترح المرء – مثلما اقترح مترجمه – أنه كان يهذر وهو يناقش ماذا يحدث عند بعث جسم واحد من أكلة لحوم البشر المولود أيضاً من أبوين من أكلة لحوم البشر، فمن الواضح أن الناس الذين قام هذا الإنسان بالتهامهم أخفاهم في جسده لدرجة أنه سوف يصبح بلا حد حتى يغالب كل ضحاياه بنصيبه في هذا الجسد، وهذه صعوبة حقيقية تقابل كل المؤمنين ببعث الأجساد الذي تؤكده الرسل وإنها لدلالة على ضعف الفكر الديني الأرثوذكسي في عصرنا الراهن أن نحتفظ بإيماننا بالعقيدة الدينية الجامدة في نفس الوقت الذي تأخذ مأخذ الهذر مناقشة جادة للمشاكل الغريبة المرتبطة بها ...... ، وإذا شئنا أن ندرك قدر هذا الاعتقاد على الاستمرار حتى يومنا الراهن

---

(١) توماس الأكويني : ولد عام ١٢٢٥ وتوفى ١٢٧٤ . كان من الرهبان وتتلمذ على أيد البرت الكبير ثم صار أستاذاً بجامعة باريس وقد دون كثيراً من الشروح والفلسفات حاول فيها تبسيط فلسفة أرسطو وتقديمها بصورة مغرية لمعاصريه ،
(انظر : قصة الفلسفة الحديثة . زكي نجيب ، أحمد أمين صـ٢٢ ، في الفلسفة . د / سعيد طه ص١٦٦١٤١٧هـ – ١٩٩٧م).

فلنرجع إلى الاعتراض على حرق جثث الموتى المبني عليه ...... أن الاعتراض يرجع إلى الظن بأن الله القادر على كل شيء يجد صعوبة أكبر في إعادة تجميع أجزاء الجسم البشري عندما تنتشر على هيئة غازات من تلك التي يجدها في حالة بقائها مدفونة في فناء الكنيسة في شكل ديدان وطين، وإن كان لي أن أعبر عن رأيي في هذا فإن مثل هذا التفكير دلالة على الهرطقة ولكنه على أية حال وفي حقيقة الأمر التفكير السائد بين الناس رسوخاً في العقيدة بصورة لا تعرف الشك"(١).

هذه هي شبهة اختلاط الأجساد كما عرض لها أحد المتمسكين بها جاعلاً منها هو ومن على شاكلته دليلاً على بطلان بعث الأجساد مرة أخرى .

الرد على الشبهة:

يمكن بيان فساد هذه الشبهة من خلال الأدلة التالية:

أ- الأدلة العقلية:

١-أن قدرة الله تعالى وعلمه تجعل من عودة الإنسان مرة أخرى أمراً ميسراً حتى لو تفرقت أجزاؤه واختلطت بغيرها. فمعلوم أن قدرته تعالى شاملة لكل الممكنات ، وعلى هذا فما يحدث للبدن من اختلاط أو تداخل مع غيره من الأبدان لا يمنع قدرته في رد كل شئ إلى ما كان عليه قبل الموت ومن قدر على الخلق الأول كان على غيره أقدر ، ثم ما الذي يمنع أن يكون الله تعالى قد جعل لكل منا طابعاً خاصاً ينفرد به غيره ويختلف معه " وقد تكون عمليات زرع القلب في عصرنا الحاضر تؤكد ذلك حيث يرفض قلب المريض القلب الدخيل عليه رغم حاجة الجسم إليه "(٢) .

---

(١) الدين والعلم . برتداندرسل . صـ١١٠ – ١١١ ترجمة . د/ رمسيس عوض. دار الهلال .

(٢) البعث وأثره في تشعب المذاهب واختلاف الفرق د/ سعيد الهواري صـ ٦٤ الدار الإسلامية للطباعة والنشر بالمنصورة ط١ ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م .

٢- " إنا نجد الحبة الواحدة إذا بذرت في الأرض اجتذبت إليها أجزاء كثيرة من الأمهات وتكاثرت بتلك الأجزاء تكاثراً بيناً ثم أظهرت حباً كثيراً كل حبة منها في الشكل والقوة مثلها حتى تعطي من قوتها وجوهرها ، مثل ما أعطت تلك الحبة الأولى ، فلولا أن هناك قوة شريفة وجوهر فاعل ما وجد في هذه الحبة هذا التأثير وهكذا في بذور الحيوان والبشر إذ هو يتناسل إلى ما يفوق العدد "(١) .

ومعنى هذا أن ما يقدر على إحداث مثل هذه الأمور أفلا يقدر أن يعيد ما كان قد سبق له خلقه مرة أخرى خصوصاً وأن الإعادة على الخلق مرة ثانية أهون من المرة الأولى .

٣- إننا نشاهد النشأة الأولى " التي هي اتحاد الروح بالجسد في عالم الحس بعدما كان ابتداؤه في الماء الدافق في رحم المرأة إلى أن قدر الله فيها كون ذلك الجسد فيه بمكثه وتصرف الأحوال عليه إلى أن خرج منه حساساً دراكاً منتفعاً بصورة هذا العالم متعلقاً بذواتها، هذا الشيء مؤجل لمن يخرج بعد من حد القوة إلى حد الفعل"(٢).

٤-"وأيضاً كنا مؤجلين قبل خروجنا من حد قوتنا إلى حد فصلنا واتحاد أرواحنا بأجسادنا ، ولما لم يكن الإحاطة على الشيء المؤجل في النشأة الأولى ممتنعاً كذلك الإحاطة في النشأة الأخرى على البعث المؤجل لم يكن ممتنعاً ، بل كان واجبا وجوب الحكمة فيها كي لا يحصل العبث منها "(٣).

٥- إن المعتبر في الحشر هو إعادة الأجزاء الأصلية الباقية من أول العمر إلى آخره لا الحاصلة بالتغذية فالمعاد في كل من الأكل والمأكول الأجزاء الأصلية

---

(١) مجموعة رسائل الكرماني . الرسالة الثانية عشرة . في الرد على من أنكر العالم الروحاني صـ١٨٨ تقديم وتحقيق .د / مصطفى غالب. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

(٢) المصدر السابق صـ٢٠٨ .

(٣) نفس المصدر صـ٢٠٨ .

التي هي الإنسان نفسه لا المتبدلة ، لأن هذه الأجزاء هي الباقية من أول العمـــر إلى آخره(١) .

ب- الأدلة النقلية:

لقد رد القرآن الكريم على هذه الشبهة وأبان أنها لا تخرج عما حكاه المنكـــرون قديماً وذلك في قوله تعالى:

﴿ وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحي العظام وهي رميم قل يحييـــها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فـإذا أنتم منه توقدون أو ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴾(٢).

وقال تعالى:﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فـي السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾(٣).

هذه بعض الأدلة النقلية التي توضح قدرته على الخلق وعلى الإعادة فالله الحكـــم والأمر وهو على كل شئ قدير.

الشبهة الرابعة: الإيمان بهذه الأمور يصيب بالفزع والقلق.

وهذه الشبهة متمثلة في إنكار الجنة والنار وأحوال الآخرة كلها فالحديث في مثـــل هذه الأمور أو التفكير فيها يصيب الإنسان بالقلق والخوف ويتحدث عن ذلك أحـــد الملاحدين معبراً عن وجهة نظره ونظر اتباعه فيقول رسل:

" إن الخوف من الجحيم كان ولا يزال حتى الآن بدرجة أقل مصدر قلق وفـــزع شديد قضى على الكثير من السلوى والعزاء اللذين يستمدهما الإنسان من الإيمـــان بخلود الروح وكان الدافع لإنقاذ الآخرين من نار جهنم يساق كمبرر للاضطـهاد ،

---

(١) انظر : الأربعين في أصول الدين للرازي جـ٢ صـ٦١ ، شرح المواقف جـ٣ صـ٢٢٦ . شرح المقاصدجـ٢ صـ١٥٦ .

(٢) سورة يس الآيات ٧٨ – ٨١ .

(٣) سورة الروم الآية ٢٧ .

ولأنه إذا قام مهرطق بتضليل وتسبب في إنزال اللعنة بهم فإنه لا يمكن اعتبار أي درجة من التعذيب تطرفاً طالما أن هذا التعذيب يستخدم للحيلولة دون حلول هـذه اللعنة الفظيعة "(١) .

ويتابع حديثه قائلاً .. " إن اضمحلال الإيمان بجهنم لم يأت نتيجة أية محاجـات لاهوتية جديدة أو نتيجة النفوذ المباشر بل أتى نتيجة الإقلال العام من ضـرورة التصدي للمهرطقين خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر ... ومن الغريب أنـه عندما صار الإيمان بالجحيم أقل تحديداً نرى أن الإيمان بالجنة فقد حيويته "(٢)

وما ذكره رسل لا يختلف كثيراً عما ردده من بعده تلميذه " صادق جلال العظمـة" في كتاب "نقد الفكر الديني" الذي ذهب فيه إلى إنكار اليوم الآخر ، وما فيه مـن أحداث لكونه سبباً للفزع والخوف مع أنه في الواقع أمر لا وجود له(٣)

فهو أمر خيالي شأنه في ذلك " شأن ما بعد الطبيعة أن تصور عالماً خيالياً تخرجه الناس من غير أن تتأثر تلك الرأس ، ولا تخضع تلك الصورة لما وصلت إليه من المشاهدات وما وقفت إليه من التجربة من الأعمال الجليلة والشـئون ذات الأثـر الخالد "(٤) .

الرد على الشبهة:

إن ما يدعيه هؤلاء لا أساس له من الصحة .. بل إن الأمر على عكس ذلك تماماً فالإيمان بالآخرة هو الذي يحرر الإنسان من خوفه ويفتح أمامـه آمـالاً كثـيرة "فالآخرة هي التي يجب أن يعمل لها الإنسان؛ لأن لكل شخص أمـاني كثـيرة لا تكلل بالنجاح في حياته، ولذا يتمنى حياة أبدية ، ولكن الحياة التـي أعطيـت لـه تخضع لقانون الموت ، ومن هنا يتطلع الإنسان لما بعد الموت ليجد ثمـرة هـذا

---

(١) الدين والعلم : رسل . صـ١٣٢ ترجمة د/ رمسيس عوض.

(٢) نفس المصدر ١٣٢ – ١٣٣ .

(٣) صراع مع الملاحدة . عبد الرحمن حبنكة صـ١٧٠ .

(٤) فصل المقال . أرنست هيكل. صـ١٨ .

العمل في الجزاء الذي لا ينتهي ، لأن دواعي الإنصاف والعدالة في ضمير الإنسان تقتضي أن يكون هناك يوم يميز فيه بين الحق والباطل ولابد للظالم والمظلوم أن يجنيا ثمارهما "(١) ولا يمكن أن يتم هذا إلا بوجود حياة أخرى يعطي فيها كل ذي حق حقه ... .

إن الإيمان بالآخرة يحقق السعادة للجماعة الإنسانية فلو دققنا النظر في مشكلة السلوك الإنساني وجدنا أن سعادة البشرية مرهونة بضوابط سلوك الإنسان ، وحينما نبحث عن الضوابط التي تضبط سلوك الإنسان وتقوم أفعاله نجدها في الخوف من الله .

" وبهذا التحليل تغدو قضية الإيمان باليوم الآخر ضرورة إنسانية لحل مشكلة الجنوح الإنساني ، ولمنح المجتمعات الإنسانية أفضل صورة ممكنة من السعادة الجماعية في ظروف هذه الحياة، ولدفع الإنسان إلى فعل الخير والارتقاء في سلم الفضائل الفردية والجماعية "(٢) .

ومن هنا فإن الإيمان بالآخرة ضرورى من الناحية الأخلاقية وكذا الناحية السلوكية يقول فولتير " إن أهمية الأدلة والحياة الآخرة عظيمة جداً حيث إنهما أساسان لإقامة المبادئ الأخلاقية . إن هذه العقيدة وحدها كفيلة بإيجاد إطار أخلاقي أفضل للمجتمع . ولو أن هذه العقيدة زالت فلن تجد دفعاً للعمل الطيب وسيترتب على ذلك انهيار النظام الاجتماعي"(٣) .

٣- لقد تواترت الأدلة على أهمية الإيمان بالآخرة – والعمل لأجلها للفوز بالجنة والنجاة من النار .

---

(١) اليوم الآخر بين اليهودية والمسيحية والإسلام . د/ فرج الله عبد الباري صـ٤١٧ ط دار الوفاء ط٢ ١٤١٢هـ-١٩٩٢م .

(٢) صراع مع الملاحدة – عبد الرحمن حبنكة صـ١٩٢ .

(٣) الإسلام يتحدى – وحيد الدين خان صـ٨ .

قال تعالى ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً وعد الله حقاً ومن أصدق من الله قيلاً ﴾ (١) .
وقال تعالى: ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ (٢) .
٤- وأخيراً فإن الواقع المشاهد يؤكد وجود الحياة الأخرى .... فهناك تطلع نفساني إلى وجود هذا العالم وهذا التطلع دليل على وجود الحياة الثانية ... .
فقد نشرت جريدة الأخبار الصادرة يوم السبت ٢٥ من شعبان سنة ١٤٠٩هـ الموافق ١ / ٤ / ١٩٨٩م بالعدد ٢٣١٧ تحت عنوان " الجنة والنار كما يراهما الأمريكيون فكتبت تقول :
" معظم الأمريكيين يزعمون بأنهم سيذهبون إلى الجنة .... في حين يأمل آخرون في مقابلة أصدقائهم وأفراد أسرهم هناك ..... أما النار فهي مسألة مختلفة ...
وقد أوضح استطلاع للرأي أجراه معهد "جالوب " ونشرته مجلة "نيوزويك" الأمريكية : أن ٧٧% من الأمريكيين يؤمنون بالجنة ويعتقد ٧٦% منهم أن فرصتهم في دخول الجنة جيدة .
وأظهر الاستطلاع أن ٥٨% من الأمريكيين يعتقدون بأن هناك نارا ، ويعتقد ٦% أن فرصتهم في دخول النار جيدة أو ممتازة .
وعن تصورهم للجنة قال ٩١% أنها ستكون دار سلام ، وقال ٧٧% أنهم سيلتقون بالأشخاص الذين يعرفونهم هناك ، ويعتقد ٧٤% أنه ستكون هناك فرصة للمرح والسعادة بينما يعتقد ٣٢% منهم أن فترة بقائهم في الجنة ستكون مماثلة للفترة التي عاشوها على الأرض "(٣).

---

(١) سورة النساء الآية ١٢٢.
(٢) سورة النحل الآية ٩٧ .
(٣) انظر: أخبار السبت ١٩٨٩/٤/١ العدد ٢٣١٧.

إمكان البعث:

بعد عرضنا للبعث والأقوال الممكنة فيه والشبه التي أثارها منكرو حشر الأجساد والشبة التي أثارها منكرو الحياة الأخرى بصفة عامة، أعرض لنقطة أخرى وهي من الأهمية بمكان حيث من خلالها يتم الرد على منكري الحياة الآخرة على اختلاف اتجاهاتهم.

(١) إمكان البعث من الناحية الشرعية:

لقد ساق القرآن الكريم جملة من الأدلة التي تورث اليقين بإمكان وقوع البعث ، وقد نوع الحق سبحانه تعالى بين هذه الأدلة لتناسب العقول على اختلاف مداركها فيكون ذلك أوقع في النفوس وأشد تأثيراً في القلوب .

أ – أدلة إمكان البعث .

عرض القرآن لإثبات إمكانية البعث من خلال الأدلة التي لا يختلف كل ذي لب سليم على إمكانها ومن هذه الأدلة :

١- الاستدلال على النشأة الآخرة بالنشأة الأولى:

وقد عرض القرآن الكريم لهذا في مواضع منها قوله تعالى: ﴿ ويقول الإنسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا ﴾(١) .

٢- القادر على خلق الأعظم قادر على خلق ما دونه.

قال تعالى : ﴿ لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾(٢)

" فكل عاقل يعلم أن من قدر على العظيم الجليل فهو على ما دونه بكثير أقدر وأقدر"(٣) .

---

(١) سورة مريم الآيتان ٦٦ – ٦٧ .

(٢) سورة غافر الآية ٥٧ .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية صـ٤٠٨ .

٣- قياس البعث من الموت على خروج الزرع من الأرض.
قال تعالى: ﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحي الموتى إنه على كل شئ قدير﴾(١).
فهذا من أروع الأمثلة على إمكان البعث هذا إلى جانب بعض الأدلة التي تثبت هي الأخرى ذلك ، وذلك من خلال النظر العقلي في الأنفس والأفاق التي يتأكد معها القدرة الإلهية .
ب- أدلة وقوعه:
لقد عرض القرآن الكريم لبعض النماذج التي تدل على وقوع البعث وإحياء الناس وإخراجهم من قبورهم لمحاسبتهم . ومنها :
١- قصة البقرة:
يذكر الإمام الألوسي أنه اختلف قوم من اليهود في قتيل لم يعرف قاتله فأوحى الله إليهم على لسان " موسى " أن اذبحوا بقرة واضربوه ببعضها ففعلوا فأحياه الله فأخبر بالقاتل ، والغرض من ذلك إحياؤه لكي يعقلوا الحياة بعد الموت والبعث والنشور(٢) .
قال تعالى : ﴿ كذلك يحي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون ﴾(٣) .
٢- قصة بنى إسرائيل مع موسى:
فلقد ذكر القرآن الكريم أن بنى إسرائيل علقوا إيمانهم بالله على رؤيته فصعقهم الله ثم بعثهم.
قال تعالى: ﴿وإذا قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون ﴾(٤) .

---

(١) سورة فصلت الآية :٣٩.
(٢) نظر : تفسير روح المعاني . للألوسي م١ جـ١ صـ٢٩٣ - ٢٩٤ .
(٣) سورة البقر الآية ٧٣ .
(٤) سورة البقر الآيتان ٥٥ - ٥٦ .

وهناك وقائع أخرى تثبت إمكانية وقوع البعث ، وذلك كقصة الخليل إبراهيم عندما طلب من ربه أن يريه كيف يحي الموتى ، وقصة أصحاب الكهف، وقد تواتـــرت الأحاديث على وقوعه .

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله (ﷺ) قال : (يحشر الناس يوم القيامــــة حفاة عراة غرلا . قلت يا رسول الله الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضــــهم إلـــى بعض قال : يا عائشة لا . الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض لكل امـــرئ منهم يومئذ شأن يغنيه)(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : وعظنا رسول الله (ﷺ) فقال: (أيها الناس إنكم محشرون إلى الله حفاة عراة غرلا كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين ..الحديث)(٢) .

(٢) إمكان البعث من الناحية العقلية:

إذا كان قد ثبت أن البعث ممكن من الناحية الشرعية فهو ممكن الوقوع أيضاً مـــن الناحية العقلية وذلك لما يلي:-

أ- أنه أخبر به الصادق الأمين ، وكل ما أخبر به فهو واقـــع فـــالبعث واقـــع لا محالة.

يقول صاحب المقاصد " الحشر والإعادة أمر ممكن أخبر به الصادق فيكون واقعاً أما الإمكان فلأن الكلام فيما عدم بعد الوجود أو تفرق بعد الاجتماع ، أو مات بعد

---

(١) الحديث أخرجه الإمام في صحيحه (ك) الجنة وصفه نعيهما (ب) فناء الدنيا وبيان الحشر م٩ جـ١٧ صـ١٨٧ حديث رقم ٢٨٥٩ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري (ك) الرقاق باب كيف الحشر م٤ جـ٤ صـ٤٨٩ . حديث رقم ١٣٩١، صحيح مسلم بشرح النووي (ك) الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة. م٩ جـ١٧ صـ١٨٨ حديث رقم ٢٨٦٠.

الحياة فيكون قابلاً لذلك والفاعل هو الله القادر على كل الممكنات العـــالم بجميـــع الكليات والجزئيات "(1) .

ب- القدرة على الخلق.

فإن من قدر على الخلق الأول كان على الخلق الثاني أقدر ، لكونه أيسر وأهون وهذا ما أشار الله صاحب المواقف(2) .

(3) إمكان البعث من الناحية العلمية:

يتمسك أنصار المذهب المادي في إنكارهم للحياة الأخرى بدعوى باطلة مؤداها أن هذه الحياة لا يمكن إثباتها عن طريق الأدلة العلمية . فإذا انتهت هذه الحياة فـــلا حياة. والواقع أن هذه دعوى مرفوضة فهناك عدة أدلة علمية من خلالها توصـــل العلماء إلى إمكانية وجود الحياة الثانية وهاك هذه الأدلة .

أ-الحياة الأولى .

فلقد أثبتت البحوث العلمية إمكانية إيجاد حياة أخرى خلاف هذه الحيـــاة المرئيـــة فالذين ينكرون الآخرة يؤمنون بالأولى . "والحياة تلك التي ظهرت مرة واحـــدة ، كيف تعجز عن إعادة نفس العملية مرة أخر؟ هذه التجربة التي نعيشها نحن اليـوم كيف يستحيل حدوثها ثانية إنه لا شئ أكثر عداء للمنطق والعقل الإنساني ، من أن نسلم بوقوع حادث في الحال وننكره في المستقبل "(3).

وهذا ما تؤيده الأبحاث العلمية. فحدوث شئ في الماضي لا يمنع من حدوثه فـــي المستقبل ولذا فإن نظرية النشوء والتطور ترى أن جميع أنواع الحيوانات تنحـــدر من نوع بدائي واحد وأنها ارتقت إلى ما هي عليه خلال مراحل تطورية متطاولة وبناء على هذا التفسير ... فإن الزرائف الموجود حالياً كان في بدء الأمـــر مـــن

---

(1) شرح المقاصد جـ2 صـ156 .

(2) شرح المواقف جـ3 صـ226 .

(3) الإسلام يتحدى صـ100 .

عشيرة الحيوانات الصغيرة ذوات الظلف ولكن هذا الحيوان من خلال العمليات الطويلة التي أعقبت التوالد والتناسل ، والتغيرات والفوارق الصغيرة التي طرأت على الجنس الحيواني ، استطاع أن يحصل على هذا الهيكل العظيم غير العادي الذي نشهده اليوم "(١)

يقول "دراوين" "ومن الأمور الحتمية عندي أنني إذا ما أجريت العملية المطلوبة خلال زمن طويل فمن الممكن أن نجعل من حيوان ذي ظلف عادي حيواناً مثل الزراف"(٢) .

وهكذا انتهي العلماء إلى التسليم بإمكانية وجود حياة أخرى شريطة أن تتوفر لها نفس الأسباب التي ساعدت على خلق الحياة الأولى بل إن إمكانية هذه الحياة أهون من الأولى وهذا الدليل يلتقي مع قوله تعالى ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾ (٣).

ب-لقد قام العلماء بجملة من الأبحاث الروحية وانتهت هذه الأبحاث بإمكانية وجود حياة أخرى بعد الموت.

يقول أحد الباحثين " أثبتت البحوث الروحية الحياة بعد الموت على المستوى التجريبي والمعملي ، إن الأمر الذي يدفعنا إلى إبداء مزيد من الإعجاب بهذه البحوث هو أنها لا تثبت بقاء محضاً لروح ما بل إنها تثبت أيضاً بقاء الشخصيات التي كنا نعرفها بذاتها قبل أن تموت !! إن هناك خصائص كثيرة يتمتع بها الإنسان من قديم الأزمان ...... ومن هذه الخصائص (الرؤيا) التي تعذ من أقدم مميزات الجنس البشري، والحقائق المثيرة التي كشفها علماء النفس عن هذه

---

(١) نفس المصدر ١٠١ .

(٢) نفس المصدر ١٠١.

(٣) سورة الروم الآية ٢٧.

الميزة لم يكن قدماؤنا على علم بها ... ، ومن هذه البحوث ما نسميه بـــالبحوث الروحية "(١) .

التي تثبت وجود الروح وأن حياة أخرى بعد الموت حقيقة مؤكدة وهذا ما نطقــت به الأبحاث العلمية التي انتهى أصحابها إلى " أن الشخصية الإنسانية تواصل بقاء بعد فناء الجسد المادي في صورة غريبة "(٢) .

ومن خلال هذا نستطيع أن ننهي إلى أن الوجود الإنساني لا ينحصر فـــي هــذه الحياة المادية التي تخضع لعمليات معينة وأحكام خاصة بل له وجود آخر في عالم آخر له خصائصه وقوانينه اللازمة له . ومن ثم فإن الأولى ألا تفسر قوانين هــذه الحياة إلا من خلال المفاهيم الدينية .

جـ- ما أثبته العلم الحديث من خطأ نظرية فناء المادة.

فقد دلت الأبحاث العلمية على بقائها وإن كان على هيئة صوره أخرى لا نشاهدها بأعيننا. يقول أحد الباحثين " فالشمعة مثلاً نحرقها فتبدد الظلام وتندثر هي أيضـــاً وتنعدم شخصيتها أمام أعيننا ولكن الكيميائي يستطيع أن يثبت أن عناصرها باقيــة ، وأنها لم تفن وإنما تفرقت ذراتها في الجو وهي موجودة في الهواء ولكن علـــى وضع آخر "(٣).

وقس على ذلك الماء الذي يضع على النار فيتبخر في الجو وينتهي أمامنا الواقــع خلاف ذلك فهو في الهواء وإن كان على صورة أخرى. كل هذا يؤكد إمكانية بقاء الروح وأنها لا تنعدم بموت البدن ومع هذا فإن نظرية الحياة الأخرى لابـــد وأن تبقى بعيدة عن مقياس البشر .

د-ما توصل إليه العلم من اكتشافات مذهلة.

---

(١) الإسلام يتحدى صـ١٠٣ .

(٢) الإسلام يتحدى صـ١٠٣ .

(٣) قضية البعث رسالة دكتوراه – إعداد الباحث د/ عبد المنعم محمود شعبان صـ ٢١٠. كلية أصول الدين بالقاهرة.

كانت تعد إلى عهد قريب من المستحيلات .. بل كان ينظر إليها على أنـــها أشــد استحالة من البعث إلا أنها صارت الآن من المسلمات التي لا يختلف فيها اثنـــان فالكهرباء ، والذرة والطاقة وإمكانية تحويلها إلى مادة أو العكس وهبوط الإنســان على سطح القمر، ونزوله إلى قاع البحار وتسجيل ما يحدث فيه كل هذه الأمـــور لو تحدث عنها في الماضي لاستبعدها الإنسان وجعلها من قبيل المستحيلات .

، والأقمار الصناعية وشبكة المعلومات وغير هذا من مستحدثات العصر مـــن الممكن أن يرد به على منكري البعث " إن الصورة التي تظـــهر علـــى شاشــة التلفزيون قد انتزعت من صورة الشخص عندما كان على ســاحة المســرح ثــم تجمعت هذه الصورة على شاشة التلفزيون بعد أنس تبعثرت في الفضــاء(١). وإذا كان ذلك قد حدث وهو من صنع المخلوقين فكيف بصنع الله تعـــالى؟ إن الأمــر أهون من ذلك بكثير. إن العلم الحديث الذي يتمسك به هؤلاء المنكرون يعد حجــة واضحة عليهم، ودعامة قوية إلى ضرورة الإيمان بالحياة الآخرة لتحقيق ســـعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، هذه هي أهم الردود العلمية التي تثبت إمكانية البعــث من الناحية العلمية ، وبانتهائها نكون قد انتهينا من الحديث في هذه المسألة.

(١)المصدر السابق صـــ٢١٤ .

فهرس الموضوعات